رواية

بَينَ كُسَيرَاتِ الهَوى

لِسحر خواتمي وَ هبة اعرابي

سلسلة فيء الغمام

عن الرّواية

هذه الرّواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدٍّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابَّات لِكُلٍّ منهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها. تدور معظم الأحداث في السلسلة فيما أشرنا إليه بـ "الوطن"، وهو إحدى الدول العربية في الشرق الأوسط دون تحديد أو تقييد.

وفيما يخصُّ التصنيف العمريّ، فنحن نرى أنَّ السلسلة مناسبة لمن عمرهم خمسة عشر عاماً أو يزيد، لكن مع هذا فإنَّ الحبكة الدرامية وما بها من تفاصيل وجوانب نفسيَّة واجتماعيَّة تؤهلها لمن هم فوق العشرين عاماً.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

Website : www.faibooks.com

E-mail : info@faibooks.com

Facebook : @faibooks

Instagram : @faibooks7

Twitter/X : @faibooks7

رواية بين كُسَيرات الهوى

تأليف: سحر خواتمي وَ هبة اعرابي

رقم الإصدار وتاريخه: الإصدار الأوّل – 10 سبتمبر 2024.

التدقيق اللغوي: نورا خدَّام

تصميم الغلاف: هبة اعرابي

الرسوم التصويريَّة: سحر خواتمي

تنويه: جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلفتين استخدام أي مادة من مواد هذا الموقع الشبكي أو استنساخها أو نقلها كليّاً أو جزئيّاً -في أي شكل وبأي وسيلة- سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

سحر وَ هبة

إهداء

إلى أولئك الذين إن أخطأوا اعتذروا

وإن تمادوا ندموا

مقدِّمة

لا تقتصر مجابلة الحياة على مناطق الراحة، والخوف، والتعلُّم فقط، فثمة مناطق نمرُّ بها دون أن نقصدها؛ تمزج بين كلِّ ذلك بعشوائية، فتشتت مشاعرنا، وتبعثر استقرارنا، وتفقدنا القدرة على التركيز، وتجعلنا نتوه بين الحقيقة والخيال، ونخلط الواقع بالأحلام.

الشخصيَّات الأساسيَّة

آدم، أبريل 1986

سلام، سبتمبر1991

"ربَّما تُنتج صيغة بسيطة للغاية كوناً لا متناهي التعقيد"

بينوا ماندلبروت

الفصل الأوَّل

آدم يوليو 2011

كنت في سيارتي أتجوَّل قبل أن أعود إلى المنزل بعد يوم عملٍ شاقٍّ مليءٍ بالقيل والقال مع العملاء، فحتى لو كان أغلب تعاملي مع الأطباء، إلا أنَّ العميل يبقى عميلاً وكثير الأسئلة، وبينما كنت أدندن مع مسجِّل الأغاني، رنَّ هاتفي، وإذ بها ليلى:

- مرحباً آدم، هل أنت مشغول؟
- هلا وغلا، لست مشغولاً، أقود سيارتي.
- إذن سأعاود الاتِّصال بك حالما تصل.
- قولي ما لديكِ الآن.
- أما تزال تجيب على الهاتف وأنت تقود! ألا تتعلَّم من أخطائك؟

ضحكت بأعلى صوتي ثمَّ قلت لها:

- أخبريني ما عندك، لقد فتحت مكبِّر الصوت.
- كما تشاء، أودُّ استخراج مصدَّقة تخرُّجٍ ويبدو أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة، أنا بحاجة إلى مساعدتك يا بشمهندس.
- ثلاث سنوات مضت على تخرُّجنا يا ظالمة، ولم تحضري مصدَّقة التخرُّج بعد!

- هنالك العديد من الأوراق اللازمة والتي لم أسمع عنها في حياتي، هل نلتقي في أحد المقاهي؟
- والدتي في المنزل، اجلبي أوراقك وتعالي إلى هناك، متعبٌ أنا ولا أودُّ الجلوس في أيِّ مكانٍ.
- حسناً، نلتقي بعد نصف ساعة في منزلكم، أخبر الخالة أم يمان أنِّي مشتاقةٌ إلى قهوتها جدّاً.
- للأسف ستكون سعيدةً بقدومك، لا تتأخَّري.
- إلى اللقاء.

أنهيت المكالمة وأكملت طريقي نحو المنزل، وفعلاً وصلتْ ليلى بعد دقائق من مجيئي فاستقبلتها والدتي بحفاوةٍ، وجلستا تتبادلان أطراف الحديث إلى أن جلست معهما، فسألتها:

- أين الأوراق؟
- تلك هي تفضَّل، أوَّلاً، ماذا كان اسم اختصاصنا بالضبط؟ الهندسة الطبيَّة فقط؟
- نعم، هندسة طبيَّة فقط، وماذا سيكون أكثر؟ هل التشكيليَّة أم التجريديَّة؟ هندسة طبيَّة ونقطة انتهى.
- ولِمَ أنت غاضب؟
- لست غاضباً، لكنَّ أسئلتك سخيفة.

نهرتني والدتي وهي تردِّد:

- استحِ يا ولد، تحدَّث مع الفتاة بلطفٍ!

أخذت الورقة منها وأكملت لها البيانات وأنا أسخر من خطِّها، وقلت:

- أهذا خطّ مهندسة؟ يبدو كخرابيش الدجاج.

كادت أن تضربني بحقيبتها وهي تقول:

- كما لو أنَّ خطَّك أجمل يا فالح.
- أنا آدم ولست "فالح".

فهمت ليلى ما أرمي إليه، فصمتنا طويلاً، ثمّ ابتسمتُ ابتسامةً ساخرةً ونظرت إلى النافذة وأنا أسألها:

- لِمَ تحتاجين إلى مصدَّقة التخرُّج الآن؟
- لقد اكتفيت من دروس التقوية باللغة الإنكليزية، وحان الوقت للبحث عن عمل.
- هل هنالك مجالٌ محدَّدٌ تودِّين العمل به؟
- لا إطلاقاً، لم أخطِّط لشيء، ولا أعرف بالأساس ماذا أريد!

ثمَّ أردفتْ سريعاً:

- وحدهم الأذكياء يعرفون ماذا يريدون، أمَّا نحن فلا نرى أبعد من أنوفنا.

ناولتني والدتي كوباً من الشاي، بدأت باحتسائه بينما راحت ليلى تعبث بكومة الأوراق التي أمامها، وإذ بها ترى بطاقة دعوة زفاف على الطاولة، أمسكتْها وقالت:

- أهيَ لزفاف جود وعمر؟
- نعم، ستصلك بطاقتك قريباً، البارحة ذهبنا معاً، واستلمنا البطاقات من المطبعة.

تابعتني ليلى بنظراتها وهي تقول:

- محظوظان جود وعمر، هما الوحيدان اللذان حظيا بقصَّة حبٍّ ناجحةٍ من خريجيّ هذه الدفعة!

قطّبت حاجبيّ ولم أجبها بينما قالت لها والدتي وهي تربّت على كتفها لتخفِّف عنها:

- قولي ما شاء الله يا ابنتي.

فكرَّرت ليلى وهي تهزُّ برأسها بتصنُّع، حتَّى تطاير شعرها إلى الأمام والخلف:

- ما شاء الله، ما شاء الله.

ومن ثمّ سألتْ:

- يا خالة، أتراه الحسد من فرَّقنا أنا ويزن؟

ابتسمت والدتي وهي تجيبها:

- بل هو النصيب يا حبيبتي، لا تفكِّري كثيراً بالأمر، أسأل الله أن يختار لكِ الخير دائماً وأبداً، لم أُرزق ببناتٍ، لكنَّ محبَّتك كما لو أنَّك ابنتي حقَّاً، وتعلمين أنَّ آدم يعتبرك مثل أخته، أسأل الله أن تجتازين هذه المحنة عاجلاً غير آجلٍ.

أجابتها ليلى بحرقة:

- سأدعو عليه مع كلِّ صلاةٍ.

فزعت أمي وقالت لها:

- لا يا ابنتي لا يجوز، لم يؤذِك الرجل، وكلُّ ما في الأمر أنَّه لا نصيب بينكما.

ضحكتُ وقلت لأمي:

- لا تخشي شيئاً، فهي لا تصلِّي بالأساس، أراهن أنَّها لم تصلِّ فرضاً واحداً منذ سنةٍ.

حينها رمت ليلى علبة المناديل باتِّجاهي وقالت وهي غاضبة:

- آدم أيَّها اللعين، كفاك سخرية، أنت لا تعلم ما بيني وبين ربي، اصمت!
- بركاتك يا شيخة ليلى، والآن هل من شيءٍ آخر؟ سأدخل إلى غرفتي فأنا مرهقٌ جدَّاً.

سارعت ليلى حينها ورمت بكلماتٍ لتزعجني أكثر:

- مثل العجائز، هل تعلم؟ منذ أن تركتك تلك الشئيمة وأنت شخصٌ مختلفٌ، كئيبٌ وتافهٌ إلى أبعد حدٍّ.

نظرتُ إليها بغضبٍ شديدٍ وصرخت في وجهها:

- ليلى، انتبهي إلى كلامك!
- تبّاً لها، تراعي مشاعرها بينما تركتك هائماً على وجهك، كم أنت مثيرٌ للشفقة!
- قلت لكِ مئة مرَّة، لا تتحدَّثي عن جُمان بهذه الطريقة.
- كما لو أنّي أهتمّ! غبيٌّ، أما تزال تحبُّها؟

لم أجبها ولم أعلِّق أكثر، وتدخَّلت والدتي في تلك اللحظة:

- ألا تملَّان من هذا الحديث؟ كفاكما، احترما وجودي على الأقل!
- يا خالة، هو لا يفهم أنَّ كلَّ ما يفعله بنفسه سيذهب أدراج الرياح، تركتْه وسافرتْ إلى باريس ولم تكترث، تماماً كذاك الغبي الذي سافر إلى لندن، أكرههما جدًّاً.
- يا ابنتي كم مرَّة سأكرِّرها لك، إنَّه النصيب، لا نستطيع التحكُّم به!

خرجتُ من الغرفة عند هذا الحدّ، فقد مللت من سماع هذا الحوار، وتوجَّهت نحو غرفتي وفتحت جهاز الحاسب ورحت أبحث عن صور خطبتي، فمنذ عدّة أسابيع لم أفتح الصور ولم أقلِّب مواجعي، لكن تأبى تلك الحمقاء ليلى إلا أن تعبث بجراحي.

جُمانا! لقد اشتقت إليك كثيراً، لقد مضت سنتان وأكثر على خطبتنا، وكان كلُّ شيءٍ يسير كما هو مخطَّطٌ له، تجهيز المنزل، وترتيب الزفاف، وفجأة كما لو أنَّني استيقظت من حلمٍ جميلٍ لأجد الواقع أمامي مريراً وتعيساً إلى أبعد حدٍّ.

أن تكوني من المتفوِّقات في الدفعة، أهي نقمةٌ أم نعمةٌ!

تأمَّلت الصور مرّةً أخرى بينما كان صوت ليلى ما يزال يصدح في المنزل. يا لتعاستنا أنا وليلى، حين اخترنا، لم يقع اختيارنا إلا على الأكثر اجتهاداً وطموحاً. ألم يكن من الواضح منذ البداية أنَّهما سيسعيان وراء أحلامهما!

أغلقت عينيّ بينما بقي سؤال ليلى يصدح في أذني "أما تزال تحبُّها"، يا لهذا السؤال السخيف!

آدم أغسطس 2011

فرحة عمر باقتراب زفافه لا تُضاهى، سعيدٌ أنا لأجله، فهو يستحقُّ كلَّ الخير، وقد أثمر حبُّه الكبير لجود، وسيتوَّج هذا الحبّ أخيراً بزواجهما. وعدت عمر منذ أن بدأ بالتحضير لحفل زفافه أن أكون يده اليمنى في كلِّ شيءٍ، فما يزال أبوه مشغولاً بعمله ومواعيده.

كنت على موعدٍ معه كي أساعده في نقل بعض الأغراض إلى منزله الجديد، فقد انتهى من تأسيسه ولم يتبقَّ إلا بعض التفاصيل الصغيرة. بعدما وصلت إلى منزله، اتَّصل بي واعتذر منِّي بشدَّةٍ فقد اضطُّر إلى الذهاب إلى موعدٍ طارئٍ ولم يتمكّن من المجيء، أخبرته أنَّ لا بأس بذلك، وانطلقت بسيارتي لأجد نفسي ودون شعورٍ منِّي أمام المنزل الذي كان من المفترض أن أنتقل إليه قبل سنتين. ركنت سيارتي، وأخرجت هاتفي، وبحثت عن تلك الصورة.

الصورة الأخيرة التي التقطتُّها مع جُمان. أذكر تماماً ذلك اليوم، عندما وقفت في هذا المكان بالضبط، وطلبت منها أن تبتسم لالتقاط الصورة، سألتني حينها وهي تتذمَّر:

- لماذا تقف الآن؟ وما المميَّز في الصورة؟

أمَّا أنا فقد كنت في قمَّة سعادتي، وأنا أجيبها:

- هنا سنجتمع معاً تحت سقفٍ واحدٍ.

لم تسألني يومها عمَّا أتحدَّث ولم تستفسر، اعتقدت -بغبائي- أنَّها محرجةٌ أو منعها حياؤها من إكمال الحديث، فاحترمتُ ذلك ولم أصرّ على الإسهاب لأكتشف بعد أسبوعٍ واحدٍ أنَّها كانت تخطِّط للسفر إلى باريس لإكمال دراستها، وأنَّ بالها كان مشغولاً بشكلٍ كاملٍ بالأوراق والتحضيرات للسفر، أمَّا أنا فقد كنتُ خارج دائرة مخطَّطاتها تماماً.

تلك الصورة، لم أستطع مسحها رغم قسوتها. أتأمَّل ملامحها وأتساءل دوماً: كيف لم ألحظ استياءها في تلك الأيام؟ هل كرهتني جُمان فعلاً؟ إن كانت قد كرهتني، لِمَ بكتْ حين فسختْ خطوبتنا؟ ولِمَ كانت حزينةً حين عاودت الاتِّصال بها قبل سفرها!

هل أحبَّتني جُمانا أم أنَّها كانت تتوهَّم؟! كانت كلُّ تلك التساؤلات تؤلم قلبي، لم أستطع يوماً أن أنساكِ يا جُمانا.

تنهَّدت قليلاً وكنت على وشك إكمال طريقي، لكنّي اتَّصلت بليلى:

- ليلى، كيف حالك؟
- أنا بخيرٍ، ما بك؟
- أرجوك، أحتاج إلى خدمةٍ صغيرةٍ منك.
- قل لي ماذا تريد؟
- بطريقةٍ أو بأخرى، حاولي أن تستفسري فيما إن كانت جُمانا ستأتي لحضور حفل زفاف جود وعمر أم لا.

ضحكت ليلى بأعلى صوتها وهي تجبني:

- أيعقل أنَّها لن تأتي؟
- أعتقد أنَّها في المراحل الأخيرة لتسليم رسالة الماجستير، ومن المحتمل أنَّها لن تأتي فعلاً!

أجابتني باستخفافٍ:

- وما هذه الرسالة الخارقة التي بسببها ستتخلَّى عن حضور زفاف صديقتها المقرَّبة! أوه نسيت، لقد تركت الدنيا كلّها من أجل

هذا الماجستير العظيم، فالأولى أن تترك صديقتها أيضاً في يومٍ مهمٍّ كهذا، وتخذلها كما خذلت الجميع.

- لا تتكهَّني، أحضري لي الخبر اليقين.
- حسناً، خمس دقائق وسيكون عندك.
- لا تسألي بشكلٍ مباشر وواضح.
- وما الفرق! تعرف طبعي، لا أحبُّ اللف والدوران.
- افعلي ما يحلو لك، أنا بانتظارك.

وفعلاً، بعد خمس دقائق بالضبط اتَّصلت بي ليلى، أجبتها وأنا في قمَّة حماستي:

- بشِّري؟
- لن تأتي، كما قلتُ لك!

شكرت ليلى على اتِّصالها وأغلقت الهاتف. تنهَّدت طويلاً، كم كنت أنتظر هذا اليوم لأراها مجدَّداً، فأنا هنا ما أزال أنتظرها، لم ينقص حبِّي لها إطلاقاً، آمالي مرتفعةٌ جدَّاً، خاصَّةً وأنَّها على مشارف التخرُّج، أي لا مانع من ارتباطنا ثانيةً ما دام أنَّها وصلت إلى حلمها وهدفها في إكمال الدراسات العليا في جامعةٍ أوروبيّةٍ مرموقة. صحيحٌ أنِّي تمنَّيت لو أراها بحفل الزفاف، لكنَّها وببعدها عنِّي أراها في قلبي في كلِّ ثانية وفي كلِّ لحظة، وسأنتظر.

سلام   سبتمبر 2011

قدَّمت لنا المضيفة الطعام، فاعتلت وجه أمِّي ابتسامة وأتبعتها بقولها:

- وأخيراً سأودِّع هذا الطعام وأستمتع بطعام وطني.

قاطعتها قائلة:

- مع كامل احترامي، لكن من يسمعك يظنُّ أنَّك تحضرين الطعام الكندي والسريع لنا، وأنَّك لا تطهين طعامنا كلَّ يوم.
- أعلم هذا ولكن طعم خضار ولحمة الوطن أزكى.

أضاف والدي متهكِّماً:

- نعم طعمها تراب وجراثيم.

ضحكتُ وواصلت:

- على كل حال لن تعتادي ذلك الطعم كثيراً سنعود بعد زفاف عمر.

هنا اعتلت نظرةٌ عابسةٌ وجهي والديّ، وقطبا حاجبيهما، وقالت لي أمي:

- سلام هنالك أمرٌ يجب أن نخبرك به.
- ما هذا الأمر الذي جعلكما تعبسان هكذا؟ أهنالك خطبٌ ما؟
- بعد تقاعد والدك الذي أخذه مبكراً، قرَّرنا أن نستقرّ في وطننا.
- أسأل الله أن يختار لكما الخير ويوفقكما.
- سلام! تتكلَّمين وكأنَّك مستثناةٌ من الموضوع؟
- أرى أنّ جوابي هذا عادلٌ بما فيه الكفاية، فأنتما اعتبرتماني هكذا بالأصل، لم تشاركاني باتِّخاذ القرار، لذا ابقيا حيث شئتما! ثمّ ما يزال لديّ مشروع التخرج، عليّ أن أنهيه كي أتخرّج.
- نعلم ذلك، وحينها لا بأس بأن تسافري وتنهيه وتعودي إلى الوطن.
- لن أعود!
- سلام، لا تتمرَّدي بهذه الطريقة، لم نرغب بإزعاجك بمثل هذه الأمور، هذا كلّ ما في الأمر.
- سلام آخر من يعلم، سلام لا يحقُّ لها التدخُّل بالقرارات، دائماً لا يجب أن نزعج سلام بمشكلاتنا وأمورنا. تعاملون سلام مثل طفلةٍ عمرها خمس سنواتٍ أو حتَّى أصغر.
- نحاول حمايتك يا عزيزتي.

- أنتما لا تحمياني، بل تبعداني عن العالم الخارجي وتضعاني في قوقعةٍ.
- سلام، يكفيني خسارة طفل لا أريد خسارة الآخر.
- أرأيتِ؟ لقد وصفتني بالطفلة للتوّ، ثمَّ ما حدث لأخي إنَّما هو قضاء وقدر، لا ذنب لأي أحدٍ بالأمر، وعلى فكرة، لماذا تقاعد أبي مبكراً؟ أشعر أنَّ في تقاعده المبكر هذا ما يدعو إلى القلق!

وعاد الصمت ليسود مرَّةً أخرى، علمت أنّ ثمَّة مشكلة وكالعادة يحاولان إبعادي عن الأمر، فقلت لهما فجأةً:

- إن لم تخبراني الآن بما يجري، فسأقوم بفعلٍ جنونيٍّ بالطائرة، وأنتما تعلمان أنِّي أفعل ما أقول، أو سأحجز تذكرة العودة عند لحظة وصولنا.

هنا تدخَّل أبي فقال:

- سلام بصراحة لم أرغب بإخبارك، فأنا لا أريد أن أرى نظرة حزنٍ تعلو وجه ابنتي.
- أبي أرجوك أخبرني ما الأمر؟
- تبيَّن أن لديّ تليُّف في الكبد.
- أبي؟ ماذا قلت للتوّ؟ متى وكيف؟

علا صوتي، وطبعاً لم أتمالك نفسي كما وعدت، فبدأ الناس من حولي ينظرون نحونا، فكَّرت: ألم يكن من الأسهل لهما ولي لو أخبراني بكلِّ تلك الأخبار في المنزل؟ كعادتهما يحاولان حماية سلام! أخبراني الآن لأنَّهما يعلمان أنِّي سأتحمَّس بمجرَّد رؤيتي لخالتي وعمر وسيظنَّان أنِّي سأنسى كلَّ هذا بلمح البصر!

مضت الساعات المتبقِّية لوصولنا على أسوأ حال. صمتٌ مطبقٌ ودموعٌ مكبوتةٌ في قلبي، وحين وصلنا كانت خالتي هيام مع عمر في المطار لاستقبالنا. تعانقنا، ضمَّت أمِّي عمر وبدأت بالبكاء كعادتها وأخذت تردِّد:

- رائحة الغالي، وأخ الغالي..

سحبت عمر إلى طرفي كما لو أنِّي أغيظها وقلت:

- وأخي أنا أيضاً.

انتهينا من العناق والأحضان وانطلقنا إلى منزل خالتي، كنت أفكر طوال الطريق بما أخبراني به والدايّ، اعتصر الحزن والخوف والقلق قلبي، حزني على مرض والدي وخوفي عليه، وقلقي على مستقبلٍ ربَّما أقضيه في هذا البلد.

ماذا أعمل هنا أنا التي درست التصوير، في بلدٍ يعتبرون فيه المصوِّر شخصاً يحمل الكاميرا فقط؟ في المقابل، لن أستطيع ترك والديّ وأنا وحيدتهما. وضعت ابتسامةً مصطنعةً على وجهي، فأنا لا أريد إفساد اجتماع العائلة الجميل بأفكاري السوداويَّة تلك، ومسحت الدمعة من عيني قبل أن تنزل، وبينما كنت مشغولةً بأفكاري تلك، التفتت نحوي خالتي هيام وقالت:

- تشعِّين كلّ عامٍ أكثر فأكثر.

ثمَّ قالت لأمِّي:

- أعانك الله على كثرة المتقدِّمين لخطبتها.

ثمَّ ضحكت الاثنتان معاً، شعرت بالإحراج من ذلك المنطق فالتفتُّ إلى عمر وسألته:

- ما مشاريعنا لليوم؟
- اليوم سأعرفك إلى جود، عسى أن تجدي صديقةً لك ويخفُّ حملك من على كاهلي.
- سامحك الله، تتكلَّم وكأنِّي طفلة تلحق أخيها إلى كلِّ مكانٍ ولا تدعه يتنفَّس.

أجابت أمي:

- أولستِ كذلك؟!

وضحكوا جميعاً، بينما نظرت إلى النافذة مجدَّداً وقلبي يحدِّثني أنَّ زيارتي هذه المرَّة للوطن ستحمل لي مفاجآتٍ كثيرة وفقاً لهذه البداية.

آدم

سبتمبر 2011

كنت أعدِّل ربطة عنقي حين دخلت والدتي إلى الغرفة فقالت:

- دعني أصلحها لك.

تركت والدتي تتولَّى زمام الأمر وهنا بدأت بالدعاء والتمنِّي.

- أتمنَّى أن أفرح بك قريباً وأعقد ربطة عنقك يوم زفافك.

ضحكت ورددت:

- ومن قال غير ذلك؟ ستفرحين بي قريباً بإذن الله.

نظرت إليّ نظرة استغرابٍ وسألتني بسرعةٍ:

- آدم! أخبرني هل هنالك أخبار جديدة؟ لماذا لم تخبرني سابقاً؟ ما اسمها؟ هل تودُّ أن نخطبها لك؟ من أي عائلة هي؟ وكيف تعرَّفت إليها؟
- أمي أرجوك هل كلُّ هذا التحقيق بسبب جملةٍ واحدةٍ صدرت مني؟
- ولكن كانت صياغتك كالواثق من نفسه وكما لو أنَّ هنالك أنباء جديدة خلف هذه الجملة.

- نعم، أنا واثق، ولكن لا يوجد أي موضوع جديد.
- إذن؟
- الموضوع القديم نفسه.
- أي موضوع قديم؟
- أمي ما بالك وهل هنالك سوى جُمانا؟
- أتريد أن تصيبني بالجنون؟ لِمَ تعاود فتح موضوع مضى عليه أكثر من سنتين؟
- وهنا بيت القصيد.
- أي قصيد؟
- جُمانا شارفت على إنهاء الماجستير سأعاود الاتِّصال بها بعد تخرُّجها وأفاتحها بموضوع عودتنا إلى بعضنا.

أخذت أمِّي نفساً عميقاً، واحمرَّ وجهها غضباً ممَّا قلت، ثمَّ قالت لي وهي تتصنَّع الهدوء:

- آدم! أنوي حضور هذا الزفاف وأنا بكامل قواي العقلية والنفسية، أرجوك أغلق هذا الموضوع الآن وعاود فتحه بعد أن تنهي الأميرة ماجستيرها.
- كما ترغبين، ولكن حين نعود إلى بعضنا لا تقولي لم أخبرك وأنّكِ آخر من يعلم!

- لا طائل من الحديث معك الآن ولا أرغب بأن نتأخَّر عن الحفل، على كل حال كانت وما تزال سعادتك هي أولى أولوياتي، ودعواتي لك دوماً أن يوفقك الله ويسعدك ويرضيك.
- هذه أمِّي التي أعرفها.

طبعتُ على رأسها قبلةً من ثمَّ مضيت لأرى ما الأوضاع وإن كان الجميع جاهزاً للانطلاق أم لا، فاتَّصلت أولاً بليلى، فأجابتني:

- أهلاً آدم، ما الخطب؟
- سأنطلق بعد عشر دقائق إلى صالة حفل الزفاف، وسأوصل والدتي إلى هناك ومن ثمَّ أذهب إلى بيت العروس، فموعدنا مع عمر في الساعة العاشرة، هل تكونين في الصالة، أم في منزل العروس؟
- كانت الخطَّة أن أكون في منزل العروس، لكن يبدو أنِّي لن أستطيع اللحاق بالموعد، وسأذهب مباشرةً إلى الصالة، آمل أن أتواجد قبل أن يصل العروسان.
- وما الذي يؤخِّرك؟ ما تزالين تستطيعين اللحاق بنا.
- لا، لقد عدت منذ قليلٍ من صالون التجميل، وما يزال لديّ تركيب الرموش.

- رموش؟ أي رموش؟ لم أفهم!
- رموش لي، ما بك؟
- أليس لديكِ رموش؟
- آدم، اغرب عن وجهي أنا في عجلةٍ من أمري، هيَّا أغلق الهاتف حالاً.
- حسناً، أراك في الحفل.
- مع السلامة.

فكَّرت قليلاً، على هذه الحالة ستكون ليلى متأخِّرةً جدَّاً وستكون والدتي وحيدةً في الصالة، فقد أبدى والدي عدم رغبته بالذهاب إلى حفل الزفاف، لأنَّه لا يحبّ الضجيج لكن في هذه الحالة، عليه أن يذهب كي لا تبقى أمِّي وحيدةً هناك، خاصَّةً أنَّ والدة جُمانا ستكون هناك، ولا أودُّ أن تتبادلا النظرات الغريبة فيما بينهما، فأنا أدرك حساسيَّة الموقف. انطلقت إلى غرفة والدي فوجدته يقرأ كتاباً، فقلت له:

- أبي، ستذهب إلى حفل الزفاف، ما من خيار آخر.
- لِمَ؟
- لأنَّ هناء ستجلس وحيدةً بينما سأكون أنا منشغلاً مع عمر في الزفَّة.
- ماذا عن ليلى؟

- ستتأخَّر، هيَّا أرجوك، هل يرضيك أن تجلس هناء وحيدةً؟
- لا بالطبع.
- إذن بسرعة، سأمهلك خمس دقائق.
- حسناً.

ورمى كتابه جانباً ونهض ليستعدَّ، وفعلاً خرجنا معاً، فأوصلتهما إلى الصالة وانطلقت إلى بيت العروس بسيارتي المزيَّنة لهذا الحدث الرائع.

كانت أجواء الفرح تعمُّ الشارع كلّه، وفي حدود الساعة الحادية عشر انطلقنا جميعاً مع العروسين في زفَّةٍ جميلةٍ حول المدينة، كانت سعادتي غامرة بهما، يستحقَّان تلك السعادة وأكثر.

حين وصلنا إلى الصالة، ودخلنا كلّنا معاً، كنت أبحث عنهما، عن عمِّي وحماتي، وبسهولةٍ وجدتهما جالسَين، خفق قلبي كثيراً، وتحينت الفرصة كي ألقيَ السلام عليهما، وفعلاً لم تمضِ نصف ساعة إلا وقد وجدت الفرصة لأصل إلى حيث يجلسان، فاقتربت بحذرٍ ووقفت أمام الطاولة وألقيت السلام، ردّا السلام ببرودهما المعتاد ولم يطيلا الحديث، فاستأذنت وعدت إلى حيث تجلس والدتي كي أرتاح قليلاً. أفسحت ليلى لي المكان وجلست بجوار أمي، ثمّ سألتني وهي تنظر إلى مرآتها:

- هل كانت الزفَّة جميلة؟

- نعم، لكنِّي لم أكن أعلم بمأساتك.
- مأساتي؟ أيّ مأساة؟
- لم أكن أعلم طيلة تلك السنين أنَّك بلا رموش!
- كنت أقصد رموشاً للحفلات، لديّ رموش يا أحمق.

ورحت أضحك بينما راحت تشرح لوالدتي الأمر، فسألتها وأنا أسخر منها:

- كيف تستطيعين وضع رموش ليست لك؟
- اصمت يا مغفَّل، هذه الرموش ليست حقيقيَّة.
- حقّاً! تبدو كما لو أنَّها حقيقيَّة.
- ألم تدرس في الهندسة الطبيّة الأعضاء الاصطناعية، هل سيكون الأمر صعباً لتصنيع رموش!
- آه، لقد أفحمتني، فالموضوع من صلب اختصاصنا، ربَّاه كم أنَّكِ مهنيَّة!

وضعت والدتي يدها على خدِّها وراحت تحرِّكها وتقول:

- كفاكما شجاراً، التزما الصمت! ثمَّ دع الفتاة وكفاك إحراجاً لها، أهذا موضوع يتحدَّث فيه شابٌّ؟!

أخفيت ضحكتي وأنا أجيبها:

- حسناً سأصمت.

ثمّ وجَّهت كلامي إلى أبي:

- من الجيد أنَّ رموش زوجتك حقيقيَّة، وإلا أخَّرتنا عن كلِّ المواعيد.

وفي تلك اللحظة انتهت رقصات العروسين معاً، وعاد الدور لنا نحن المدعوين، فهتف لي الجميع كي أعود إلى المنصَّة وأستلم الدبكات والرقصات وتنسيق الأغاني مع مسؤول الأغاني، فنهضت لألبيهم.

كان الزفاف جميلاً، لا ينقصه إلا جُمانا، التي ظهرت فجأةً في فيلم الصور التذكارية للعروسين. هنا تماماً، هدأت وسكنت كلُّ جوارحي بشكلٍ مفاجئٍ، لم أستطع السيطرة على مشاعري، وقفت بل تجمَّدت في منتصف الصالة، أتأمَّل جُمانا، شعرت باشتياقٍ مفاجئٍ وشديدٍ لها، وبألمٍ يعتصر فؤادي.

بدَّد كل هذه المشاعر صوت ليلى المزعج حين نادتني كي أجلس:

- هيبي، أيُّها الطويل، هلَّا جلست أو تنحَّيت جانباً، حجبت عنّا الرؤية.
- يا مزعجة!

جلست، فسألتني كي تزيل عنِّي هذه الحالة وتغيِّر الموضوع:

- أين الدكتور قيصر والآنسة سارة؟ هل هما مدعوَّان إلى الحفل؟
- نعم طبعاً، كنت مع عمر حين أرسلنا بطاقة الدعوة.
- لكنّهما لم يأتيا.
- الآنسة سارة، ما تزال مريضة على حدِّ علمي، أدعو الله أن يشفيها بالقريب العاجل.
- آمين، يا رب.
- بالمناسبة ما هذه الملابس الفاضحة؟ تستَّري أكثر في المرَّة المقبلة.

لم تجبني، والتفتت ثانية إلى فيلم الذكريات المؤلمة، تنظر إلى يزن، وصور يزن، فأدمعت عيناها هي الأخرى. منذ أن تركها يزن وحالتها الدينية في تراجعٍ مستمرٍّ، على الأقل حين كانا معاً، كانت ملابسها أكثر سترة،

وكلامها أكثر أدباً واتِّزاناً، وربَّما كانت تصلِّي فرضاً أو اثنين في اليوم، أمَّا الآن فكما لو أنَّها تنتقم منه بتبديد كلّ ما بناه معها في تحسين علاقتها مع الدين. زاد الأمر سوءًا أنَّ لا صديقات مقرَّبات لليلى من الدفعة، فبعدما تركتني جُمانا، حقدت ليلى عليها حقداً شديداً ولم تعد تتحدَّث معها إلا نادراً، وبشكلٍ تلقائيٍّ تراجعت علاقتها مع جود، إذ أنَّ جود صديقة جُمانا المقرَّبة، وبالتالي لم يعد لديها أي صديقة مخلصة تعينها على نفسها وجنونها، فليلى فتاة تنتمي إلى عائلة لا تفقه في الدين شيئاً، هي أفضل حالاً منهم، فعلى الأقل لا تشرب الخمور كما يفعلون، ولا تنتهك المحرَّمات كما ينتهكون. كانت أحوالها في تحسُّنٍ مستمرٍّ إلى أن انفصلت عن يزن، فلم يعد لديها أيّ معين على بيئتها المتفلِّتة، لم أستطع تركها وحدها، وأنا لا أخت لديّ، فاضطَّررت إلى أن أصبح صديقها المقرَّب الذي يسمع آلامها، ويذكِّرها ألا تتهوَّر هنا وهناك أو تفعل هذا أو ذاك، وكي أخفِّف عبء هذه المهام، لم أجد غير والدتي، ورغم فارق السن بينهما إلا أنَّ الأمر نجح بعض الشيء، وباتت تقابل والدتي في الأسبوع مرَّة أو أكثر، لكن في الوقت ذاته كنت أنا حلقة الوصل في علاقتهما، وهذا التناقض ما نزال نعيشه منذ ثلاث سنوات، فتحاول أمِّي ضبط علاقتي بليلى وتطلب منَّا دوماً أن نتَّقي الله ولا نكثر من الكلام الفارغ.

في المقابل، لا تودُّ أمي أن نخسر ليلى وتبقى وحيدةً، لأنَّها ستزداد انحرافاً وبُعداً عن كلِّ ما هو صائب وصحيح.

نظرت مجدَّداً إلى حالتها، لم أشأ أن أقطع عليها أحزانها كما فعلت هي بي، ومضى حفل الزفاف وعدت إلى المنزل بقلبٍ مكسورٍ لكنَّه يحمل كثيراً من التفاؤل.

سلام
سبتمبر 2011

ليست هي المرَّة الأولى التي أذهب بها إلى حفل زفاف في بلدٍ عربيٍّ، لكنَّها المرَّة الأولى التي أكون بها على صلّةٍ مباشرةٍ بأحد العروسين، فلطالما اصطحبتني والدتي معها خلال إجازاتنا إلى حفلات زفاف صديقاتها وأقربائها ومعارفها، كنت أرتدي فساتيني الجميلة، واعتدت سماع كثير من كلمات المديح حولها وحول تسريحات شعري المجعَّد والتي كانت والدتي تتفنَّن بها، فأبدو كما كنت أسمعهم دائماً يقولون مثل اللعبة.

لكن هذه المرَّة لن أبدو كذلك، فسأرتدي حجابي الذي التزمت به منذ سنتين تقريباً، في يوم ميلادي الثامن عشر، وهو اليوم الذي يحتفل به الأبناء، لتمتُّعهم بحريَّات جديدةٍ وواسعةٍ، أمَّا والدتي ففي ذلك اليوم، حضَّرت لي حفلاً جميلاً، وسألتني: ألم يحن وقت الحجاب؟ لم يأخذ الأمر منِّي طويلاً، وكان قراري سريعاً.

انتهيت من ارتداء فستاني وحجابي ومجوهراتي، وأخبرت والدتي بينما كانت تنهي مكياجها أنِّي سأذهب إلى بيت العروس أوَّلاً، وبينما كنت متَّجهةً نحو الباب سألتني:

- إلى أين؟
- قلت لكِ، إلى بيت العروس.
- وهل أنتِ ذاهبة لوحدك؟
- نعم، سأطلب تكسي.
- لا يا ابنتي، لا تخرج الفتاة في هذه الساعة المتأخِّرة وبهذه الملابس لوحدها هنا، عليك أن تكوني أكثر حذراً.

لم أفهم ما السبب، لكن مجّدداً، إنَّها اعتبارات مختلفة عمَّا اعتدته في كندا، وهذا ما يزيد مخاوفي وقلقي حول استقرارنا هنا، سألتها:

- أوه يا إلهي! وكيف سأذهب؟
- سنوصلك بطريقنا إلى هناك بكلِّ بساطةٍ.
- حسناً.

انتظرت والديّ إلى أن انتهيا وانطلقنا، وحين وصلت إلى منزل جود، كانت المرة الأولى التي أتواجد فيها في زفَّة عروس، كان قلبي يتراقص فرحاً لأرى عمر مع عروسه، لطالما حكى لي عن حبِّه لجود منذ أيام الدراسة، وأراني بعضاً من صورها أثناء تخرُّجهما. عانى عمر كثيراً إلى أن وصل إلى هذا اليوم، فلم تكن جود تعيره أي اهتمام في بادئ الأمر، أمَّا هو فكما عهدته، عاطفيٌّ وحسَّاسٌ إلى حدٍّ كبيرٍ.

كنَّا نحن الفتيات في منزل جود، وحين وصل عمر، نزل العروسان بزفَّةٍ جميلةٍ وسط الفرقة الموسيقيَّة التي كانت تنتظرهما في الشارع أمام مدخل العِمارة، وكثير من السيارات المزينة التي كانت تطلق كثيراً من التزمير، وما إن دخل العروسان إلى السيارة التي ستقلّهما إلى الصالة، حتى انفضَّ الجميع بسرعةٍ، كلٌّ إلى سيارة، أمَّا أنا فلم أعلم ماذا عليَّ أن أفعل!

وقفت في منتصف الشارع حاملةً كاميرتي كي ألتقط بعض الصور لكنِّي تساءلت لوهلة: ماذا عنِّي!

في تلك اللحظة، نادى لي شخصٌ من سيارته:

- يا آنسة، هل معكِ سيارة؟

أجبته:

- لا
- فلتركبي إحدى السيارات، ستمضي الزفَّة حالاً، ماذا تنتظرين؟

كان مظهري غبيَّاً للغاية، لم أعلم ماذا سأفعل، سألته وبالكاد كان يسمع صوتي بسبب صوت مسجلته المرتفع:

- أي سيارة أركب؟
- لا فرق، اختاري الموديل الذي تحبينه.

وراح يضحك، لا أعلم هل كان يسخر منِّي أم يحاول إلقاء نكتة، تجمَّدت في مكاني فقال لي وهو على وشك التحرُّك:

- يا آنسة، معي مكانٌ فارغ، هيّا أسرعي، ستدهسك السيارات.

وفعلاً، جلست في المقعد الوحيد الفارغ في سيارته، وهو المقعد الأمامي، وكان ذلك من مصلحتي، فمن هناك يتسنَّى لي التقاط أفضل الصور لسيَّارة العروسين، وما إن انطلقنا في الزفَّة حتَّى بدأتُ بمدِّ رأسي والتقاط أجمل الصور العفوية لعمر وجود وهما داخل السيارة، أخبرني الشابّ الذي يقود السيارة مراراً أن أكون حذرةً، لكنِّي لم أعره اهتماماً، فحماستي أفقدتني كلَّ تركيزي، وأنستني من حولي.

وبينما كنت أتأمَّل سعادة عمر، صرخ ذلك الشابّ:

- كوني حذرة!

وأمسك بساعدي وسحبني إلى الداخل، لتمرَّ بتلك اللحظات القليلة دراجة نارية مسرعة بجانبي، كانت ستودي بحياتي لولا تدخُّل ذلك الشابّ في الوقت المناسب.

- كنت ستتسبَّبين بمصيبةٍ، هلَّا جلستِ داخل السيارة!

قال تلك الكلمات بغضب، فجلستُ بهدوءٍ، وحين شعر أنِّي على وشك البكاء قال لي:

- لقد احترقت أعصابي خوفاً، اعذريني لم أقصد أن أصرخ بوجهك.

لم أردّ، فقد كنت أفكر بالجواب الذي يُقال عادةً باللغة العربية والذي كان "لا بأس"، لكنّي حينها لم أجد الكلمات فظنَّ أنِّي غاضبةٌ، وحين وقفنا على إحدى إشارات المرور وضع يديه على المقود وأمال رأسه ليراني، بينما كنت أحاول إخفاء وجهي في الطرف الآخر، وأخذ يعتذر منِّي مجدَّداً.

وبينما كان يكرِّر اعتذاره، كانت عيناه تلمعان بشدَّةٍ، ونظرته بريئةً بشكلٍ طفوليٍّ، أجبته كي يتوقَّف عن الاعتذار:

- It is OK, never mind!

ما أضحكني أنَّه حين ردّ، استعمل الإنكليزية أيضاً:

- So let’s gooo

وبما أنَّه لم يعد من المناسب أن أطلّ من نافذة السيارة مجدَّداً، بدأت أشاكس بشأن الأغاني التي يضعها، فهي المرَّة الأولى التي أسمعها ولم أستسغها ربَّما لأنِّي لم أعتد هذا النوع من الأغاني، لكنَّه أصرّ على رأيه

وأخبرني أنَّها مناسبة جدَّاً لحفلات الزفاف، فصمتُّ لأنَّه بالتأكيد أدرى منِّي.

جلست بهدوءٍ ورحت أراقب حركات يديه بينما كان يبدِّل الأغاني ويقود سيَّارته ويشير إلى هذا وذاك في الزفَّة، ثمَّ نظرت إلى شعره الذي كان يتطاير بالهواء، كانت شكله مميّزاً، فأسنانه بيضاء جدّاً مقارنة مع لون بشرته السمراء، وضحكته لم تفارق فِيهِ، وفي كلِّ مرَّة كنَّا نمرُّ فيها بجانب سيارة عمر وجود كان يرفع من وتيرة التزمير والتصفير وصوت الأغاني. بالفعل لقد كانت الزفَّة من أجمل لحظات الحفل كلّه.

أمَّا أنا وعندما وصلنا إلى صالة حفل الزفاف، رحت أتفنَّن في انتقاء الصور التي سألتقطها، ولم أفارق كاميرتي أبداً، خاصَّةً أنَّني لا أتقن تلك الرقصات والحركات التي يقومون بها من تصفيقٍ ودبكةٍ وما إلى ذلك.

ومع كلِّ الزحام في الحفل رأيته مجدَّداً، ذاك الشابّ ذو الضحكة الساحرة الذي أنقذني من الموت، لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً لأجده، فقد أشعل الحفل بحماسته ونشاطه، لم يترك أغنيةً إلا ورقص على أنغامها، لم يترك طفلاً أو طفلةً إلا وراقصهم، ولم يجلس في مكانه إطلاقاً، وبات الكلُّ يحييه ويصفِّق له. كنت أراقبه من مكانٍ إلى مكانٍ، حاولت أن أعرف اسمه، لا بدَّ وأنَّه صديق عمر، فقد كان طيلة الحفل بجواره،

يراقصه ويمازحه، حتَّى إنَّه حمل عمر على كتفيه وراح أصدقاؤه يغنُّون له.

استطعت تمييز والدته أيضاً، فأثناء الحفل، ذهب مراراً إلى حيث تجلس تلك المرأة، حدَّثها وضحك معها، لكن لفت انتباهي وجود فتاةٍ غاية في الجمال، كانت تجلس بجوار والدته، وكان يتحدَّث معها طيلة الحفل، تارةً يضحكان وتارةً يسكنان ويكونان في حالة هدوء، وتارةً كما لو أنَّهما يتنازعان، تساءلت: أتراها خطيبته أم زوجته؟

لكن كلاهما لا يلبسان خواتم الخطوبة.

أهي حبيبته، لكنَّه لم يراقصها إطلاقاً! ولا يبدو عليهما تلك الهيئة. أهي أخته! ربَّما رغم أنَّها لا تبدو كذلك! فهي لا تشبهه إطلاقاً.

مضى الحفل وعدت إلى المنزل برفقة والديّ وقلبي مشتعلٌ بالحماسة لرؤية حصيلتي من الصور، لم أنم الليل وأنا أتأمَّل، صور عمر وجود، وذاك الشابّ، كان فيه شيءٌ يختلف عن شباب كندا، فيه شيءٌ لا أملك إلا الوقوف عنده، وبينما كنت أفكر، تذكَّرت مواقع التواصل الاجتماعي، حاولت فتح صفحة عمر لعلِّي أرى صوره هناك، لكنّي لم أتمكّن من الدخول إلى شبكة الإنترنت، حاولت مراراً ومن ثمَّ نفد صبري.

سلام — سبتمبر 2011

استيقظت صباحاً لأجد رسالة من عمر، كتب فيها:

- أهلاً سلُّومة، شكراً لك، نحن بخير وجود ترسل سلامها إليك.

أرسلت له ردّاً عبر الرسائل القصيرة.

- وأخيراً! من الجيد أنَّك تذكَّرتني.
- له له، ومن يستطيع أن ينساكِ؟
- أنت! لقد نسيتني في الزفَّة، هل تعلم أنِّي بقيت في منتصف الشارع لا أعلم أين أذهب؟
- أنا آسف، اعتقدت أنَّك ستركبين إحدى السيارات، على كل حال رأيتك أثناء الزفَّة، كنت في سيارة صديقي، بالمناسبة، أرسل لي آدم من يومين وطلب أن تتَّصلي به فثمَّة شيءٌ أوقعتِه في السيارة على حدِّ تعبيره.

اسمه آدم إذن، كتبت له:

- حسناً، أرسل إلي رقمه.
- سأفعل، أنا آسف مجدَّداً عمَّا حدث، هل سامحتني؟

- لا أعلم، سأفكِّر في الأمر.
- حسناً، سأجلب لك هديَّةً.
- الهدية ستجلبها في كلِّ الأحوال، لا أودّ تعطيلك أكثر، متى ستعودان؟
- بعد يومين.
- بالسلامة، سلامي لجود.

أنهيت حديثي معه وجلست أنتظره ليرسل إلي رقم آدم، وبدأت الأفكار والتخيّلات تدور في رأسي، فأنا لا أذكر أنِّي نسيت شيئاً في سيارته، لا بدَّ وأنَّه يحاول إيجاد طريقة للتحدُّث معي، هل أعجبته كما أعجبني هو؟ لا بدّ أنِّي لفتُّ نظره، ترى عن ماذا سيحدِّثني! هل سيطلب منِّي الارتباط ولكن أليس ذلك تهوُّراً واستعجالاً؟ قرَّرت أنِّي في المرَّة القادمة حين ألقاه سأكون أكثر اتِّزاناً لأُريه جوانبَ إيجابية منِّي، نسجت كثيراً وكثيراً من التخيّلات، ومن ثمَّ حاولت الاتِّصال بشبكة الإنترنت، ولحسن الحظ نجح الاتصال، ففتحت مباشرة صفحات عمر، لأجده وبسرعة، لطالما رأيت تلك الصور، وأغلبها كنت قد وضعت عليها علامة أعجبني، لكنِّي لم أنتبه إلى وجهه أبداً، بحثت في صفحته، لأجده عازباً وغير مرتبط، واكتشفت أنَّ الفتاة التي كانت معه بالحفل إنَّما هي

صديقتهم في الجامعة، واسمها ليلى، وبينما كنت أقلِّب بين منشوراته وصوره وصلتني رسالة من عمر وفيها رقم آدم، فكتبتُ له مباشرةً:

- مرحباً، أنا سلام، أرسل إلي عمر رقم هاتفك منذ قليل.

انتظرت ردَّه نحو ساعة، ومن ثمَّ أجاب:

- أهلاً، أنتِ قريبة عمر أليس كذلك؟ لقد وجدت ساعة يد نسائية في سيارتي في المقعد الأمامي، هل أنتِ من أضعتها؟

شعرت بعدما قرأت ردَّه أنِّي أشبه بالبالون الذي ثُقب بواسطة دبوس وبدأ يصغر حجمه، وتذكَّرت في هذه اللحظة أنَّه محقٌّ، وأنِّي قد أضعت ساعتي ولم أنتبه إلى ذلك أصلاً. لم أكن أريد لأمِّي أن تعرف بهذه الحادثة لأنّها ستتَّهمني كالعادة بالإهمال وستعطيني محاضرةً طويلةً عن أهميَّة المحافظة على أشيائي وأن أقدِّر ما أملك لأنَّها -وعلى حدِّ تعبيرها- لا تملك بئر نفطٍ تنفق منه عليّ وعلى إهمالي. لأمِّي كلّ الحق في ذلك فأكثر من مرَّة أضعت أشياء لها قيمة كبيرة. ما أزال أذكر حين نسيت جهازي اللوحي (الآيباد) في المكتبة، وحين أضعت قفَّازاتي الجلديَّة التي أحضرتها لي أمِّي من روسيا. دائماً ما تمازحني أمِّي قائلةً إنِّي يوماً ما سأضيع نفسي، وإن رُزقت بأطفالٍ في المستقبل سأقضي وقتي بالبحث عنهم.

كتبتُ له:

- نعم، هي لي! شكراً لك.
- لا شكر على واجب، هل أعطيها لعمر أم لك؟
- تلزمني، ولا أستطيع انتظار عمر.
- حسناً، أأستطيع الاتصال بكِ الآن؟
- بالتأكيد! لِمِ لا؟

واتَّصل بي، سمعت صوته لأوَّل مرة بشكلٍ واضحٍ ومن غير صخب، وكي أسهِّل عليه العنوان تواعدنا أمام منزل خالتي هيام، فأنا إلى الآن لا أحفظ العناوين جيِّداً، وقد وكَّلت لي خالتي مهمَّة الاعتناء بالنباتات والطيور في منزلها ريثما تعود من زيارة إحدى قريباتها في العاصمة.

انطلقت إلى منزل خالتي كما هو مخطَّط له، سقيتُ النباتات، وغيَّرت طعام الطيور، ونظَّفت أقفاصهم وانتظرته، وما إن اتَّصل بي وأخبرني أنَّه أمام المنزل، حتَّى نزلت بسرعة، ورأيته أمام مدخل العِمارة ينتظرني ليعطيَني الساعة، رحَّبت به بسعادةٍ واضحةٍ على وجهي.

كم كان أنيقاً ووسيماً بملابسه اليومية! استلمت الساعة منه ثمَّ هممت بوضعها في حقيبتي وحينها تذكَّرت أنِّي نزلت من غير أن آخذ أيّ شيءٍ بحوزتي، نسيت محفظتي والمفاتيح وكلَّ شيءٍ في المنزل!

لاحظ آدم التغيُّر الذي اعتراني وسألني عمَّا حصل، فأخبرته بالحقيقة والتوتر يعتريني، فضحك وعرض علي إيصالي إلى المنزل، ولم يكن لديّ أي حلٍّ آخر، سألته:

- أين أجلس في الأمام أم في الخلف؟

ابتسم وهو يجيبني:

- على راحتك!

فجلست في المقعد الأماميِّ، فهو ليس سائقي الخاصّ كي أجلس في المقعد الخلفيّ، وبعدما وضعت الحزام حاولت أن ألبس الساعة حتَّى لا أضيعها مرَّة أخرى، لكن من غير جدوى فقد كنت متوتِّرةً وقفل الساعة لم يكن بسيطاً، بالنهاية مددت يدي إلى آدم دون أن أشعر وقلت له:

- عفواً، هلَّا ساعدتني!

احمرَّ وجهه وأخذ يضحك وهو يحاول أن يغلق قفل الساعة لي وقال:

- تشبهين شخصيَّات الكرتون.
- ماذا تقصد؟ لم أفهم!
- لا عليك، والآن، كيف سنصل إلى منزلك، وأنت لا تعرفين العنوان جيِّداً؟

- سأوجِّهك تماماً مثل تطبيق الخرائط! خطوة خطوة، لعلّي أتذكّر.
- لعلّي؟

قالها وهو يضحك بأعلى صوته ثمَّ أتبع قائلاً:

- إلى المجهول، هيَّا بنا!

آدم نوفمبر 2011

وددت لو أنِّي بجناحين لأطير إلى باريس وأفرح لفرحتها ولكنّ موضوع التأشيرة وتعقيدات السفر قطع تلك الأجنحة، فاكتفيت بسعادةٍ عارمةٍ في قلبي، بسعادةٍ حملت معها كثيراً من الآمال، وذكَّرتني بسعادتي يوم حفل خطوبتنا. تلك الليلة لا بُدّ وأنَّها كانت من أسعد الليالي في حياتي.

تُرى هل سأحيا ليلةً مثلها مرَّةً أخرى؟ أجبت نفسي بالإثبات فلا بدّ أنَّ جُمانا ستعود إلي الآن بعد انتهائها من دراسة الماجستير، وسنعيد حفل خطوبتنا وسنحيا تلك السعادة مرَّةً أخرى، وسأعيد تقطيع قالب الحلوى معها، وسأطلب منها أن تقول كلمة أحبُّك مرَّة واثنتين وعشراً وسيحمرُّ وجهها خجلاً، سيصبح تماماً كالورود التي سأرسلها إليها، ومرَّة أخرى سألتقط من هذه الورود أجملها وأضعها على شعرها وأهمس في أذنها "أنتِ وردة حياتي". ستكون واثقةً من نفسها كعادتها وستكون كلُّ تصرُّفاتها مدروسةً وسأكون مُرتبكاً وربَّما سأوقع الخاتم هذه المرَّة أيضاً. سأطيل البقاء في منزلهم إلى طلوع الشمس، وسأكرِّر كلمة أحبّك حتَّى تخبرني أنَّها موقنةٌ بذلك وأنَّ مشاعرنا متبادلة تماماً كما طمأنتني في ليلة خطوبتنا. سأحسد نفسي عليها مرَّة أخرى وسأحلم

بأطفالنا وكم أنّهم هم رائعون لأنَّها والدتهم. سيتغير هذه المرّة شيءٌ واحدٌ فقط، هذه المرَّة وقبل كلّ شيءٍ سأعقد القران لأراقصها على نغمات قلبي فتتناسق حركاتها مع نبضاته، سأعقد القران لأنَّ لصبري حدوداً.

كنت أعلم بأنّها على وشك التخرّج، لكن تأكدّت من الخبر تماماً عن طريق جود، التي وضعت مباركاتٍ لها عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، في ذلك اليوم أسرعت إلى المنزل بعد الدوام، دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب، فقد كنت واثقاً أنَّ مكالمتي تلك قد تطول لساعاتٍ.

ضغطت زرَّ الاتِّصال، وكاد قلبي أن يخرج من مكانه، ستعود الحياة إلى قلبي، وستلمع عيناي بعد أن انطفأتا.

رنَّ الهاتف طويلاً وانفصل الخطُّ ولم يجب أحدٌ. أعدت المحاولة لكنَّها لم ترد أيضاً، أعدت الاتِّصال للمرة الثالثة والعرق يتصبَّب منِّي وأعصابي على وشك الانهيار، بقيت لمدَّة ساعتين أحاول الاتِّصال، ثمَّ يئست، ربَّما هنالك خطبٌ ما، لا بدّ أنَّ هاتفها مغلق وربَّما بسبب اختلاف شبكات الاتِّصال فيظهر كما لو أنَّه يرنُّ، ولكن حين مرَّت عدّة أيام وأنا أحاول وأخفق، حينها تأكَّدت أنَّ الرقم مقفلٌ من كلِّ بدٍّ. اتَّصلت حينها بليلى، وقلت لها:

- أريد رقم جُمانا حالاً.
- مهلاً مهلاً، قل مرحباً، قل السلام عليكم، ما بك كالمجانين؟
- أرجوك نفد صبري، الرقم القديم لا يعمل، لا بدّ أنَّها غيَّرته.
- حسناً سأجلبه لك.
- أسرعي!
- مغفَّل! عشر دقائق وأرسل إليك الرقم اللعين، ريثما أجلبه من جود.
- لا تقولي لعينٌ!
- هل تعلم أنّ حماقتك بوزن جبل؟ لا تحلِّق بأحلامك كثيراً، ستقع على رأسك، وأخشى أن تكسر جمجمتك المهترئة، سلام!

وأغلقت الهاتف، وبقيت منتظراً إلى أن أرسلت إليَّ الرقم الجميل، الرقم الرائع، أجمل رقم في حياتي، فمنه ستبدأ أحلامي.

سلام نوفمبر 2011

وأخيراً جاء اليوم المنتظر، يوم اجتماعي بعمر، فمنذ عودته من رحلته مع جود وأنا أتحايل كي أراه، لكنَّه عريس ولم أرغب بإزعاجه، لا سيَّما أنَّ والدتي أكَّدت لي ألا أتَّصل به بكثرةٍ، أو حتَّى أطلب مقابلته على الأقل في الوقت الراهن، وها نحن أخيراً سوف نجتمع، إذ دعت والدتي عمر وجود وخالتي هيام إلى زيارتنا، وتلك الدعوة كما أسمتها أمي هي "دعوة العروس"، ففي تقاليد مجتمعنا يدعو أهل العريس العروسين إلى منزلهم ليتاح للعروس الجديدة التعرُّف إلى العائلة أكثر والتقرُّب منها. للأسف لا يوجد لدى عمر العديد من الأقارب لذا أظن أنَّ جود لن تنال سوى هذه الدعوة ودعوة أخرى من طرف والد عمر.

بعد الاستقبال الحافل، انطلقتُ لمساعدة والدتي بوضع الأطباق على المائدة ومن ثمَّ جلسنا لنأكل. كنت أنا ووالدتي أكثر من يشعر بالراحة على هذه المائدة، فجود عروسٌ جديدةٌ وعمر مرتبكٌ كونه العريس ويريد إظهار جانبه الجادّ لعروسه، أمَّا خالة هيام فيبدو أنَّها قد تمسَّكت بلعب دور الحماية، وأبي كعادته هادئ لا يتحدّث كثيراً، لذا استلمنا الحديث أنا ووالدتي على المائدة، وبعد الطعام بدأت تلك الأجواء

الجامدة بالذوبان قليلاً، وراحت جود تتحدَّث إليّ أكثر، سألتني بعض الأسئلة عنِّي يبدو أنِّي أثرت فضولها بعض الشيء، وقالت:

- سلام، ما دراستك بالتحديد؟
- لقد درست في كليَّةٍ تطبيقيَّة للفنون وتخصَّصت بالتصوير الفوتوغرافي.
- وأنا من كنت أظن أنَّ دراستي جديدة وغريبة، يبدو أنَّ هنالك مجالات أكثر غرابة

هنا تدخَّلت خالة هيام، وقالت:

- انتظري لم تسمعي بعد الجزء الأكثر طرافة من القصَّة.
- وما هو؟

سألت جود وهي تحرِّك حاجبيها، فأجابتها حماتها:

- لقد درست سلام في المنزل.
- لم أفهم!
- لقد اختارت قريبتي هذه التعليم المنزلي لطفلتها الوحيدة.
- وكيف حدث هذا ولماذا؟ ألم ترتَد سلام الكلية أو المدرسة إطلاقاً؟

هنا تدخَّلتُ لأشرح القصَّة، وقلت:

- كما تعلمين فقدنا أخي في حادث سيرٍ وهو في العاشرة من عمره، كنت أنا في الخامسة من عمري، ولم ترزق أمِّي بأطفالٍ بعدي، لذا ازداد تعلُّقها بي، ومنذ ذلك الحين باتت تخاف عليَّ من الهواء، أعلم أنَّك في سرِّك ربَّما تقولين "كحال كلّ أم"، ولكن صدِّقيني، أمِّي حالة خاصَّة جدَّاً، وذلك نظراً للظروف الخاصَّة التي عشناها. المهم، درست حتَّى الصف الثالث الابتدائي في المدارس العاديّة، كانت تلك السنوات كالكابوس بالنسبة لأمِّي، كانت تذهب كلّ يومين إلى المدرسة لتطمئنَّ علي وتتأكَّد من أنَّ لا أحد من الطلاب يتنمَّر عليّ، وكنت بالفعل عرضةً لذلك نظراً لقصر قامتي.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- لا شيء، بدأت أمِّي بالبحث عن حلول، في البداية كانت تفكِّر في إلحاقي بمدرسةٍ بقسطٍ مرتفعٍ، ظنّاً منها أنَّ هذا سيحميني وينفعني، وبعد ذلك...

هنا قاطعتني والدتي وهي تحمل صحن الفاكهة وأخبرتني أنَّها ستكمل القصة:

- اذهبي واحضري الحلويات.

وأكملت أمِّي الحديث:

- بعد ذلك شاهدت حلقةً في برنامجٍ وثائقيٍ عن التعليم المنزلي ونجاحه وتأثَّرتُ كثيراً بالفكرة، بحثت عن الموضوع بجديَّةٍ، ودرستُ أبعاده وتعمَّقت به، وبعدها قرَّرت فصل سلام عن مدرستها، واعتماد مبدأ التعليم المنزلي، وبعد محاولاتٍ عديدة منِّي اقتنع والدها، وفعلاً نجح الأمر على ما أظن.
- إذن سلام لم ترتد الكليَّة؟

عدت حين طرحت جود هذا السؤال وفي يدي طبق الحلوى، أجبتها وأنا أضع الطبق على الطاولة:

- هذه قصَّة أخرى.
- أخبريني بها أنا متحمِّسة لسماعها.

أجبتها:

- سأخبرك بالتأكيد.

وأخذت لنفسي قطعةً من الحلوى وجلست لأكمل كلامي، لكنِّي لاحظت أنَّ وجه والدتي احمرَّ بشكلٍ مفاجئٍ، وراحت تنظر إليَّ بطريقةٍ لم أفهم مغزاها، وأخفى أبي وعمر ضحكةً مكتومةً، ونظرت خالة هيام وجود إليّ بطريقةٍ غريبةٍ كما لو أنِّي كائنٌ فضائيٌ، أدركت حينها أنِّي فعلت "كارثةً" كما يحلو لأمِّي تسمية تلك المواقف. سألتُ خالة هيام:

- أخبريني يا خالتي، ما الخطأ الذي ارتكبته؟ ماذا نقضت من تقاليدكم، فكما ترين أمِّي الآن بحالةٍ حرجةٍ لا تسمح لها بالحديث.

قالت خالة هيام:

- ليست تقاليد، إنَّما إتيكيت.
- لن أختلف معك على صيغة التسمية، فالإتيكيت يختلف من بلدٍ إلى آخرٍ كما هي التقاليد.

أجابتني:

- كان عليك أن تقدِّمي الحلوى للجميع أوَّلاً، ومن ثمَّ تأخذي لنفسك قطعةً.

هنا أبديت الدهشة، وقلت:

- مع كامل احترامي، لكن لماذا يجب عليّ فعل ذلك؟ ربَّما لا يرغب الجميع بتناول الحلوى، أو ربَّما أضع كميَّةً زائدةً، وهنالك احتمالات كثيرة أخرى، والحلوى موجودة ومن يرغب في تناولها فليتفضَّل! ليست موضوعةً للزينة بالتأكيد.

هنا ضحك عمر ليطرِّي الأجواء قليلاً ووضع لنفسه قطعةً وهو يقول:

- بالفعل ليست للزينة هي للأكل سأقوم بهذه المهمة عن سلام.

وراح يقدِّم الصحون للجميع بينما ابتسمتُ ابتسامةً مصطنعةً، وأخذ الحديث مجرىً آخر تماماً، وبات عن العادات والتقاليد والإتيكيت، وكم من الضروري التمسُّك بها والحفاظ عليها وما إلى ذلك. أحسَّ والدي بشعوري واستيائي، فذهب إلى المطبخ حاملاً معه بعض الصحون المتَّسخة، وناداني من هناك:

- سلام أحتاجك، هلَّا أتيت قليلاً.

وهناك قال لي:

- اتَّصلي بصديقتك جوليا حالاً واسأليها عن أوضاع قطَّتك ليينز، وسأخبرهم بأنَّه اتِّصال ضروريّ، اتَّفقنا؟

وغمزني وانطلق إلى غرفة الضيوف. لطالما كنت فتاته المدلَّلة التي لا يحبُّ توريطها بأحاديث تكرهها، ولا يرغب بأن يزعجها أو ينتقدها أحد، وفعلاً اتَّصلت بصديقتي لأطمئنَّ على ليينز، وتقريباً انتهى الاتِّصال حال رحيلهم، فودَّعتهم وكما هو متوقَّع فقد وقعت مشكلة كبيرة بين والديّ بعد موقف والدي معي وراحت أمِّي تلومه بأنَّه يبالغ في تدليلي بطريقةٍ غير معقولةٍ، ولن أكون أهلاً لحمل أي مسؤوليَّة في

المستقبل. أنهيت هذا الجدال بإخبارهما بأنِّي سأعود إلى كندا الشهر القادم، ولتنفعهما تلك العادات والتقاليد.

آدم نوفمبر 2011

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- كيف حالك جُمان؟
- أنا بخيرٍ، ماذا عنك؟
- بخير!
- ما هي أخبارك؟
- بخير، ماذا عنكِ؟
- لا جديد.
- مممممم..

كان سلامها بارداً، أبرد من أيّ شيءٍ في هذه الدنيا، جمَّد الدم في عروقي، والكلام في حلقي، والدموع في عينيّ، سلامٌ جمَّد المكان حولي، والمشاعر التي حافظت عليها ورويتها بنبضات قلبي يوماً بعد يومٍ. لم أستطع مقابلة هذا البرود إلا ببرودٍ مثله. انتظار لمدَّة سنتين يتبعه برودٌ قاتلٌ وكأنِّي أنا من طلب منها أن تتركني لا هي.

ألا تشتاق إليّ؟! ماذا أعني لها بالتحديد! ألا تشعر ولو بفرحةٍ بسيطةٍ برؤية اسمي أو سماع صوتي! هل أنا نكرة! هل باتت تكرهني! هل أنا عدوها؟ ماذا بالضبط؟ لم أرَ أو أسمع في صوتها أي لهفةٍ أو شوق، هل تحمل في صدرها قلباً أم حجراً؟!

لم أكن أظنُّ أنَّها بتلك القسوة! من أين أتت بكلِّ هذا الجَلَد والكبرياء والأنفة، أبتُّ بغيضاً لها إلى هذا الحدّ!

أكملت كلامي معها وتلاشى كل شيءٍ بلحظةٍ، وتلاشت فرحتي أي بتخرُّجها، وفرحتي بكلامي معها، ولكن سألتها:

- تخرَّجتِ؟
- نعم منذ أسبوعين تقريباً.

أجابت بعدم اكتراثٍ، تماسكتُ قليلاً وأتبعتُ كلامي بتلك الجملة التقليديَّة المشهورة التي لابدّ من أن تضاف إلى كلِّ إنسانٍ حقَّق مرتبةً سواءً تخرَّج من الحضانة، أو المدرسة الابتدائيَّة، أو المدرسة الثانويَّة، أو الجامعة أو الماجستير. في حالة جُمانا تلك الجملة "العقبى للدكتوراة" وكأنَّ حلم الجميع هو الدكتوراة. أجابتني بسرعةٍ:

- بدأت بها بالفعل، ستمتدُّ إلى أربع سنواتٍ مقبلةٍ.

صمتُ لمدَّة ليست بالقصيرة، هي لا تنوي العودة إلى الوطن إذن، وسأبقى وحدي فيه أطارد خيالها، وأطارد ذكرياتنا معاً، وكالعادة لست ضمن خططها الحالية أو المستقبليَّة.

ما نفع كلّ هذا الانتظار إذن؟ ما نفع المماطلة مع أمِّي؟ ما نفع أحلامي وخططي المنوطة بها ولن تتحقَّق؟! ما نفع مشاعري التي تُهدر؟ وقلبي الذي يحمل حبَّاً ميتاً لا حياة له؟!

استجمعت نفسي، آزرتها على قرارها، وقلت لها:

- مبارك، تستحقِّين كلَّ الخير.
- شكراً.

وأنهينا الحديث عند تلك الكلمة، ألم تعثر على ردٍّ تنهي به حديثها معي أقسى من "شكراً"، أبتُّ غريباً عنها إلى هذا الحدّ؟!

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى شاشته بعينين متجمِّدتين.

هل انتهت مكالمتي التي حلمت بها منذ أشهر على هذا النحو فعلاً؟!

لا بدّ وأنَّني في كابوسٍ وسأستيقظ منه بعد قليل، لا هذه ليست جُمانا التي أحببتها، ليست جُمانا التي حلمت بها طيلة السنين الماضية، ليست جُمانا التي أحبَّتني وبادلتني كلَّ المشاعر الجميلة وذرفت الدموع حين تركتني! لا، أنا لم أحادث جُمانتي، بل شخصاً لا أعرفه، ولا أفهمه، ولا أريد رؤيته مجدَّداً! هل يا تُرى أحبَّت أحداً غيري؟ أم أنَّها كرهتني وهذا كلّ ما في الأمر!

لكن مهلاً، ليس ذنبها أنِّي عشت في أملٍ واهمٍ لمدَّة سنتين ولا ذنب أمِّي التي ترغب بأن تفرح بي ورؤية أطفالي بأسرع وقت، هو ذنبي أنا وحدي أنْ بقيت أنتظر وأبيع أوهاماً لنفسي.

ليلى، أين أنت يا ليلى؟ معك كلّ الحق، أنا مغفَّل، وأحمق، وكلُّ الصفات التي ظللتِ تنعتيني بها. لطالما سخرتُ منكِ ومن سذاجتك، لكنَّك أكثر حكمةً منِّي أنا!

ذهبت إلى أمّي حالاً، ارتميت على حجرها، فرَّغت قليلاً من الألم الذي بداخلي، فاستوعبتني كعادتها ولا بدَّ من تلك الدموع التي تتساقط من عينيها لأنَّها -على حسب تعبيرها- ترى ابنها يذوب كالشمعة ولم يعد كما كان. أخبرت أمِّي بقراري بالارتباط، لذا بإمكانها البدء في البحث عن عروس لي. أجابتني حينها بجوابٍ لم أكن أتوقَّع أن يصدر منها، إذ قالت:

- آدم! بنات الناس لسنَ لعباً بأيدينا، إن لم تكن متأكِّداً مئة بالمئة من أنَّك لن تظلم من سترتبط بها بسبب قصَّة حبِّك القديمة فالأفضل لك عدم الارتباط الآن. لا أتوقَّع منك أن تعشق أو تحبَّ من سترتبط بها مباشرةً ولكن يكفي أن تكون عادلاً بحقِّها في بداية الأمر.

- وهل تتوقَّعين منِّي أن أظلم فتاةً لا ذنب لها سوى أنْ قَبِلت بالارتباط بي بعد قصَّة حبٍّ فاشلةٍ لا دخل لها بها؟ هل ربَّيتني على هذا؟ سأكون لها رجلاً تماماً كما عهدتني. الآن أسرعي وأخبريني بما لديكِ في جعبتك.

لم تجبني والدتي، فهي تعلم أنِّي لم أكن أسمع في هذه اللحظة، وأنِّي في عالمٍ آخر تماماً.

سلام　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　نوفمبر 2011

كنتُ عازمةً على العودة إلى كندا، اشتقت إلى كلِّ شيءٍ هناك، إلى منزلي، وإلى قطتي وغرفتي، حتَّى أنَّني اشتقت إلى المناخ. قرَّرت وضع والديّ تحت الأمر الواقع، سأسافر وأجبرهما بذلك على اللحاق بي. أنهيت حجز تذكرتي وأنا أتململ من الإنترنت البطيء في هذه البلاد وفجأة تلقيت اتِّصالاً من عمر:

- سلام ماذا تفعلين؟
- لا شيء أنهيت حجز تذكرتي إلى كندا.
- ماذا تقولين، هل ستعودون مبكراً، لم أكن أعلم بهذا!
- لا سأعود وحدي، عليّ إنهاء مشروع تخرُّجي.
- على كلِّ حال اتَّصلت كي نلتقي بك أنا وجود، ننوي الذهاب بعد الظهر إلى المدينة القديمة، ونودُّ اصطحابك معنا.
- لا طاقة لي الآن، كما لا أريد أن أفسد عليكما الأجواء الرومانسيَّة.
- لا تتدلَّلي! ثمَّ إن جود هي من طلبتك شخصيَّاً، فهي ترغب في التعرف إليك أكثر، والآن أنا مصرٌّ جدَّاً على قدومك بعد هذا الحجز المفاجئ.

- حسناً سآتي لعلِّي أرى شيئاً في هذه المدينة غير عاداتها وتقاليدها.
- سأمرُّ عليكِ بعد ساعةٍ.

وفعلاً، جهَّزت نفسي، وفتحت خزانتي ورحت أفكِّر، ماذا عليَّ أن أرتدي اليوم، فاخترت تنورة بسبع طبقاتٍ، تلك التنورة التي لطالما سخرت والدتي منها ومن ألوانها الكثيرة. لا تحبّ والدتي هذا النوع من الملابس، فهي تعشق الملابس الرسميَّة، قليلة الزركشة، أمَّا أنا فعكسها تماماً. ارتديت إكسسواراتي وكالعادة حين مررت أمام أمِّي لأودعها كي أنطلق، كرَّرت لي مراراً "كسندرا"، ومع أنِّي لا أعلم من هي "كسندرا" تلك، إلا أنني أحبُّ هذا التعليق حين يصدر من أمِّي، فهو يعني أنِّي لم أترك لوناً إلا وأضفته إلى ملابسي. ضحكتُ وانطلقتُ وما إن دخلت سيارة عمر وبعد ترحيبهما بي، استدارت جود وقالت لي:

- لم نكمل حديثنا في المرَّة السابقة، كان لديك اتِّصال مهم وتركتِنا.

ارتبكت ولم أعلم كيف أجيبها فقال عمر:

- لكنَّني أكملته لكِ.

ردَّت جود:

- لا بدَّ أن تكون تفاصيل القصَّة أجمل حين تحكيها سلام.

أجبتها:

- لا شيء يذكر، كما أخبرك عمر، أنهيت دراستي المنزليَّة وانتقلت إلى الجامعة، في تلك المرحلة حاولت الانخراط كثيراً في المجتمع ولكنِّي لم أفلح إطلاقاً للأسف، لذا آثرت السفر وقضيت سنوات دراستي متنقلةً من بلدٍ إلى آخر، فقضيت سنة في إسبانيا وزرت خلالها أغلب الدول الأوروبية، واكتشفت أشياء جديدةً وكنت ألتقط الصور أينما ذهبت، لكن للأسف لم أفتتح معرضي إلى الآن.

ضحكت جود، وهي تقول:

- كلُّ هذه الحياة الصاخبة بين تعليمٍ منزليٍّ وسفرٍ ومغامراتٍ وتعتبرين أنَّ لا شيء يُذكر فيها، ماذا نقول نحن عن حياتنا؟! ثمَّ أخبريني كيف قبلت والدتكِ بسفرك وهي التي اختارت التعليم المنزلي خوفاً عليك؟ وكيف أنهيتِ دراستك بهذه السرعة؟

سألت جود تلك الأسئلة وكنَّا قد وصلنا بالفعل إلى المدينة القديمة، فلم أستطع أن أجيبها، فقد أبهرني المكان بجماله الأخَّاذ، أجبتها فجأةً:

- عفواً لم أنتبه، ماذا سألتِ؟

- لا عليك كلُّ من يزور المدينة القديمة لأوَّل مرَّة تنتابه هذه الحالة.

هنا تدخَّل عمر وراح يجيب عن أسئلة زوجته:

- لم توافق خالتي حسناء إلا بضغطٍ من عمِّي والد سلام، وكانت تزورها تقريباً كلّ ثلاثة أشهر لتطمئنَّ عليها، ناهيك عن زيارات سلام لكندا. وبالنسبة لعمرها، فقد أنهت سلام دراستها الثانوية وهي في السابعة عشر وبعدها أنهت موادها الدراسية في سنتين، وتبقَّى لها الآن مشروع التخرج، وستعود قريباً لتحضيره ومناقشته، أليس كذلك سلام؟

أجبته وأنا أهزُّ برأسي مندهشةً من هذا الكمّ الهائل من الآثار والمشاهد الخلَّابة:

- نعم صحيحٌ، ويبدو أنِّي وجدت أخيراً فكرة هذا المشروع!

قالت جود:

- أتقصدين المدينة القديمة؟
- نعم، سأحاول إظهار جمالها وتفاصيلها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

أجابني عمر:

- أي أنَّك ستؤجِّلين السفر حالياً؟
- نعم بالتأكيد!

أجبته وأنا في حالة ذهولٍ، فقد اشتعل قلبي حماسةً وشغفاً بهذا المكان. تناولنا طعام الغداء في أحد المطاعم الأثريَّة ومن ثمَّ صعدنا إلى سطح المطعم لاحتساء القهوة. أثناء ذلك تلقَّى عمر اتِّصالاً:

- أهلاً آدم، كيف حالك؟ لا لن أستطيع المجيء لحضور المباراة معك، نحن في المدينة القديمة وما يزال لدينا ما نقوم به هنا. حسناً إلى اللقاء.

آدم! لا بدّ وأنَّه الشابّ الوسيم. أغلق عمر الهاتف ومن ثمَّ سألنا:

- سيأتي آدم وسأنفصل عنكما قليلاً، هل تمانعان في ذلك؟

أجابت جود:

- لا إطلاقاً، أودُّ شراء بعض الحاجيات من السوق القديم، ومن الأفضل أن نكون نسوةً لوحدنا.

وهنا سألتُ عمر:

- أهو الشابّ ذاته الذي أنقذني حين نسيتني يوم الزفَّة؟

ضحك عمر وهو يقول:

- نعم، هو السوبر مان.

ابتسمت وأكَّدت على كلامه، وقلت:

- كما أنَّه أعاد إليَّ ساعتي المفقودة، وأوصلني إلى المنزل حين نسيت محفظتي.

لم أنهِ جملتي تلك حتَّى تغيَّرت ملامح عمر، احمرَّ وجهه وقطّب حاجبيه وسألني بشكلٍ حازمٍ:

- ماذا قلتِ للتو؟

ارتجف قلبي، فهذه المرَّة الأولى التي يغضب بها عمر بهذه الطريقة، أجبته:

- أوصلني إلى المنزل.
- متى حدث ذلك؟ وأين كنتِ؟
- ما بك عمر؟ لم أره سوى في ذلك اليوم، حين أعاد إليَّ الساعة، نزلت من منزل والدتك ونسيت محفظتي ومفاتيحي، لم يكن هنالك حلول أخرى إلا أن يساعدني ويوصلني إلى منزلي.
- خطأ!

صرخ بأعلى صوته ولم يكمل كلامه، بل أزاح وجهه عنِّي، هنا تدخَّلت جود لتحلّ الأمر.

- صلِّ على النبي، لا تغضب، دعنا نفهم الأمر وأخبرها بوجهة نظرك بهدوء أرجوك!

لم أفهم ما الذي حدث له بالضبط، ماذا فعلت؟ بدأت بالبكاء وهممت أن أعود، مشيت بضع خطوات، فلحقت بي جود وأمسكتني، وقالت لي:

- سلام، أرجوك، انتظري قليلاً.

لم أشأ أن أفسد عليهما يومهما، حاولت أن يمضي الموضوع بسلامٍ، ورغم أنَّ قلبي كان كالجمر إلا أنِّي هززت رأسي بالموافقة، ومضيت معهما، وأكملنا جولتنا، وبعد قرابة الساعة عادت الحيوية إلي مجدَّداً، ورحت أكمل التقاط الصور الجميلة، كان عمر وجود يتجوَّلان معاً وكنت خلفهما أحاول التقاط صور لزوايا وتفاصيل الجدران والأعمدة والأزقَّة.

وبعد أن صفا قلبي تجاه عمر، رحت ألتقط صوراً له وجود وأنا أظهر الانسجام الرومانسي اللطيف بينهما مع هذه الشوارع القديمة، حينها رأيت شخصاً ثالثاً واقفاً معهما. اضطَّربت دقَّات قلبي، إنَّه هو آدم، ومن

غيره بهذا الطول؟ كان يرتدي بنطالاً فاتح اللون وقميصاً داكناً أضفى على سماره جمالاً وسحراً. اقتربت حيث يقفون وألقيت السلام:

- مرحباً

فأجاب آدم:

- أهلاً كيف حالك؟ آنسة؟
- سلام، اسمي سلام!
- آه نعم.
- أنا بخيرٍ، وأنت؟
- بخير الحمد لله.

ثمَّ أكمل آدم حديثه مع جود:

- حسناً، فلتعذريني لأنِّي سآخذ منك عمر لبضع ساعات، وشكراً لك على كرم أخلاقك معنا.

فأجابت:

- كما لو أنَّني المتحكِّمة بالأمر!

ضحك آدم وهو يجيب:

- لا البتة! على كل حال الحمد لله أنَّ لا أحد يملي عليّ شيئاً.

نظر إليه عمر وهو يقول له:

- لكنّك لن تهنأ بذلك طويلاً.

لم أفهم عمّا يتحدَّثان، أكملت جود الكلام فقالت:

- على كل حال سنذهب إلى السوق القديم خلال المباراة، واتَّصِلا بنا حال انتهائها.

وجدت كلام جود فرصةً لأدخل مرَّة أخرى في سياق الحديث، فقلت:

- نعم، سأشتري لأصدقائي هدايا قبل سفري إلى كندا، أعتقد أنَّه المكان الأفضل للعثور على أشياء مميَّزةٍ، أليس كذلك؟

ردّ عمر:

- نعم بالتأكيد!

بينما اكتفى آدم بهزِّ رأسه ولم يعلِّق على سفري، وذهبا. عاودت التقاط الصور ونحن في طريقنا إلى السوق، ومن الطبيعي أنَّ جود حاولت أن تشرح لي سبب غضب عمر، فقالت لي فجأةً:

- سلام، أرجوك حاولي أن تتفهَّمي طبيعة الأعراف والتقاليد والضوابط الشرعيَّة التي نلتزم بها هنا.
- ماذا تقصدين؟

- لا يصحّ أن تركبي بسيارةٍ مع شخصٍ أجنبيٍّ، ولذلك غضب عمر، خوفاً عليك.
- أجنبي؟ ماذا يعني هذا؟
- أي أنَّه ليس مُحرماً.
- وماذا كان عليّ أن أفعل، هل أبقى في الشارع؟
- هنالك ألف طريقة، كان بإمكانه أن يطلب لك سيَّارة أجرة.
- مع كامل احترامي لكنّي لا أفهمك جود، ما الفارق بينه وبين السائق؟
- الأمر مختلفٌ فالسائق له صفة رسميَّة، هذا عمله، أمَّا آدم، من آدم؟!
- هو صديق عمر، ألا يثق به، أهو شخصٌ سيءٌ؟
- لا إطلاقاً، آدم من أفضل الناس، وهو أمين، وبالتأكيد لن يؤذيك، لكن ليس الأمر منوطاً بالشخص ذاته، إنَّما بالمبدأ.
- ألم تخرجي مع عمر أثناء خطوبتكما؟
- بلى خرجنا معاً، ذلك لا يجوز شرعاً، إنَّما عُرفاً دعينا نقول إنِّه مقبولٌ بعض الشيء، لكن لا يغيّر من حقيقة الأمر، أنّه لا يجوز.
- ماذا؟ ما الفارق؟
- آه يطول شرح هذه الأمور.

ومن ثمَّ راحت جود تحاول تغيير الحديث حين وجدتني لم أقتنع بكلامها، فأخذت تتحدَّث عن مزاجيَّة آدم، كي لا أتفاجأ حين نعاود الالتقاء بهما.

- وهكذا كما قلت لك، إذا التقيناهما بعد قليل، ربَّما سيسخر منَّا بسبب كميَّة الأغراض التي اشتريناها، خاصّةً إن ربح فريقه وكان بمزاجٍ جيِّدٍ، لذا لا تأخذي كلامه على محمل الجدِّ فهو كثير المزاح، ولكنَّ قلبه طيب، وإن رأيته قد تجاهلنا تماماً ولم يلقِ علينا السلام، فهذا يعني أنَّه غاضبٌ من أداء فريقه، هو متقلِّب المزاج حقَّاً.

تنهَّدت قليلاً ثمَّ أتبعت كلامها:

- من الجيِّد أنَّه انفصل عن صديقتي.

سألتها:

- انفصل؟ هل كان متزوجاً؟
- لا، بل كان خطيب صديقتي المقرَّبة، لا أنكر أنَّه خلوقٌ ومهذَّبٌ، إلا أنَّه عصبيٌّ في بعض الأحيان ولديه حسّ ذكوري وشرقيّ.

لم أفهم ما عنته بالحسِّ الذكوري والشرقي، لكنِّي بقيت صامتةً. لم أسأل كثيراً، وانشغلنا بالسوق والمشتريات والأغراض إلى أن اقترب موعد انتهاء المباراة، وحينها ذهبنا مسرعتين إلى المقهى، وقفت خارجاً وبدأت بالتقاط الصور، كنت أستطيع رؤيتهما بسهولةٍ وهما داخل المقهى، التقطت قرابة الخمسين صورة، بالذات لآدم، لكلِّ انفعال من انفعالاته، لكلِّ نظرةٍ، لكلِّ حركةٍ من غير أن أسمح لجود بملاحظة ذلك، واستغلَّيت أنَّها كانت منشغلةً بهاتفها، وحين خرجا من المقهى ألقينا عليهما السلام وهما مبتهجين، يبدو أنَّ فريقهما قد ربح بالفعل، بعدها انطلق آدم نحو درَّاجةٍ ناريةٍ، ارتدى سترته ولبس خوذته وودَّعنا، كان منظراً ساحراً ولافتاً للجميع. لطالما حلمت أن أركب الدراجة الناريَّة لكنَّ أمِّي لم تكن لترضى خوفاً عليّ.

عدت إلى المنزل ورحت أتأمَّل الصور واحدة تلو الأخرى. قلت في نفسي: يبدو أنَّ الحياة هنا زاخرة أكثر ممَّا كنت أتخيَّل وليست بالجمود الذي تكتسي به الحياة في كندا.

لم أطل التفكير كثيراً، وأجَّلت سفري وعزمت على العمل في المشروع المتعلّق بالمدينة القديمة، فحتَّى لو لم أقم في هذا المكان، إلا أنَّ فكرة المشروع هنا ستكون إبداعيَّةً. تأمَّلت الصور وخفَّت حماستي حين تذكَّرت كلام جود وعمر حول الضوابط والعادات والتقاليد، يتوجّب

عليّ ألا أتهوَّر أو أنبهر بتلك الآثار التي مضت وولَّت، ولم يتبقَّ منها إلا العادات والتقاليد الصارمة والصعبة، فإن قرَّرت الاستقرار هنا، سيتحتَّم عليّ التعايش مع الواقع والحياة التي لا تشبه حياتي في كندا البتّة.

آدم فبراير 2012

اتَّصل بي عمر وطلب منِّي أن أمرَّ على الجمعية التي يديرها، فثمَّة فعاليات رياضيّة يودُّ تنظيمها ويحتاج إلى مشورتي فيها. وبالفعل انطلقت إلى الجمعية بعد الدوام، وحين أنهيت النقاش مع عمر، خرجت من مكتبه فرأيت رشا، ابنة عمَّتي والتي تعمل متطوعة في الجمعية، فناديتها:

- رشا!

ابتسمت وأقبلت نحوي:

- أهلاً آدم، كيف حالك؟
- بخير، هل انتهيتِ من عملك؟
- نعم.
- هل نستطيع أن نتحدَّث قليلاً قبل أن تغادري؟
- بالطبع، دعنا نجلس في الحديقة الخارجية.

جلسنا على أحد الكراسي، فسألتني:

- ما الأمر آدم؟

- لا أشعر أنَّكِ بخير، منذ فترةٍ وأنتِ لستِ على ما يرام.
- أنا بخيرٍ!
- لا أظنُّ ذلك، هل تعتقدين أنِّي مغفَّل؟
- لم أقل ذلك.
- إذن هاتي ما عندك.
- ليس لدي ما أقوله لك، صدِّقني.

تنهدتُ قليلاً ثمَّ قلت لها:

- سبحان الله، كم نتغير! منذ سنوات كنتُ أخاك الذي لا تخفين عنه شيئاً، والآن تتعاملين معي كالغريب، ما هذا التغيُّر الملحوظ؟
- آدم! لِمَ تقول هذا الكلام؟ كنت وما تزال أخي الذي أعتمد عليه، وأستند إليه، وصديقي الذي لا أأتمن أسراري إلا عنده، كلّ ما في الأمر أنَّنا نكبر ونتغير، ومن الطبيعي أن تأخذ علاقتنا شكلاً مختلفاً مع مرور السنوات، لم نعد أطفالاً يا آدم، ورغم ذلك فأنا أعلم أنَّك موجود دائماً حين أحتاج إليك، حتى ولو لم أتواصل معك كثيراً، لذا لا تعاتبني، عتابك يؤلمني بشدَّةٍ، فأنتَ تعلم معزتك لديّ، ولا داعي لأن أخبرك بذلك.

- أتعلمين رشا؟ يبدو أنَّ النضج لا يليق بنا، ألا ترين ذلك؟ هناك أناس عليهم أن يبقوا أطفالاً. انظري كم نبدو بائسين!
- لا شيء يبقى على حاله، المشكلة أنَّنا نتعلَّق بالماضي كثيراً، علينا أن نحرِّر أنفسنا وننطلق.

أومأت لها برأسي، ثمَّ تجرَّأت وسألتها:

- والآن أخبريني ما بكِ؟ هل استجدَّ شيء بشأن يمان؟

وما إن ذكرت اسمه حتى قطبت رشا حاجبيها وأشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى، تركتها لتأخذ وقتها، فأنا أدرك حساسية الأمر حين يتعلَّق بأخي يمان. لقد مضت ست سنوات منذ أن لَمَّح والدي أمام زوج عمَّتي برغبته في طلب يد رشا للزواج من يمان، حينها انقلب الحديث بشكلٍ مفاجئٍ إلى درسٍ في علم الوراثة، وعن مدى خطورة زواج الأقارب بتأكيد أمراض العائلة وتوريثها للأجيال القادمة، أذكر حينها كيف احمرَّ وجه أبي وغيَّر الموضوع، ومنذ ذلك اليوم والاثنان يعيشان حالة هلاميَّة غير واضحة المعالم، أمَّا يمان وبعد أن فشل بإنقاذ حبهما فضَّل الفرار والهروب للعمل في الإمارات، وهكذا مضت ست سنوات ورشا تحاول جاهدةً أن ترفض العرسان الذين يتقدَّمون لطلبها، هذا ما كنتُ على درايةٍ به على الأقل، لكنِّي أشعر أنَّ الأمور تغيَّرت وثمَّة ما استجدَّ ولم يخبرني به أحدٌ، فقد كنت طيلة السنوات السابقة أسمع

شكوى رشا بين الفينة والأخرى، فأخفِّف عنها وأؤكِّد لها أنَّ يمان ليس أفضل حالاً منها وما يزال ينتظر أيَّ إشارة ليعاود التقدُّم لها.

ابتسمتْ رشا ابتسامةً مصطنعةً ثمَّ سألتني باستهزاء:

- وهل ارتبط أخوك؟

ضحكتُ وأنا أجيبها:

- أخي؟ منذ متى كان اسمه أخي؟
- أليس أخاك؟
- بلى! لكن أأنتِ جادَّة بسؤالٍ كهذا؟ اطمئنِّي لم يرتبط بعد.
- ولِمَ عليّ أن أطمئنَّ؟ يسعدني جدَّاً أن أسمع خبر ارتباطه.

ورغم محاولتها لكتم دموعها، إلا أنَّها أفلتت من عينيها، وشعرت بالأسى تجاهها، أعطيتها منديلاً ثمَّ قلت لها بصوتٍ هادئٍ وجادٍّ وبعيدٍ عن لهجة السخرية:

- رشا، أنا آسف، لم أقصد إزعاجك، لكن أخبريني أرجوك ماذا حدث؟
- لا تعتذر آدم، أنت الوحيد الذي يقف بجانبي، لكن أرجوك لا تسألني ولا تستفسر، فلا رغبة لي بالإجابة.

لم أضغط عليها أكثر، وسألتها:

- حسناً، دعينا ننطلق، أأوصلك إلى المنزل؟ أم أنَّ زوج عمَّتي سيغضب؟
- شكراً لك آدم لا داعي لذلك، أرغب في العودة مشياً على الأقدام، وفي كلِّ الأحوال لا أعتقد أنَّ والدي سيغضب إن أوصلتني! لِمَ افترضت ذلك؟
- لقد وبَّخني عمر منذ أيام لأنِّي أنقذت قريبته من ورطةٍ، وأوصلتها إلى منزلها.

ضحكتْ، فأردفتُ كلامي:

- لا أعلم لِمَ أنا محاطٌ بالفتيات البائسات؟ وأوبَّخ بسببهن؟!
- أما تزال زوجة خالي توبِّخك من أجل ليلى؟
- نعم، دائماً وأبداً.
- وأنتَ ألا تتَّقي الله بتعاملك مع الفتيات؟
- هلَّا صمتِّ أنتِ بالذات.

ضحكتْ بصوتٍ خافتٍ، ثمَّ انطلقنا، لكنَّها سألتني قبل أن نفترق:

- وأنتَ آدم، هل من جديدٍ؟
- لا جديد، أخبرت والدتي من فترة أن تبحث لي عن عروس.

- أعرف، فقد سألتني زوجة خالي عن بناتٍ للخطبة.
- وهل أعطيتها قائمةً؟

لم تجبني رشا على سؤالي، بل قالت:

- أرجوك آدم، لا تكسر بخاطر أي فتاة! هلَّا وعدتني بذلك.
- أعدك!
- إذن أخبرني، ما هي طلباتك علِّي أستطيع مساعدة زوجة خالي؟

ابتسمتُ ابتسامةً سخيفةً، وأجبتها:

- طلباتي! ليس لديّ طلبات، أريد إيقاف جرحي النازف.

أومأت برأسها دون أن تقول شيئاً، ثمَّ لوحت لي ومضت في طريقها، أمَّا أنا فانطلقت في السيارة ورحت أجوب الشوارع وأنا أفكِّر برشا. وأتساءل ما الذي جعل حالها تنقلب بهذا الشكل؟ لم أستطع أن أجد أي افتراضٍ أو تخمين، لكنِّي عزمت أن ألتقي بعمَّتي، وأسألها بشكلٍ مباشر.

لا، رشا لم تنسَ يمان ولن تنساه، ثمَّة سوء تفاهم ومشكلة كبيرة تخفيها، أنا متأكِّدٌ من ذلك. تبّاً لكِ يا رشا، تجبرينني على التدخُّل في هذا الأمر.

يا إلهي، لِمَ أنا محاطٌ بالفتيات البائسات؟!

سلام أبريل 2012

في الأسابيع الأخيرة قبل سفري، كنت أزور المدينة القديمة كلّ يوم، لألتقط الصور وأتجوَّل بين الأزقّة، حتَّى أنَّ أغلب الباعة هناك تعرَّفوا إليّ، فكانوا يلقون السلام والتحيَّة عليّ حين أقابلهم، أحببت ذلك الأمر، فقد سمحوا لي بتصوير محلّاتهم، وقصُّوا عليّ كثيراً من الحكايات والمعلومات حول تجارتهم وعملهم.

كانت أمِّي ترى فرحتي حين أعود إلى المنزل، فتُطمئن نفسها أنِّي سأعود وأستقرّ هنا لا محالة، لم أجزم لها لا باستقراري ولا بعدمه، لكنَّها كانت تلمِّح دوماً على أنَّ نصيبي سيكون في هذا البلد، ففي الأسابيع الأخيرة تقدَّم بعض العرسان لطلبي. على كل حال لم يعجبني أيٌّ من هؤلاء الشبَّان، لكن في المرَّة الأخيرة وحين اقترب موعد سفري، اتَّصلت خالتي هيام كي ترتِّب موعداً لوداعي، أخبرتني أنَّ عمر وجود سيكونان معها، لكنَّها لم تخبرني أنَّ عائلة جود بالكامل ستزورنا إلا قبل وصولهم بدقائق. غيَّرت ملابسي ووضعت حجابي، وكنت سعيدةً باستقبالهم، فأنا أحبُّ كثرة الزوَّار.

والدة جود لطيفةٌ جدَّاً، يبدو أنَّ جود قد ورثت منها ملامحها الجميلة، جلس الرجال في الناحية اليمنى من الغرفة بينما جلسنا نحن النساء في الطرف الآخر، وما إن ذهبت إلى المطبخ لأحضِّر القهوة حتى سمعت تمتمة بين خالتي ووالدتي وهما في المطبخ، وبدأت خالتي بالسؤال:

- هل أخبرتِها بالأمر؟
- لا لم أجد الفرصة المناسبة.
- لِمَ لم تخبريها؟ كان عليها أن ترتدي ملابس مناسبة لهذا الموقف.
- هي عنيدةٌ ولن ترضى بالأساس.

قطعت حديثهما ووجَّهت لهما سؤالاً صارماً:

- عمَّ تتحدَّثان بالضبط؟

أجابتني خالتي هيام:

- كرم، أخو جود.
- ما به؟
- جاؤوا اليوم ليطلبوا يدك له.
- ماذا؟
- نعم، لقد أعجب بك منذ يوم زفاف عمر.
- ولِمَ لم تخبراني بالموضوع؟

أجابت والدتي:

- لم أعلم بالأمر سوى اليوم صباحاً من خالتك.
- ولِمِ لم تخبرني جود على الأقل؟

قالت حينها خالتي هيام وهي تتفاخر بكنَّتها:

- في هذه الحالات، حين يأتي الكلام من الكبار يكون قيِّماً أكثر.
- آه، الكبار! حسناً، سأقدِّم القهوة للضيوف، هل من تعليمات؟

أجابتني والدتي وهي تحاول إرضائي:

- لا شيء، كوني حذرةً وقدِّميها للأكبر سنَّاً.
- وكيف لي أن أعلم من هو الأكبر؟
- لا تكوني سمجةً، قدِّري الأمر تقديراً.

ضحكت ومضيت، إذن فهذه جلسة خطبة تقليدية، تلك الماكرة جود، لم تخبرني بشيءٍ، وبات عمر في صفِّها هو الآخر.

دخلت الغرفة وحاولت أن أمعن النظر في أخيها، لا أذكر أنِّي رأيته في حفل الزفاف، قدَّمت القهوة وعاودت الجلوس في طرف النساء، وبدأ الحديث يأخذ منحىً جديَّاً، فتحدَّثت والدة جود عن رغبتهم في طلب يدي، ومن ثمَّ جلسنا نحن الشباب معاً، أنا وجود وعمر وكرم، كان

الحديث عفويّاً وعاديّاً، لم تمرّ سوى نصف ساعة حتّى انسحبت جود ومعها عمر، ليتنسى لي الحديث مع كرم وحدنا. هو شابٌّ وسيمٌ، ذو لحيةٍ فاتحةٍ، وعينين عسليتين، كان لطيفاً ومهذّباً بحديثه، يختلف عن أخته جود، فهو أكثر عفويَّة منها، إلا أنَّ الأمر غريبٌ برمَّته، لم أستطع فهم الموقف، لكنِّي لم أبدِ انزعاجي من أحد، فالحدث طبيعيٌّ على ما أعتقد.

بعد ذهابهم، لم نتحدَّث حول الموضوع، فقد كان سفري بعد ساعات، ووالداي في قمَّة انشغالهما بي. وفي الصباح، حين حانت ساعة انطلاقي كانت المرَّة الأولى التي أودِّع فيها والدتي ووالدي وأعود إلى كندا وحدي، كانت أمِّي تُطمئن نفسها بتكرار جملة "نراك بعد شهر" لم أفصح لهما عن عدم رغبتي بالعودة. لم يسافرا معي لأنَّ حدث التخرُّج لن يكون بهذه الضخامة، فقط عبارة عن مناقشةٍ بسيطةٍ ولا يتطلَّب الأمر أن يقطعا هذه المسافة الطويلة، إذ لن يستطيعا حضوره بالأساس حتَّى وإن تواجدا في كندا.

الفصل الثاني

سلام يوليو 2012

ما إن وصلت إلى منزلنا في مونتريال، حتَّى جثمت الحقيقة كالجبل على صدري، فالمنزل من غير وجود والديّ موحش جدًّا، لكن لحسن الحظّ انشغلتُ بالتحضيرات الأخيرة لمناقشة مشروع التخرُّج، وفعلاً، مرّت الأيام بسرعة إلى أن أتى يوم المناقشة، ونال المشروع إعجاب أساتذتي بحمد الله وتوقَّعت والدتي أنِّي سأعود حالاً، لكنّي ماطلت الأمر قليلاً، أمّا عمر، وحين اتَّصل بي ليهنئني بتخرُّجي، سألني عمَّا حدث معي بشأن كرم، حينها ضربت كفِّي بجبهتي:

- أوه يا إلهي! لقد نسيت الأمر برمَّته!
- سلام، ما هذا الكلام؟ ألم يكن اتِّفاقنا أن تفكِّري بالأمر وتعطي رأياً مبدئيَّاً حوله.
- نعم، لكنِّي نسيت، اعذرني.
- الشابُّ ينتظرك ويتحايل في كلِّ مرَّةٍ يراني فيها للحصول على رقم هاتفك، كما رأيتِ إنَّه مهذَّب وخجول.
- نعم، أعلم، أرجوك لا تلمني الآن.
- حسناً، والآن وبعد أن عادت إليك ذاكرتك، ما رأيك؟
- لا أعلم!

- أخبريني إن كنت تودِّين الحديث معه
- لا أعتقد أنِّي بحاجة إلى ذلك.
- إذن كيف ستتَّخذين قرارك؟
- عمر، هل يزعجك الأمر إن رفضته؟

سكت قليلاً، ومن ثمَّ قال لي:

- لا بالتأكيد، لكن على ماذا بنيت قرارك؟
- لا أعلم، لكن ليس لديّ رغبة بالارتباط الآن.
- كما تشائين، أأخبر كرم، أم تودِّين أن تتولَّى والدتك المهمَّة؟
- لا أعلم، افعلوا ما تشاؤون.
- سلام، لقد كرَّرت جملة "لا أعلم" مرّات عديدة، ما بك بالضبط؟
- لا شيء عمر، أنا منشغلةٌ بتأمين فرصة عمل لي في هذه الأيام.
- إذن لن تعودي؟
- لا أعتقد.
- هل تعتقدين أنَّ الأمر سيكون جيِّداً على هذا النحو؟
- ماذا تقصد؟
- أنتِ في بلدٍ وأهلك في بلدٍ مختلفٍ.
- سيلحقان بي بعد فترة، صدِّقني.

- تبدين واثقةً من الأمر.

- نعم، أنا متأكّدة.

صمت عمر مرَّة أخرى ومن ثمَّ قال:

- سلام، أسألك للمرَّة الأخيرة، هل ترفضين كرم بشكلٍ نهائيٍّ حتَّى قبل أن تتعرَّفي إليه؟

- نعم.

شعرت أنَّه لم يكمل حديثه، ولم يقل كلّ ما في جعبته، أنهينا المكالمة ومرَّت أيام عديدة، ولم أعلم أو أستفسر عن كيف، ومتى، ومن أنهى الموضوع مع كرم.

آدم يوليو 2012

كنَّا في طريق العودة إلى المنزل بعد أسبوعٍ حافلٍ من زيارات الخطبة، فرغم أنّ والدتي لم تأخذ كلامي في بادئ الأمر على محمل الجد، إلا أنّها سرعان ما أدركت أنّي جادٌّ في شأن الخطبة، ومنذ ذلك الوقت وهي تسعى بكلِّ جدٍّ ومثابرةٍ، سيما أنّها اطمأنّت على فلذة كبدها يمان، فبعد تدخلّي الأخير في الموضوع، وحديثي المطوّل مع عمّتي، حُلّ سوء التفاهم ولم تمرّ عدّة أسابيع إلا وقد ارتبط الاثنان وأخيراً، لا أعلم كيف تيسرت خطوبتهما بشكلٍ مفاجئ بعد كلّ تلك السنوات، كان الأمر أشبه بالحلم، كانت سعادتي بهما لاتوصف، مما أعطاني دفعة وحماسة للمضيّ قدماً في فكرة الارتباط، والبحث عن زوجة المستقبل.

لا أذكر كم بيتاً زرنا إلى الآن، إلا أنَّهم كثر، ومن تنال إعجاب والدتي لا تنال إعجابي، والعكس بالعكس، لكن لم أكن أتمسَّك برأيي، فحين تعبِّر والدتي عن عيبٍ لا تستسيغه في الفتاة، أخبرها أن تفعل ما تشاء، فلا شيء يستحقُّ أن أحارب لأجله!

وهذا اليوم كان من النوع الثاني، فقد أعجبتني الفتاة، كانت لطيفة ومهذَّبة إلا أن لوالدتي رأي آخر، فما إن خرجنا من منزل أهل الفتاة حتَّى بدأت والدتي بسرد المشكلات:

- لم تعجبك أليس كذلك؟
- تبدو جيِّدة، ما رأيك أن أتعرَّف إليها أكثر؟
- لا، لا أعتقد أنَّها تناسبك.
- ولِمِ لا؟

تنهَّدت ومن ثمَّ أكملت:

- كثيرة التصنُّع ولقد بالغت في إظهار اللطافة أمامك، كما لم تعجبني طريقة والدتها في الكلام، تبدو فضوليَّةً جدَّاً وستتعبك و...
- مهلاً، لم أنت ضدِّها بهذه الطريقة؟ دعيني أراها مجدَّداً وأكتشف ذلك بنفسي.
- آدم، الفتاة التي رأيناها الأسبوع الماضي كانت أنسب بكثير، لم لا نعاود زيارتهم مجدَّداً؟
- لكنَّها لم تعجبني، كانت جامدةً جدَّاً ولا تتكلَّم.

هنا راحت أمي تتمتم وفهمت كما لو أنَّها تشير لجُمان، بأنَّها أيضاً كانت جامدةً ولا تتحدَّث كثيراً، تظاهرت بأنِّي لم ألحظ ما تقوله وأكملت كلامي:

- حسناً كما تريدين يا أمّي.
- أدعو الله أن يكون حظَّك مثل الشمس، وأن تكون نصيبك أحنّ عليك من أبيك ومن أمِّك.

أمسكتُ يدها وقبَّلتها وأنا أقول لها:

- وهل هنالك من سيحنُّ عليّ أكثر منك؟
- أسأل الله أن يرضى عنك دائماً وأبداً، وأدعو أن تكون في عيني زوجتك كالشمس والقمر.
- ما مشكلتك مع الشمس بالضبط، لم تصرِّين على أن تضعيني في مقارنةٍ معها؟

ضحكت ولم تجبني وظلَّت ممسكةً بيدي، إلى أن وصلنا إلى المنزل، لم نكمل النقاش، فقد كنت مرهقاً للغاية. استلقيت على سريري، وأمسكت بهاتفي أتفقَّد الرسائل التي تلقَّيتها خلال اليوم، كانت إحداها من ليلى، تسألني عن الفتاة، وقالت فيها:

- كيف كانت تعيسة الحظ؟

- لقد نجَّاها الله منِّي، فهي لم تنل إعجاب الوالدة.
- لها كرامة عند الله.

ضحكت ولم أكمل النقاش معها، ورحت أكمل قراءة الرسائل الأخرى، وإذ برسالةٍ مكتوب فيها:

- مرحباً، أنا سلام قريبة عمر، لديّ سؤال مهم جدَّاً.

أجبتها:

- تفضَّلي!

لم تجب مباشرة، مرَّت دقائق عديدة، ومن ثمَّ كتبتْ:

- أحضِّر لمعرضٍ مهمٍّ بعد أسابيع عديدة، وإحدى الصور المرشَّحة للعرض ضمنه هي صورةٌ لنافورةٍ صغيرةٍ كنت قد التقطتها حين كنَّا في المدينة القديمة، المشكلة أنَّك تظهر في جانب الصورة، ولم أستطع أن أقتطعها لأنَّها بذلك ستفقد حجمها الحقيقي. السؤال: هل تسمح لي باستخدامها كما هي؟

ضحكت جدَّاً، ما هذه المشكلة! وأجبتها:

- لا أسمح بذلك البتة!
- آه آسفة، اعذرني.

وضعت لها وجوهاً ضاحكةً، ومن ثمَّ أردفت:

- أمزح معك، تستطيعين استخدامها من كلِّ بدٍّ، لكن احرصي على أن تضعيها في أجمل زاوية وأن تراها جميع الحسناوات في أمريكا.
- أنا في كندا ولست في أمريكا.
- آه حسناً، أتمنَّى لك التوفيق بكلِّ الأحوال.
- سأرسل إليك صورة عنها حين تُعرض.
- شكراً، هذا لطفٌ منكِ.

أغلقت هاتفي، وأنا أتساءل: كم يعقِّدون الأمور!

لكن ربَّما هي محقَّة، هذا عملها والأمر مهنيّ، جميل هو ذاك الاحترام، أن تحصل على الإذن من صاحب الصورة. لكن مهلاً، ماذا كنت أرتدي في ذلك اليوم، أنا حقَّاً لا أذكر، سنرى حين سترسل الصورة، هذا إن تذكَّرت هي الأمر.

سلام | سبتمبر 2012

مللٌ، مللٌ، مللٌ، كلّ شيءٍ مملٌّ هنا إلى أبعد حدٍّ، ومع أنَّني لم أكن أراه هكذا قبل أشهر، إلا أنِّي أدركت الفرق الشاسع بين الوطن وكندا، وبتُّ أرى الحقيقة. لكلِّ مكان نقاطه الإيجابية والسلبية، كنت موقنةً بتفوُّق النقاط الإيجابية لكندا، لكن اختلَّ الميزان بعدم وجود والديّ، لعلَّهما كانا أجمل ما في كندا، ولعلَّ والدتي مدركة لذلك الأمر، وهذا ما جعلها مطمئنَّةً وواثقةً من عودتي. زاد الأمر سوءًا بعدم حصولي على أي فرصة عملٍ إلى الآن.

"سلام"، لم أشعر بجمال اسمي كما شعرت به هناك، عندما كان الجميع يلقي السلام بحفاوةٍ وابتسامةٍ، ومنذ أن عدت إلى كندا وأنا أشتاق إلى تلك الوجوه الباسمة في المدينة القديمة، إلى جارتنا الفضوليَّة التي تسألني كثيراً من الأسئلة في كلِّ مرَّةٍ تراني بها، البائع الذي يعمل في الدكان المقابل لمنزلنا، وكثير من الناس، عكس كلّ من ألقاه هنا، ورغم السنين الطويلة، إلا أنَّ جفافاً قاتلاً يخيِّم على سلامهم وقلَّة كلامهم.

كنت أحتسي فنجان قهوتي في غرفتي وأنا أفكِّر: هل أتَّخذ قراراً حيال استقراري، أم أنّ الأوان لم يحن بعد!

أنهيت قهوتي، ونظرت في قعر الكوب، ولأنَّها كانت قهوةً أجنبيةً لم يكن هنالك أي آثارٍ للبن، لطالما أضحكني كيف تنظر بعض النسوة في فنجان القهوة لاستشفاف المستقبل، أو الإجابة عن الأسئلة المستعصية.

أبقى أم لا أبقى! أسافر أم لا؟

أمسكتُ بقلم الحبر الذي أمامي على المكتب، ورحت ألطِّخ إبهامي الأيمن بالحبر، طبعت بصمتي مرَّاتٍ عديدة على ورقةٍ فارغةٍ، وجعلت من شدّة الملل أبحث عن شيءٍ مميّزٍ فيها.

لم أجد ما يثير الاهتمام، لكنّي فجأة تذكّرته!

مسحت أصابعي بمنديل وفتحت جهاز الحاسب ورحت أتصفَّح حساباته الشخصية، أما يزال أعزباً! يبدو كذلك، وما يزال وسيماً، بل ازداد وسامةً واسمراراً بعد الصيف.

لطالما سمعت أغانٍ تتغنَّى بـ "أسمراني اللون"، كنت أسأل والدتي: وما علاقة اللون بالجمال؟ لِمَ يتغزَّلون بأسمر البشرة؟ كانت والدتي تضحك وتشرح لي أنَّه حين تجتمع البشرة السمراء مع حلاوة الملامح، ينتج عن ذلك نوعٌ خاصٌّ من الجمال، لافتٌ للنظر بطريقةٍ فتَّاكةٍ على حدِّ تعبيرها. تنهَّدت قليلاً، أغلقت حاسبي ونظرت إلى النافذة. تمدَّدت على سريري وأنا أنظر إلى الساعة، غداً هو يوم ميلادي، وفي تلك اللحظة، خطرت ببالي فكرةٌ جنونيَّةٌ، وبسرعةٍ فائقةٍ فتحت موقعاً لحجز رحلات الطيران، وجدت البطاقة المناسبة والتي ستتيح لي الوصول قبل أن ينتهي يوم ميلادي حسب التوقيت عند والديّ، وبسرعة البرق، حجزت الطائرة، واتَّصلت بصديقتي جوليا لتأخذ قطَّتي ليينز، وانطلقت إلى المطار.

لا أرغب بقضاء يوم ميلادي هنا كالأشباح وحدي.

آدم سبتمبر 2012

كنت أنتظر عمر بفارغ الصبر في المطعم القريب من مكان عمله، لم أستطع أن أشرح له الأمر على الهاتف، فقد كان مشغولاً للغاية، وحين وصل لم تكن جود معه، وقلت له:

- أهلاً عمر، أين زوجتك؟
- لا أعلم، ربَّما مع والدتي.
- أخبرتك أنَّ وجودها مهمٌ للغاية.
- لم أنتبه سامحني، لكن ما الأمر؟ لقد أثرت قلقي.
- الأمر سيءٌ للغاية، ويتعلَّق بليلى، اتَّصل بجود حالاً كي تحضر.
- حسناً.

أمسك بهاتفه واتَّصل بها، وقال:

- أهلاً جود، أين أنت؟ عند خالتي، حسناً، تعالي بسرعةٍ نحن في المطعم المجاور للشركة، لدى آدم حديث مهمٌ، لا أعلم الآن تعالي، أنا بانتظارك.

ولحسن الحظ أنَّها لم تتأخَّر، وما إن وصلت حتَّى بدأتُ بسرد ما لديّ من أنباء سيِّئةٍ.

- اسمعوني جيِّداً، منذ أربع سنوات، وأنا أحاول جاهداً أن أكون السند والمعين لليلى، الشخص الذي يسمعها حين تغضب ويصغي إليها حين ينتابها الجنون ويدعمها حين تضعف ويقوي من عزيمتها حين توشك على الانهيار، نجح الأمر بمساعدة والدتي رغم فارق السن بينهما، رأيت ليلى في أضعف حالاتها، لم يكن لديها صديقة، أو قريبة تثق بها، تركها يزن ونزع كلَّ شعور الأمان من قلبها، لست هنا لألومه أو ألوم أي أحد، لكن ما لا تعلمانه الآن أنَّ ليلى قد تضيع منّا قريباً.

شهقت جود بقوَّةٍ وسألتني مباشرة:

- ويح قلبي، ما الذي استجدَّ؟
- لقد ارتبط ذاك الأبله.

سألتني بهدوء:

- يزن؟ تزوَّج؟
- نعم
- لكنَّنا لم نسمع بأنَّه خطب.
- لا أحد سمع بذلك، تزوَّج فجأةً وانتهى الأمر، بصراحة لم أبارك له بعد، لكنِّي سأفعل بعد فترة، كم هو سخيف، ينعم الآن مع

عروسه تاركاً تلك المسكينة على حافَّة الهاوية، جود، عمر، لقد فقدتُ السيطرة تماماً، لم أعد أستطيع مساعدتها بشيءٍ، إنَّها تودي بنفسها إلى التهلكة، وعلينا أن ننجدها حالاً.

قال لي عمر:

- أخبرنا كيف نساعد، ونحن جاهزان.

أجبته:

- خرج الأمر عن قدرتي، جود أرجوك، ساعديها، ثمَّة حالة استثنائية تتمتّع بها الفتيات حين يواسين بعضهنّ البعض، أنا لا أستطيع أداء هذه المهمَّة إطلاقاً، عليك أن تتواجدي معها لوقتٍ طويل، تمارسي معها نشاطات معيَّنة، تحدِّثيها وتستمعي إليها، تخبريها أنَّها على حقٍّ، وأنَّها لا تستحق ما فعله يزن بها، شيءٌ من هذا القبيل، صدِّقيني لم يعد لديّ أي مخزونٍ لتولِّي هذه المهمَّة، افهموني يا جماعة، أنا شابٌّ ولا أفهم بتفاصيل الفتيات!

هنا أجاب عمر بكلِّ ثقةٍ:

- وكِّل الله، ستهتم جود بالأمر.

أجابت جود وهي تحاول أن تكون دبلوماسيَّةً كعادتها:

- سأحاول، لكن اسمعني آدم، أنت تعلم حساسيَّة الموقف بيننا أنا وليلى، حساسية اختلقتها هي بنفسها، لذا فلم تعد علاقتنا كما كانت أيام الجامعة، لكنِّي سأحاول كَسب ثقتها مجدَّداً.

أجبتها:

- أقدِّر ذلك، وكلِّي أمل بوعدك.

ارتاحت جود بعد أن أخلت مسؤوليتها في حال فشلت في المهمَّة، وفي تلك اللحظة رنَّ هاتف عمر، فردَّ:

- أهلاً سلام، نعم، ماذا الآن؟ لكنِّي مشغولٌ جدَّاً، حسناً سأرسل إليك الآن عنواناً، تعالي إليه وسآخذك معي بعد موعدي مباشرةً إلى هناك، حسناً، لا بأس، إلى اللقاء.

أغلق هاتفه وقال لجود:

- ستأتي سلام بعد قليل، كي آخذها إلى الاستيديو الذي اشتراه لها والدها.
- لقد كنت عندهم مع خالة هيام قبل قليل، لم تخبرني بأنَّها تودُّ الذهاب إلى هناك.

أردف عمر كلامه قائلاً:

- أنطلبُ طعاماً خفيفاً؟

أجبته:

- نعم، فأنا جائعٌ.

ثمّ راحا يبحثان عن الأطباق الصحيّة في القائمة، وبينما كانا منهمكين في استخلاص تلك الأطباق، وصلت قريبته، وألقت التحيّة:

- مرحباً

أجابها عمر:

- أهلاً سلُّومة، اجلسي.

جلست بقربه بعدما عانقته بقوَّة، فاستغربتُ بعض الشيء وتساءلت: منذ متى وجود بهذا التفهُّم! لم أعلِّق فلا علاقة لي بالموضوع، واكتفيت بردِّ السلام عليها، فمنذ حادثة السيارة، لم أعد أشعر بالارتياح عند محادثة تلك الفتاة، يبدو أنَّ عمر مهتمٌّ لأمرها جدَّاً. لا أستطيع فهم طبيعة العلاقة بينهما، ربَّما لأنَّها نشأت في الغربة، لذا اعتادت أن تعامل الشبَّان بهذه الأريحية.

نادى عمر للنادل كي يأخذ طلباتنا، لكن الأمر لم يتمّ بهذه السهولة، فقد غيَّرت تلك السلام طلبها ثلاث مرَّات، وما إن تمّ تقديم أطباقنا، حتىَّ

بدأت حفلة التبادل، فبادلت الأطعمة مع عمر، الأمر الذي زاد استغرابي مجدَّداً. وأثناء تناول الطعام، سألها عمر:

- تودِّين رؤية هدية والديك وأخيراً، هل غيَّرتِ رأيك وستقيمين هنا؟
- لا أعلم بعد، لكن عليّ أن أرى ذلك الاستيديو، ربَّما أقيم به معرضاً حتَّى ولو لم أستقر هنا. دعنا نرى!

وحين قالت معرضاً، تذكَّرت حالاً معرضها الذي أخبرتني عنه منذ أشهر، وقلت لها:

- يا آنسة، وعدتني أن ترسلي إلي صورة من المعرض، نسيتِ الأمر ولم تفعلي أليس كذلك؟

ارتبكتْ ثمَّ قالت:

- نعم، لقد أرسلت إليك صوراً عديدة، لكنَّك لم تستعرضهم.

هنا أبدى عمر استغرابه، فوجَّهت الكلام له وهي تشرح:

- أتذكر معرضي الذي أقمته بكندا بعد تخرُّجي مباشرة؟

أجابها عمر:

- نعم، الذي أسميته "شمس بلادي"؟

- هو بذاته، ظهر صديقك آدم بالصدفة في إحدى الصور، وكان عليّ أن أستأذنه لعرضها.

هنا تصنَّع عمر زوال دهشته وقال:

- آه، فهمت الأمر.

في تلك الأثناء، بقيت جود منهمكةً بهاتفها ولم تتحدَّث كثيراً، وعندما ساد الصمت لدقيقة سألتني جود:

- إذن فقد ارتبط يزن في إنجلترا؟
- نعم، بصراحة صدمني الخبر جدَّاً، لم أتوقَّع حدوث ذلك.
- هذا أمرٌ طبيعي برأيي، رُفض من قبل والدها، لِمَ تعتقد ليلى أنَّ على يزن الانتظار؟!
- لا أعلم، لكن عليها أن تتماسك أكثر، أتمنَّى أن تعود إلى صوابها بأسرع وقتٍ ممكن، وتتقبَّل الأمر الواقع.

تنهَّدتُ قليلاً ومن ثمَّ أكلمت:

- وتكمل حياتها، وتبحث عن شريك، تماماً كما أفعل أنا.

وكي يغيِّر عمر مجرى الحديث، سألني:

- هل من جديد في موضوع خطبتك؟

ضحكت وأجبته:

- يبدو أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة، ما نزال في طور البحث، أعجبتني فتاة الأسبوع الفائت ونالت إعجاب والدتي أيضاً، وهذا أمرٌ نادر الحدوث، لكن ما إن طلبنا زيارتهم مجدَّداً، حتَّى أبدت والدة الفتاة عدم رغبتها بالأمر، وأخبرت أمِّي أنِّي لم أنل إعجاب الفتاة!

سلام سبتمبر 2012

"لم ينل إعجاب الفتاة"، هل هنالك فتاة لا يعجبها آدم!

حينما أنهى آدم تناول طبقه، طلب فنجان قهوة وأخذ يشربه باستعجالٍ، كما لو أنَّه سيغادر ويتركنا، شعرت أنِّي لم أكسب شيئاً من مجيئي، فقد تحايلت على عمر كي آتي بعدما سمعت جود وهي تحادثه ويطلب منها أن تأتي لأنَّ آدم لديه ما يقوله، وراح كلّ ما فعلته أدراج الرياح، بل رحت أفكِّر، هل سيوبخني عمر لمراسلة آدم من غير علمه!

أنا حقَّاً لم أعد أميِّز الخطأ من الصواب!

وددت لو يبقى أكثر، ويتحدَّث أكثر، لكن لم يكن الجو بهذه اللطافة مطلقاً، وبينما كنت أفكِّر أكملت جود كلامها فسألت آدم:

- أتسمح لي بسؤالٍ فيه شيءٌ من الفضول؟

أجابها:

- تفضَّلي!
- لِمَ لا تخطب ليلى، أراكما متوافقين تماماً؟

احمرَّ وجهي وكاد قلبي أن يتوقَّف، لكنَّه أجاب بعدما أطلق ضحكةً هزَّت لها جدران المطعم:

- يا سلام! أنا وليلى، أتمزحين يا مدام؟
- لا أمزح!

نظرتُ إلى عمر في تلك الأثناء، لأجده متصالحاً مع ما تقوله زوجته جود، ليس لديه أي مشكلة بما تفعله زوجته، أمَّا أنا فلا يحقُّ لي أن أفعل شيئاً، كتمت غيظي ورحت أركِّز فيما سيقوله آدم.

- أنا وليلى مثل الإخوة، حتَّى لو لم يصدِّق الناس، سأعطيك مثالاً حيَّاً، أترين كم أنَّ عمر وقريبته سلام متوافقين، وبينهما علاقة ودودة جدَّاً، وإن رآهما غريب لظنَّ أنَّها أخته.

لم تجب جود، بل ابتسمت ابتسامةً ماكرةً، وهنا طوَّقني عمر بذراعه وقال:

- الأمر مختلفٌ يا عزيزي، فسلام أختي فعلاً!

نظر آدم باستغرابٍ وقال:

- حقَّاً؟

- نعم، هي أختي في الرضاعة.

ابتسمتُ بينما كان الحديث قائماً حولي، وشعرت بمشاعر الحنان مجدَّداً تجاه عمر، لقد ظلمته بتفكيري قبل دقائق. امتلأ قلبي لحظتها بكلِّ ما هو جميل، فعمر بجانبي ويبدو أنَّه لن يتخلَّى عنِّي. في تلك الأثناء نظر آدم إلى جود موجِّهاً لها الكلام بحدَّةٍ:

- على كلِّ حالٍ، أعتقد أنَّ فكرتي قد وصلت.

ومن ثمَّ أردف:

- أهذا الاقتراح من بناتِ أفكارك، أم لعلَّها صديقتك تودُّ التخلُّص منِّي إلى الأبد بأيِّ طريقة؟

قطّبت جود حاجبيها وكادت أن تجيبه وهي غاضبة، إلا أنّ عمر أنقذ الموقف وأخذ زمام الحديث قائلاً:

- دعونا من هذا الكلام الآن.

أنهى آدم فنجان قهوته واستأذن ورحل، وبعدها انطلقنا نحن أيضاً، فذهبت جود إلى منزل والدتها، وأخذني عمر معه لرؤية الاستيديو، فقد أراد والداي أن يفاجئاني بهديَّة تخرُّجي، فكان ذلك الاستيديو. حين رأيته دهشت حقَّاً لجمال المكان والديكور، لم أتوقَّع أن يكون بهذه الأناقة والفخامة.

آدم
أكتوبر 2012

مرَّت أسابيع عديدة منذ لقائي بعمر وجود، لكن يبدو أنَّ لا فائدة ترجى من جود أو غيرها ويبدو أنَّ وضع ليلى ما يزال في تدهور. تكلَّمت مع أمِّي واقترحت أن تأخذها معها إلى السوق في المدينة القديمة لعلَّها تجد هناك ما يثير اهتمامها وفي نفس الوقت تشكو ألمها لأمي.

وبالفعل أوصلت والدتي إلى المدينة القديمة هناك وتركتها مع ليلى، وأثناء عودتي تذكَّرت تلك النافورة التي استأذنتني قريبة عمر كي تعرضها، وتساءلت:

أين تلك النافورة، لا توجد أيّ نافورة هنا!

حينها، انتابني الفضول لرؤية تلك الصورة فتحت الرسائل وإذ بمجلَّدٍ يحتوي على أكثر من مئة صورة. غريبة تلك الفتاة، مالي ومالهذه الصور الكثيرة! المدينة القديمة أمامي بشكلٍ حيٍّ ومباشر، ولا أعطي لها اهتماماً فهل أهتمُّ بكلِّ هذه الصور؟!

على كل حال أرسلتُ إليها رسالةً أشكرها على الصور، كانت على ما يبدو أونلاين في تلك اللحظة فأجابت على الفور:

- العفو، هل نالت الصور إعجابك؟
- بالطبع، لكن أليس التوقيت باكراً في كندا الآن؟
- نعم هو كذلك، لكنِّي ما أزال هنا، لم أعد إلى كندا بعد.
- آه، فهمت.

ومن ثمَّ عادت إلى موضوع الصور، فسألتني:

- أيّ الصور أعجبتك أكثر؟

وضعتني في موقفٍ محرجٍ، ماذا سأجيب وأنا لم أفتح الصور أساساً! كتبت لها:

- مممم، جميعهنّ.
- إجابة دبلوماسية، وتدل على أنَّك لم تتمعَّن بهنّ، ألستُ محقَّة؟

يبدو أنَّ حبل الكذب قصير، لكن لم يكن لديّ خيار سوى أن أكمل تلك الكذبة البيضاء البريئة، فأجبتها:

- على العكس، لكلِّ صورةٍ طابعها الخاصّ، أتمنَّى لو يتسنَّى لي حضور المعرض وحينها سأعطيك رأيي بدقَّةٍ أكثر.
- لقد أوحيت لي بفكرةٍ رائعةٍ، لِمَ لا أقيم معرضي هنا بالفعل!
- بالفعل فكرة رائعة لو كانت قابلةً للتنفيذ.
- ومن قال إنَّها غير ذلك، انتظر أسبوعين وسترى!

- حسناً، أتمنَّى لكِ التوفيق.

هنا تذكَّرت أنَّها بالأصل كانت تنوي إقامة ذلك المعرض أثناء حديثها مع عمر. اعتذرت عن إكمال الحديث معها، لأنَّ والدتي قد اتَّصلت بي، وعدت إلى المنزل. وفعلاً لم يمر سوى بضعة أيام حتَّى تواصلت سلام مجدَّداً معي، فكتبت:

- مرحباً، أنا سلام أخت عمر، هل تذكَّرتني؟ أرسلت إليك رسالةً كي أدعوك إلى معرضي بعد عشرة أيام، أي خلال أيام عيد الأضحى، أنتظر زيارتك كما وعدتني.

وأتبعتْ رسالتها بعنوان إقامة المعرض.

لقد تورَّطتُ بالفعل! كيف سأناقشها بالصور وأنا لا أفقه شيئاً بالتصوير أو بالمدينة القديمة، ولا يهمُّني الأمر أصلاً!

أستحقُّ كلَّ ما جرى لي، لِمَ جاملتها إلى هذا الحدّ؟!

سلام نوفمبر 2012

لم أكن متحمِّسةً فعلاً لإنشاء ذلك المعرض، لكن حين أتى الاقتراح من آدم، بات كلّ شيءٍ مختلفاً، لم أقرِّر متى سأعود إلى كندا، لكن على الأقل لست مستعجلةً الآن، الجو باردٌ هناك ولا أودُّ أن أغرق في الثلوج وحدي. علم الجميع بأنِّي سأبقى لأشهر، ومن بينهم كرم. لم أكن أعلم أنَّ عمر وحين اعتذر لكرم بشأن الخطبة كان قد تذرَّع بتواجدي في كندا. لقد وضعني عمر في ورطةٍ حقيقيةٍ، كان عليه قول الحقيقة. لم أفكِّر في الموضوع كثيراً، فقد انشغلت بتحضير المعرض. جلبت اللوحات من كندا، ونسَّقت المعرض في الاستيديو الذي اشتراه لي والداي، ودعوت الأشخاص المهمِّين بالنسبة لي، وفي اليوم الأوَّل من المعرض وحين خرجت من الغرفة الداخلية إلى الردهة الكبيرة في الاستيديو رأيت شابَّاً يقف والضوء من خلفه فلم أميِّزه، يحمل باقة وردٍ كبيرة، خفق قلبي، وتساءلت: أهو آدم؟

وما إن اقترب منِّي حتَّى اكتشفت أنَّه كرم!

- تفضَّلي آنسة سلام، أتمنَّى لكِ التوفيق ودوام النجاح.

شكرته وجلسنا نتحدَّث حول المعرض، أبدى اهتمامه الشديد بتفاصيل اللوحات، لا أعلم إن كان مهتمّاً بها أم بي! لكنَّه لطيفٌ ونبيل، إلا أنَّه ليس الشخص الذي أنتظر حضوره!

حلَّ مساء اليوم الأوَّل من المعرض ولم يأت آدم بعد، لم أشأ أن أتَّصل به أو أذكِّره، لا أريد أن أفرض نفسي عليه أكثر من ذلك.

آدم

نوفمبر 2012

في كلِّ موسمٍ من مواسم الصيام أو الحج، أعيش اللحظات وأستشعر قيمة وجودي هنا، في بلدٍ يحيطني فيه المسلمون، أسمع فيه أصوات المساجد وأرى وجه أمّي. لم أندم يوماً على قراري بعدم مرافقة جُمانا إلى فرنسا، فأنا مكاني هنا، أحبُّ تفاصيل حياتي حين أتواجد في البقعة التي أنتمي إليها، لكن ومع ذلك لم يخبُ حبُّها في قلبي، ولا تزال موجودةً في دعائي، لكن بيقينٍ منزوعٍ، فحين أدعو "اللهمّ اجعلها من نصيبي" بتُّ أردِّدها بلساني فقط بينما شعورٌ في قلبي يؤكِّد لي عدم واقعيَّة هذا الطلب وهذا الدعاء.

هذه السنة، وككلِّ سنة، حين أتت فترة الحج، أعانني الله على صيام أوائل أيام ذي الحجَّة، عبادة الصيام هي الأسهل لنفسي، فمهما تكاسلت وتقاعست عن أداء الفروض الأخرى، إلا أنَّ الصيام وإن كان من النوافل، لا أفوِّته، لا سيَّما بعد إقلاعي عن التدخين، فقد بات الأمر أكثر يُسراً.

ونتيجة لذلك، حزمت أمري في تلك الأيام المباركة بأن أشدّ عزمي، أريدها أحوالاً تأخذني إلى زاويةٍ بعيدة عن هذه الدنيا، تريحني من زخم

الأفكار، والمشكلات والهموم التي لا تنتهي، تسحبني حتَّى ولو للحظاتٍ قليلة من ضوضائي، وبحمد الله، استطعت استجلاب ذلك الشعور في تلك الأيَّام المباركة، ليأتي العيد بعد المجهود الذي بذلته كما لو أنَّه هديَّة وجائزة.

العيد بالنسبة لي هو العائلة ثمَّ العائلة ثمَّ العائلة. تعشق والدتي تلك الخصلة بي، ويتراقص قلبي فرحاً حين أرى ابتسامتها في كلِّ مرَّةٍ أقترح عليها زيارة أحد أقاربها أو أقارب والدي، وتجدني متلهِّفاً بصدقٍ لمرافقتها وسعيداً بوجودي معها. أشعر كما لو أنَّها تملك الدنيا بما فيها حين أكون معها، وهذا وحده كفيلٌ بأن يسعدني دهراً. ناهيك عن الوقت الجميل الذي أقضيه مع أقاربي، ففي كلامهم وسلامهم محبَّة وودّ من نوعٍ فريدٍ، فهذا حملني على أكتافه حين كنت طفلاً، وتلك رعتني حين كنت رضيعاً، وكثير من الذكريات التي عشناها معاً. أعشق زياراتي لهم، لدرجة أنَّ أصدقائي يسخرون منِّي، وابتكروا وسماً خاصَّاً لي وأسموه #آدم_والعائلة، يرمونه تعبيراً عن استيائهم، في كلِّ مرَّةٍ أعتذر بها عن موعدٍ معهم بسبب العائلة.

وككلِّ عام تؤجِّل والدتي زيارتها لأختها إلى آخر يومٍ من العيد كي تجعل ختامه مِسكاً على حدِّ تعبيرها، رغم أنَّها تراها طيلة أيام العيد في زياراتهم!

في ذلك اليوم وبعد أن أنهينا زيارتنا لمنزل خالتي، ذهب والداي إلى سهرةٍ مع أصدقائهما بينما بقيت أتجوَّل في الشوارع حتَّى أجد سيارة أجرة تقلّني إلى المنزل، كانت الساعة نحو السادسة والنصف مساءً، اتَّصل بي بعض أصدقائي كي أكمل السهرة معهم، إلا أنَّ طاقتي قد نفدت بالفعل، فاعتذرت منهم ومجدَّداً أمطروني بوابلٍ من السخرية حول #آدم_والعائلة. تجاهلتهم وأكملت طريقي ماشياً، فقد كان الجو لطيفاً رغم أنَّنا في نوفمبر. وصلت إلى الشارع الرئيس للحيِّ، وكنت على وشك طلب سيارة أجرة فارغة، إلا أنِّي لم أفعل، فقد لفت نظري إعلان على أحد جدران المباني كُتب عليه: معرض "شمس بلادي".

وتذكَّرت مباشرة أخت عمر، لا بدَّ أنَّه هو، معرضها الذي دعتني إلى حضوره، كيف نسيت زيارته!

تساءلت: هل ما يزال قائماً يا ترى؟ لا يحتوي هذا الإعلان أي تفاصيل عن التوقيت! واليوم هو أحد أيَّام العيد، والساعة على وشك أن تصبح السابعة مساءً.

لكن مع ذلك، قادتني خطاي إلى المعرض، فهو قريبٌ، وإن كان مغلقاً، فسأخبرها أنِّي أتيت ولم أجد أحداً كي لا أكون ممَّن يخلفون وعودهم. لم يكن من الصعب الاستدلال على مكان المعرض، فقد كان على بعد أمتار من الإعلان، بموقعٍ استراتيجيٍّ وجميلٍ في الشارع الأساسي، كما لو أنَّه

شقَّة في الطابق الأرضي. اقتربت من المكان فرأيت أضواء وحركة عمّال، فدخلت لأكتشف الأمر. كان المدخل لطيفاً، وبدا لي أنَّ المكان يخصُّها فهو ليس معرضاً عامّاً، لعلَّه الاستيديو الذي تحدَّثت عنه مع عمر، فقد كُتب على لوحة الواجهة (Salam).

مررت بين الشجيرات الصغيرة للحديقة في المدخل فوجدت البوابة الزجاجية كما لو أنَّها مغلقة، حاولت فتحها، ففُتِحت ولم تكن موصدةً. تجرَّأت ودخلت، هذه المرَّة دفعني الفضول إلى رؤية ما ظهر منِّي في تلك الصورة. رأيت بضعة عمَّال وعاملات في الداخل وهم ينظِّفون المكان. ألقيت عليهم السلام وباركت لهم بالعيد وسألتهم:

- هل انتهى المعرض؟

أجابني أحدهم:

- نعم اليوم هو اليوم الأخير.
- وهل الآنسة سلام هنا؟
- نعم، ما تزال هنا ترتِّب بعض الأمور.

هززت رأسي وأكملت استكشافي للمكان، فالاستيديو كبير، وبين كلِّ هذه الفوضى لفتت نظري إحدى الباقات بالقرب من المدخل، كانت

ضخمةً، تعاون على حملها عاملان، نظرت إلى البطاقة الكبيرة التي تعلوها لأجد: "كرم العلي وعائلته، ألف مبارك"

آه، إنَّها جود وعائلتها.

حينها تذكَّرت أنِّي جئت إلى هنا مصادفة ولم أجلب معي أي هديَّة أو حتَّى بطاقة للتهنئة. تجاهلت الأمر ووصلت إلى الردهة الكبيرة، حيث كانت اللوحات معروضةً على الجدران. لا بدَّ أنَّها صالة العرض، رحت أنظر إليها، لم أفهم ما المميِّز بها، بالنسبة لي هي صور عاديَّة للمدينة القديمة. لكن أعجبتني الصور التي يظهر فيها الناس على طبيعتهم حقَّاً، لامست وجوههم وابتساماتهم قلبي، وجوه أطفال ونساء ورجال ومسنِّين، يحمل كُلّ وجهٍ ألف تعبيرٍ وحكايةٍ. من بين تلك الوجوه، كانا متواجدين من كلِّ بدٍّ، عصفورا الحبّ: عمر وجود، كانت صورتهما جميلةً وإبداعيَّةً بالفعل. لاحظت أيضاً أنَّ كلَّ اللوحات مذيلة بتعليقٍ مكتوبٍ بثلاث لغات، الإنكليزية والفرنسية والعربية.

كم مضحكة هذه الفتاة! من سيقرأ كلّ هذا الكلام؟ لكن ربَّما هنالك من يثير اهتمامه تلك الأمور، من يدري!

أضفى صوت الموسيقى الخافت الذي كان ما يزال يعمل من مكبِّرات الصوت إلى اللوحات جمالاً ورقَّةً. أكملت تأمُّلي للوحات وحين

وصلت إلى منتصف الصالة، وإلى المكان الأكثر إضاءةً ووضوحاً، وقفت في مكاني وتساءلت: هل ما أراه حقيقةً أم أنَّني أتوهَّم! أمعنت النظر مجدَّداً، لأرى أنَّ أكبر لوحة في المعرض تحمل وجهاً أراه كلَّ يوم، أراه صباحاً ومساءً وفي كلِّ الأوقات، ولكن هذه المرّة هو أمامي من منظور شخصٍ آخر. تمتمت بصوتٍ منخفضٍ من شدَّة ذهولي: أهذه هي اللوحة التي استأذنتني لأجلها!

وضعت يدي على حافَّة ذقني ورحت أعبث بالشعيرات التي تكسوها وأنا متفاجئ، لم يخطر على بالي أن أرى اللوحة بهذا الشكل، اعتقدت أنِّي أظهر في زاوية الصورة فقط، كما عبَّرت هي نفسها عن الأمر!

النافورة! أين النافورة؟! تبّاً، هذه ليست نافورة بالأساس، بل صنبور ماء عاديّ.

مهلاً، ما الذي يجري هنا؟ الصورة لي أنا. ابتعدتُ قليلاً عن اللوحة، محاولاً رؤية المشهد كاملاً، وهنا شعرتُ بدوارٍ حين رأيت شمساً تطلُّ على زاوية اللوحة، شمساً تمثِّل أيقونة عنوان المعرض وُضعت في هذه الزاوية، متوسِّطة المعرض واللوحات وبقيَّة الكواكب التي تناثرت على الجدران لتكون زينةً تناسب موضوع المعرض.

أسندت رأسي بطرف أصابعي كي أحافظ على توازني، فكأنَّما كلّ هذه الكواكب تدور حول مركزٍ واحدٍ، تدور منذ مدَّة ليست بالوجيزة، ومركزها غير متفطِّن لوجودها.

رأيت بطرف عيني التعليق المذيَّل على اللوحة، لكنِّي لم أستطع قراءته، فقد كان تفكيري مشوشّاً للغاية، رفعت رأسي مجدَّداً، أخذت نفساً عميقاً في الوقت الذي تفرَّد فيه صوت الكمان في مقطوعة "مونامور" التي كانت تعمل في مسجلِّة الصوت للمعرض، وحين نظرت إلى اللوحة مرَّة أخرى تراءت لي دعوة والدتي أمامي جليَّة وواضحة. سمعت صوت والدتي في أذني وهي تقول: "أدعو الله أن تكون في عينيها كالشمس".

وهنا بالكاد استطعت ابتلاع ريقي. وجَّهت نظري مرَّة أخرى إلى الشمس، فدوت تلك الجملة مراراً وتكراراً في أذنيِّ: تراك كالشمس!

بدأتُ بالتعرُّق ولم أشعر أنِّي في حالةٍ جيِّدةٍ، شعورٌ غريب سيطر على جوارحي، فشعرت كما لو أنِّي مكبَّلٌ مرهق، تساءلت: لِمَ أنا مرتبك! ربَّما يكون الأمر برمَّته غير مقصود، بل بالتأكيد هو غير مقصود.

رجعت خطوةً إلى الوراء فسمعت صوتاً نسائياً من بين أصوات العمَّال، لا بدَّ أنَّها أخت عمر، لم أستدر مباشرة، فجسدي كان متسمِّراً في مكانه، لكن وفجأة سمعت صوتاً مدويَّاً خلفي، فاستدرت حينها لأرى صاحبة المعرض ممسكةً في يدها كاميرتها بعد أن أوقعت إحدى عدساتها، وانكسرت. تناثر الزجاج في جميع الأنحاء، كان صوت تهشُّم الزجاج كفيلاً بأن يوقظني من حالة الذهول والدوار التي عشتها في فلك تلك الفتاة المتهوِّرة.

جثت الفتاة على الأرض وهي تحاول جمع بقايا عدستها المحطَّمة، اقتربت منها وابتسمت نصف ابتسامة، وقلت:

- مرحباً سلام!

ارتبكتْ وأجابتني وهي تجمع الزجاج:

- أهلاً آدم!

- عيدك مبارك، يبدو أنِّي آخر زائرٍ للمعرض.
- لم أتوقَّع مجيئك، لقد تفاجأت حقّاً.

نزلت على ركبتيّ كي أساعدها في التقاط زجاج عدستها، وقلت لها:

- يبدو أنِّي رجل المفاجآت.

ابتسمتْ وأردفت:

- على أي حال، جميع الزوَّار مرحَّبٌ بهم في أي وقت.

وجدت نفسي أجيبها:

- لكنِّي زائرٌ خاصٌّ، أنا هنا لأزور لوحتي أوَّلاً والمعرض ثانياً.

ارتبكت فقالت:

- أيّاً كان ما ستزوره فعلى الرحب والسعة.
- شكراً لك، أعجبني المعرض جدّاً، أنتِ فنانة!

كان لا بدّ أن أمتدح عملها، فعلى ما يبدو أنَّها بذلت مجهوداً كبيراً كي تحضِّره، صمتنا قليلاً ومن ثمَّ سألتها كي أزيل حالة الصمت المربكة تلك:

- لا بدَّ أنَّ الأمر كان مرهقاً، أن تسألي كلَّ هؤلاء الناس عن إمكانيَّة عرض صورهم، كيف استطعت الوصول إليهم والتواصل معهم؟

أجابتني:

- ممم، سألتهم قبل التقاط الصورة!

إذن فهي سألتهم قبل التقاط الصورة، لكنَّها لم تسألني!

في تلك اللحظة التقت عيناي بعينيها، وكما لو أنَّها قرأت أفكاري فأكملت كلامها:

- كنتَ حالةً خاصَّةً.

ما إن سمعت جملتها تلك حتَّى راودتني أشعة الشمس مجدَّداً، ضربت وجهي فحجبت الرؤية عن عينيِّ لثوانٍ، لأجد أنِّي بتلك اللحظات قد التقطتُ زجاجةً بطريقةٍ خاطئةٍ وجرحت يدي بها. أعادني صوتها إلى الواقع وهي تنادي بذعرٍ شديدٍ:

- انتبه!

التقطتُ منديلاً من جيبي ولففته حول الجرح ولكنَّها أصرَّت على البحث في حقيبتها التي كانت على كتفها لعلَّها تجد شيئاً أكثر جدوى،

ولكن باءت محاولاتها بالفشل. أثناء بحثها سألتني قرابة الأربع مرَّات "كيف حال يدك؟" شعرت من شدَّة قلقها كما لو أنِّي جريح حرب! قلت لها ممازحاً:

- أرجوك أرسلي إلي اسم العدسة ومواصفاتها، عليّ أن أعوضك عنها.
- وما ذنبكَ أنت؟
- اعتبريها هديَّةً بمناسبة تخرُّجك وافتتاحك للاستيديو، فأنا لم أحضر معي اليوم أي شيء، اعذريني.

ابتسمت وقالت وهي تتصنَّع المجاملة:

- لستَ بحاجة إلى ذلك، يكفي مجيئك!

ونهضت من الأرض فتوجَّهت معها نحو اللوحات فقلتُ لها:

- على فكرة هذا صنبور للماء وليس نافورةً!
- عفواً لم أفهم.

ضحكتُ وأعدت صياغة الجملة بشكلٍ أوضح:

- ما أظهرته في صورتي اسمه "صنبور ماء".
- تقصد صورة النافورة! لم تكن نافورةً؟!

- تماماً.

ابتسمت وعقَّبت:

- آه، إنَّها لغتي العربيَّة المتواضعة، وفهمي الخاطئ للأمور.
- لا عليك لكنَّها صورة رائعة بكلِّ الأحوال، أهو تاريخيٌّ فعلاً؟
- نعم.

وراحت تقرأ التعليق المكتوب في أسفلها:

"نافورة ماء بناها الحاجّ عبد الكريم الحدَّاد عام 1880م على نفقته الخاصة بعد وفاة زوجته الحاجة أنيسة سليمان، وجعلها سبيلاً وصدقةً جاريةً على روحها".

توقفتْ هنا عن القراءة وقالت:

- هذا ما أسمِّيه الحبّ والإخلاص الحقيقيّ، محظوظةٌ الخالة أنيسة، فحتَّى بعد مماتها ظلَّ زوجها مخلصاً لها.

ومن غير شعورٍ منِّي أجبتها:

- رزقنا الله حبّاً كهذا.

وحينها أصبح وجه الفتاة أحمر، أحسست أنِّي أحرجتها وربَّما أخطأت في منحى الكلام، فتظاهرت بأنِّي أودُّ قراءة ما تبقَّى من التعليق، لأجدها تشير فيه إلى الشمس مجدَّداً.

"تحيط بالنافورة زخارف بسيطة بينما تشعُّ على قنطرتها العلويَّة شمسٌ دافئةٌ" لم أستطع حينها أن أكتم فضولي فسألتها:

- أتحبِّين الشمس إلى هذه الدرجة؟ ساعتك أيضاً كانت على شكل شمس.
- آه نعم، أحبُّها جدَّاً، أفتقدها في كندا.
- وهل أنت مضطَّرةً إلى افتقادها؟

تنهَّدتْ ومن ثمَّ أجابت:

- لا أعلم، لكن من يدري، ربَّما تشرق شمسي في كندا يوماً ما، أو لربما أغيِّر أنا مداري!

لم أعلم كيف أجيبها، ولم أستطع معاودة التفكير بما قالت، كان الأمر مرهقاً لعقلي، هل تراني أتوهَّم شيئاً لا وجود له!

شعرت بصداعٍ شديدٍ وأردت الانصراف بسرعةٍ، وفي تلك اللحظة ناداها أحد العمَّال وقال لها:

- يا آنسة، لقد انتهينا اليوم، سنكمل في الغد إزالة الجدران المستعارة.
- حسناً، شكراً جزيلاً لكم جميعاً.

وهنا أتتني الفرصة للانصراف، أبديت إعجابي بلوحاتها واستأذنت. لم أعرض عليها خدماتي في التوصيل إلى أي مكان، لأنَّ سيارتي بالأساس ليست معي، وحتَّى لو كانت معي فلن أكرر الخطأ ذاته مجدَّداً، لكن لم أستطع إلا أن أتأكَّد منها أنَّها ستكون على ما يرام، أخبرتني أنَّها تنتظر والدها وسيقلّها إلى المنزل، فودَّعتها ومضيت.

وبالفعل، خرجتْ بعدي بقليلٍ وراحت تنتظر عند زاوية الشارع، كان الشارع هادئاً وفارغاً، فاليوم هو يوم عيد، وأغلب الناس في بيوتهم أو في زيارات، انتظرتُ في الطرف الآخر للشارع في مكانٍ لا تراني هي فيه، كي أطمئنَّ أنَّ والدها قد وصل. لم تمر سوى عشر دقائق بعدها توقَّفت سيارة عند زاوية الشارع، خرج منها رجلٌ في السِّتينيَّات من عمره، ساعدها على حمل بعض الأشياء، وضعهم في السيارة وانطلقا.

أمّا أنا فأكملت طريقي، وبينما كنتُ أمشي رنّ هاتفي، وإذا بها والدتي تتصل بي.

- أين أنت آدم؟

- في طريقي إلى المنزل.
- حسناً، أنا بانتظارك، في جعبتي كثير من الأخبار وحصلتُ على مواعيد للأسبوع القادم.

مواعيد! أتقصد للخطبة؟ لسببٍ مجهول أجبتها بكلِّ ثقةٍ وحزمٍ:

- أمِّي، أرجوك ألغيها كلّها وحالاً!
- ماذا قلت؟ لقد تعبنا أنا وصديقتي هيفاء، أمضينا كلَّ الوقت ونحن نسأل ونتَّصل وننسِّق، ثمَّ تقول ذلك، ما بك يا بنيّ؟
- دعينا نتحدَّث في الأمر حين أعود إلى المنزل.
- حسناً، في أمان الله!

ودَّعتني وأنهينا الاتِّصال، بينما أكملت طريقي مشياً على الأقدام رغم طول المسافة، ورحت أجيبها في سرِّي: إنّها دعوتكِ يا أمي، دلَّتني على من تراني لربَّما شمساً!

آدم نوفمبر 2012

بعد عودتي من المعرض بقيت لعدّة أيام شارداً أفكِّر في تلك الصورة، طلبت من والدتي أن تكفَّ عن البحث وأخبرتها عن موَّالٍ في رأسي أرغب في غنائه، أجابتني حينها:

- لم توصلك إلى هذه الحالة إلا تلك الموَّالات التي في رأسك.
- أمِّي ما بها حالتي؟
- لا شيء.

وسكتت حينها ورمقتني بنظرة عتاب وبعدها قالت:

- غنِّ كما شئت، أنتظر أن تفاتحني بذاك الموَّال قريباً.
- قريباً إن شاء الله، دعواتك.
- وهل بيدي أي شيء غير الدعاء؟

بعد ذلك طلبت من عمر رؤيته، فاقترح في بداية الأمر أن نتقابل في المقهى لكنِّي رفضت وأخبرته أني أرغب في لقائه في مكانٍ هادئٍ، لم يبدِ استغرابه وفهم أنَّه موضوع مهمّ أريد محادثته به. بعدها وأخيراً اتَّفقنا على اللقاء في متنزهٍ يقع في أعلى الهضبة المطلَّة على المدينة.

ذهبت إلى مكان اللقاء قبل الموعد بساعتين، فقد كان مكاني المفضَّل للتأمُّل وتفريغ أفكاري، دعوت الله هذه المرَّة ومن قلبٍ صادقٍ أن ييسر لي الأمر إن كان به الخير. تذكَّرت دعائي حين طلبت من الله أن يجعل جُمان من نصيبي، لم أفكِّر ساعتها إن كانت جُمان هي الخير لي أم لا، كنت مصرَّاً على أن أكون معها أيّاً كانت الظروف. أمَّا الآن فقد بدأ عقلي يتحكَّم بزمام الأمور ويدلُّني على المنطق، فإن كان الخير في ارتباطي بسلام، آمل أن تكون من نصيبي، وإلا فأدعو الله أن يدلَّني على غيرها. وبينما كنت أفكّر، وصل عمر في الموعد المحدد، صافحني وهو يسألني:

- والآن، أخبرني ما هو الموضوع المهم؟
- سلام
- وعليكم السلام!
- لا لا، الموضوع يخصُّ سلام.
- ما بها؟! هل أزعجتك مجدَّداً؟ أم عاودت الاتِّصال بك لتلتقط لكَ صورة، هذه الفتاة طائشة وإلى الآن لم تستوعب العادات والتقاليد عندنا.
- مهلاً، اهدأ قليلاً، لا شيء من هذا القبيل، لم تزعج الفتاة أيّ أحد بالأساس!
- ما الأمر إذن؟

- بصراحة، أريد أن أعرف عنها أكثر، فبعد تفكيرٍ عميقٍ وجدت أنَّها تناسبني، لذا ومن دون لفٍّ أو دوران، أرغب في التقدُّم لخطبتها.

احمرَّ وجه عمر وأخذ نفساً عميقاً، ثمَّ راح يحكي لي عن سلام، حكى لي عن أخيها المتوفَّى، وعن دراستها المنزليَّة وعن سفرها بعد ذلك، أخبرني عن وحدتها في هذا العالم الواسع، عن تعلُّق والديها بها، وأخيراً عن مرض والدها.

مشاعر غريبة اعترتني، لم أكن أعتقد إطلاقاً أنَّ تلك الفتاة تخفي كلّ هذه القصص، تجاربها أكبر من عمرها بكثيرٍ، استصغرت نفسي قليلاً، فأنا كنت أعتبر أنِّي أعاني وأقاسي من تجربة حبِّي الفاشلة، أمَّا تلك الفتاة التي بالكاد أكملت العشرين عاماً عاشت كلّ تلك الآلام، فقد الأخ، الوحدة، مرض الأب، ومع هذا فإنَّ ابتسامتها لا تفارق وجنتيها.

استأنف عمر حديثه قائلاً:

- والآن تعاني سلام مجدَّداً، فإن قرَّرت الاستقرار في الوطن مع والديها، ستعاني ألم الغربة في وطنها الذي لا تعرف عنه الكثير، وإذا قرَّرت العودة إلى كندا ستعاني ألم الغربة من غير وجود والديها معها.

هنا نسيت كل أفكاري السابقة، وكأنَّ تلك الجملة أعادتني إلى الواقع، فقاطعت عمر قائلاً:

- عمر، شرطي للارتباط هو أن نبقى في البلد!

احمرَّ وجه عمر غاضباً وقال:

- تتكلَّم وتضع شروطك كما لو أنَّ الفتاة أبدت موافقتها عليك.
- آسف، لم أقصد ذلك، لكنِّي أذكِّر نفسي، فأنت تعلم سبب انفصالي عن جُمان.
- وقصَّتك تلك كفيلة وحدها برفض الفتاة لك.
- لقد فقدت الأمل ولا أمل لنا معاً أنا وجُمان.
- فسلام هي خيارك الثاني! ولو لم تفقد الأمل من حبيبتك لم تكن لتتقدم لخطبتها!
- ما بك عمر؟ تتكلَّم وكأنَّك لا تعرفني. الدنيا قسمة ونصيب! هل من المفترض أن ترفضني كلُّ بنات الكون لأنِّي كنت مرتبطاً؟
- آدم، أنا أعرفك جيِّداً، وأفهمك وأراعي مشاعرك، ولكن أنت الذي لم تستوعب بعد مدى أهمِّية سلام بالنسبة لي، سلام هي قريبتي وصديقتي وقبل هذا وذاك هي أختي، وبالنسبة لها أنا اليد التي تمسك بها حين تتعثَّر، علاقتنا أقوى حتَّى من علاقة

الإخوة الحقيقييّن، لأنَّنا أدركنا وحدتنا منذ زمنٍ بعيدٍ ونعلم حاجتنا إلى بعضنا.

- أعتذر عمر، لكن صدِّقني، لقد أعجبتني الفتاة وحين أخبرتَني بقصَّتها ازداد إعجابي بها، لا تنسَ أنِّي منذ فترةٍ طويلةٍ وأنا أحاول العثور على الفتاة المناسبة، وأنا منفصلٌ عن جُمان منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولم يلفت انتباهي إلى الآن إلا سلام.
- كعادتك تتكلَّم وكأنَّك دنجوان عصرك.

هنا بدأت أمازحه قليلاً لألطّف الجو، ووقفت وقلت له:

- بالله عليك انظر إلى هذه الشبوبية هل رأيت مثلها قط؟

ضحك عمر وجلس على إحدى الصخرات وقال:

- لستُ والدتك لأتغزَّل بك، اغرب عن وجهي.

جلست بجانبه وسألته بجدِّيَّةٍ:

- متى سنأتي أنا ووالدتي لزيارة أهلها؟
- أرجوك خفِّف من غرورك، أوَّلاً هنالك أمور متعلِّقة بالفتاة يجب حلّها.
- أهي مرتبطةٌ؟

- لا ليست كذلك، ولكن هنالك شابٌّ يصرُّ على خطبتها، تقدَّم لها مرَّتين منذ أن عادت من كندا.
- وهل وافقت؟
- لا أعرف رأيها بعد، سأسألها وبناءً على إجابتها سنرى كيف ستجري الأمور.
- وهل لديّ فرصة مع ذلك الغريم؟
- أين ذهب غرورك السابق والاعتزاز بالشبوبية المزعومة؟
- gone with the wind!

وضحكنا ثمَّ صمتنا متأمِّلين المشهد الجميل للمدينة. بعدها رنَّ هاتف عمر، فنظر إلى المتَّصل وقال لي:

- إنَّه ابن حماي كرم، عن إذنك.
- خذ وقتك.

حينها تذكَّرت ذلك الاسم جيِّداً، باقة الورد الضخمة في المعرض لم تكن من والد جود كما ظننت بل من أخيها. ابتعد عمر عنِّي قرابة المترين ليكمل محادثته، وتحدَّث بصوتٍ خافتٍ، وأنهى مكالمته قائلاً:

"لا تقلق سأنهي الموضوع خلال اليومين القادمين".

في تلك اللحظة دخلت جميع تلك البيانات إلى عقلي وبعد تحليلها خرجت بمعلومةٍ واضحةٍ وجليَّةٍ: أهو السيد كرم من ينتظر جواب سلام من أجل الخطبة؟

وبعد أن أغلق عمر هاتفه، ودَّعني ووعدني أنَّه سيعطيني إجابةً خلال الأسبوع القادم، لم أستطع كتم اكتشافي وأردت التأكّد منه، لذا فحين ركب سيارته وركبت أنا دراجتي الناريَّة، ناديته وأنا ألوِّح له:

- عمر، عدني ألا تشدّ الخيط لطرف ابن حماك!

ضحك مستغرباً، ونظر إليَّ نظرةً فهمت فحواها، وأجابني:

- لو بيدي الخيط لشددته لطرفه، ولكن الخيط بيد سلام وهي أدرى باختيارها.

إذن فكما توقَّعت، لم تزعجني صراحته تلك، فكرم هو الأنسب لحالتها فعلاً، ليس لديه الماضي الشائك الذي أملك، وعمر على معرفةٍ تامَّةٍ بتبعات ذلك الماضي، ومن الطبيعيِّ أن يقلق حيال الأمر. لوَّحتُ له مبتسماً ومضيت، وشعورٌ بداخلي يخبرني أنَّ الخيط ماضٍ إلى طرفي بسلاسةٍ.

سلام ديسمبر 2012

وصلت إلى مكتب عمر وبالكاد استطعت أن أجد مكاناً لركن سيَّارتي، فمنذ فترة وأنا أحاول التأقلم على القيادة، فالأمر هنا أكثر صعوبة لعدم التزام السائقين بقواعد المرور، حين دخلت إلى مكتبه، رحَّب بي بوجهه البشوش واستأذن زملاءه وجلسنا بهدوء.

- والآن أخبرني، ما هو الأمر المهمّ الذي استدعيتني لأجله ولا تودُّ أن يسمعه أحد من والديّ؟

سألته وأنا أضع حاجياتي على الطاولة المجاورة لمكتبه، فقال لي:

- أخبريني أوَّلاً كيف حالك؟
- بخيرٍ، الحمد لله.
- أراكِ قد بدأت بقيادة السيارة، هل قرَّرتِ الاستقرار هنا وأخيراً؟
- ليس بعد، لكن في كلِّ الأحوال عليّ أن اعتاد الأمر، فحتَّى لو عدت إلى كندا، ستكون إجازاتي التي سأقضيها هنا أطول من ذي قبل.
- حسناً، وكيف كان المعرض؟

- انتهى على خيرٍ.
- وما قصَّة العدسة التي حطَّمتها؟
- عدسة! من أين علمت بالأمر؟
- لي مصادري الخاصَّة.

ضحك وهو يجلب كوبين من القهوة، أخذت كوبي وأجبته:

- حادثةٌ بسيطةٌ، كنت ألتقط صوراً للوحات قبل إزالتها.
- لا بأس، فداكِ، والآن أخبريني، هل كان عدد الزوَّار مُرضياً لك؟
- لم يكن جيِّداً بالفعل، أخطأت في اختيار التوقيت، فخلال فترة العيد يكون الناس مشغولين، سأستفيد من أخطائي المرَّة القادمة.
- أحسنتِ، لا بدّ من التجربة والخطأ، ومع الوقت ستجمعين خبرةً لا بأس بها، أنا واثق من ذلك.

صمتَ قليلاً، فشعرت أنَّه يودُّ الحديث بأمره المهمّ الذي استدعاني لأجله، ثمَّ قال:

- سلام، لا يخفى عليك إصرار كرم حول موضوع الخطبة، وهو ما يزال ينتظر جوابك، خاصَّةً حين افتتحت الاستيديو.

- لكن أنت تعلم يا عمر أنِّي لم أرفضه بسبب السفر.
- نعم أعلم، ولذلك أنا بحاجةٍ إلى أن أبتَّ في الأمر وأعطيه جواباً نهائيَّاً.
- وتحتاج هذا الجواب منِّي، أليس كذلك؟
- بالضبط
- لا أعتقد أنّه مناسبٌ لي.
- والسبب؟
- شعورٌ لا أكثر.
- أحترم شعورك، وسأخبره بالأمر في القريب العاجل إن شاء الله.
- شكراً لك عمر.
- لا داعي للشكر.

وراح يرتشف قهوته، نظرت إليه، فعاود الحديث:

- سلام!
- ما بك؟ أهنالك شيء آخر؟
- نعم، سأسألك سؤالاً، وأجيبيني بصراحةٍ.
- بالتأكيد، تفضَّل.
- ما رأيك بآدم؟

تظاهرت أنِّي لم أميِّز الاسم فسألت عمر:

- من آدم؟
- صديقي السوبرمان الذي أنقذك من الضياع!

تصنَّعت الضحكة وأجبته:

- آه، تذكَّرته، ما به؟
- سألتك، ما رأيكِ به؟
- لا أملك رأياً محدَّداً، هو صديقك وتعرفه أكثر منِّي، لِمَ تسألني هذا السؤال؟

ابتسم ابتسامةً صفراء، بل زرقاء لا أعلم ما كان لونها حقَّاً، وأجابني:

- يودُّ أن يتقدَّم لخطبتك!

وما إن أنهى عمر جملته تلك، حتَّى أصبح وجهي أحمر من شدَّة الدهشة والاستغراب، انتظرني عمر إلى أن أنهيت دهشتي ومن ثمَّ قال:

- طلب رؤيتي منذ أيام، وأفصح عن رغبته تلك، ولكنَّني أرى أنَّك ترفضين الجميع و...

لم أدعه ينهي جملته، وسألته:

- هل أعطيته جواباً بالنفي؟

قطّب حاجبيه وقال:

- لا، لم أفعل!
- عفواً عمر، أكمل كلامك لقد قاطعتك.
- لا عليك.

صمتُّ مجدَّداً، فأكمل عمر كلامه:

- والآن، هل لديك مانع من أن يزوركم مع والدته؟

سرحت في دهشتي، ولم أجبه، فالأمر محرجٌ جدًّاً، هل حقّاً سيأتي آدم لخطبتي! لم أكن أتوقَّع ذلك. قطع عمر أفكاري تلك، وقال:

- سلام، اسمعيني جيِّداً، تعلمين أنَّ آدم من أعزِّ أصدقائي، هو شابٌّ رائعٌ، لم أجد له مثيلاً في طيبته، وشهامته وجمال أخلاقه، يهتمُّ لأمر الناس جميعاً، ولديه كثير من الصفات النبيلة، لكن هنالك معلومة ربَّما تكون مهمَّة لك، لقد كان آدم مرتبطاً بفتاةٍ قبل سنواتٍ عديدةٍ.

أجبته هنا بكلِّ ثقةٍ:

- أعلم ذلك، أخبرتني جود أنَّ صديقتها المقرَّبة كانت خطيبته.
- ليست المشكلة هنا، إنَّما...

وصمتُ كما لو أنَّه لا يجد الكلمات المناسبة، لم أقاطعه بل انتظرته ليعبِّر عمَّا يودُّ قوله، فأكمل:

- ممم، لقد أحبّها آدم بشدّة.

لم أفهم لماذا يخبرني بهذه الأمور، وما دخل حبّه القديم بخطبته الآن، وكأنَّما كان عمر يقرأ أفكاري فقال:

- لا أعلم فيما إن كان قد نسيها أم لا.
- أتقصد أنَّه يتوجَّب عليّ رفضه؟
- لا إطلاقاً، لم أقصد ذلك، لكن خذي قرارك بعد دراسة أبعاده جيِّداً، اتَّفقنا؟
- وما كان السبب وراء انفصالهما؟
- السفر، ولا شيء سوى السفر، فقد واجهتمها عوائق أصعب وتجاوزاها، إلا أنَّ سفر جُمان إلى فرنسا كان الحدّ الفاصل بينهما.
- أتعني أنَّه لا يحبُّ السفر؟
- بالضبط، عليك أن تضعي هذه النقطة في حسبانك.
- أخبرني عمر، ما هي تلك العوائق الكبيرة التي قلت أنَّهما تجاوزاها؟
- قصَّة قديمة، لا تشغلي بالك بها.
- هلَّا أخبرتني أرجوك!

- حسناً، جُمان تكبره بعامين، وأهلها لم يوافقوا على ارتباطها بآدم في بداية الأمر، والخالة أم يمان أيضاً، لم تكن مقتنعةً بجُمان.
- من هي الخالة أم يمان؟
- والدة آدم.
- آه فهمت.

ربَّما توقَّعَ عمر منِّي أن أرفض آدم حالاً، لكنَّه وجدني صامتةً لا أعقِّب، فأكمل سرد مواصفات آدم قائلاً:

- وهو شخصٌ عصبيٌّ على فكرة!
- عمر، أشعر كما لو أنَّك تعرض عيوبه كي أرفضه، كن صريحاً معي، هل من الأفضل أن أرفضه حالاً؟
- لا، لكن ما المانع أن أطلعك على تلك الأمور من الآن؟
- شكراً لك عمر، على كل حال لا أريد أن أعطِّلك عن العمل أكثر من ذلك...

قاطعني عمر قائلاً:

- انتظري سلام، هلَّا سمحتِ لي بسؤال؟
- تفضَّل
- صورته في المعرض، هل هي عفوية أم أنَّه يعجبك منذ فترة؟

ابتلعت بالكاد ريقي، لكنّي تظاهرت بأنّي متماسكة وأجبته:

- في الحقيقة، سمرة بشرته وملامحه الشرقيَّة لافتةٌ للانتباه، والصورة كما تعلم للنافورة.
- تقصدين صنبور الماء.
- آه نعم!
- حسناً لا تبالي بما قلت، فكِّري على مهلك وأعطيني جواباً حالما تتَّخذين قرارك.

أومأت له بالإيجاب ومن ثمّ ودعتّه ومضيت، بعد أن أخذت تلك الصفعة على وجهي، إذن فآدم لم يتجاوز حبَّه القديم! لا بدّ أنِّي لست مميَّزةً بنظره، إنّما الأفضل والأنسب فقط. تساءلت: هل أفكِّر بجديَّةٍ به؟ أم أرفضه؟ وإن قرَّرت الارتباط به، هل أبقى هنا وأترك كندا، لكن مهلاً كيف سأرتبط به وقلبه معلَّقٌ بغيري؟!

شعرت بأنِّي لا أودّ رفضه، وفي الوقت ذاته كنت خائفةً. لم أتخيَّل يوماً أن أوضع في مثل هذا الموقف.

آدم ديسمبر 2012

استيقظت صباحاً، وجلست أحتسي القهوة مع أبي وأمِّي وصوت فيروز يصدح في المنزل: يا جبل البعيد خلفك حبايبنا...

- وأنا أؤيِّد كلامك يا ست فيروز وبشدَّةٍ.

قلتها ونظرت مباشرة نحو والدتي، التي سألتني مباشرة:

- وهل هذا هو الموَّال الذي برأسك؟ أن تنتظر أحبابك الذين هم خلف الجبل البعيد؟!

ضحكت وأجبتها:

- ليس من الصعب اكتشاف من أين ورثتُ خفَّة الدم!
- لن نختلف على هذه الجزئيَّة، لكن أجبني حالاً، ما موَّالك يا ولد؟ أريد أن أعرف لعلِّي أغنِّيه معك وننتج دويتو يكسِّر الدنيا.

هنا رددت قائلاً:

- يا سلام! يا لها من فكرةٍ رائعةٍ، بل عبقريَّةٍ.

وفي نفسي أكملت: أن أنتظرها حتَّى تنهي الدكتوراة، فهي لم ترتبط إلى الآن!

وهنا قطع صوت رنين هاتفي أفكاري، كان المتَّصل عمر، اتَّصل ليعلمني بعدم وجود مانع في التقدّم لطلب يد سلام، وأنَّني أستطيع زيارتهم مع والدتي. أرسل إلي رقم هاتف والدة سلام، فمرَّرته إلى والدتي وعقَّبت بعدها قائلاً:

- تفضَّلي يا هنائي، هذا الموال الذي في رأسي تستطيعين الآن غناءه معي.
- لمن هذا الرقم؟

وعندما أخبرتها عن سلام، أبدت والدتي حماسها للاقتراح وبدأت بالتنسيق مع والدة سلام.

آدم

ديسمبر 2012

حين أتى الموعد، استقبلنا أهل سلام بحفاوةٍ، كان منزلهم يقع في نفس الحي الذي يقع فيه منزل جُمان، ويعتبر هذا الحيّ من أرقى الأحياء في مدينتنا وأغلب الطبقة المخمليَّة يرغبون في السكن فيه، ويبدو أنَّ أهل سلام بعد غربة العمر استطاعوا أن يشتروا منزلاً هناك، في مبنى مؤلَّف من ثلاثة طوابق، أخبرتنا والدتها أنَّهم اتَّفقوا مع أصدقاء لهم في كندا لشراء قطعة أرض وتعميرها مشاركةً وبناء شقَّة في كلِّ طابق، ليصبحوا جيراناً.

كان أثاث البيت حديثاً وفاخراً، فلقد استبدلته والدة سلام هذه السنة حين قرَّروا الاستقرار في الوطن. جلسنا في البداية معاً ثمَّ انزوينا أنا وسلام في طرف الغرفة قليلاً. كان الحديث معها سلساً، فهي فتاةٌ ليِّنةٌ وودودة، ولكن بالكاد استطعت منع نفسي من الضحك على لغتها العربيَّة المتواضعة، لا سيَّما في جمع التكسير، فحين أرادت أن تجمع الصحون من على الطاولة، قالت لي:

- المعذرة خمس دقائق وسأعود، عليّ أن أجمع الصحنات.

صحنات؟! كنت سأنفجر من الضحك، لكنِّي لم أشأ أن أزعجها بالتعليق على كلِّ خطأ، فالتزمت الصمت، فهي تترجم أيضاً بعض الجمل والتعابير حرفيَّاً من الإنكليزية إلى العربية، لم أستطع أن أحفظ ما قالته لكنَّها ذكرت كثيراً من المصطلحات والتشبيهات التي لا تستخدم بالشكل الذي وظَّفته هي باللغة العربية. كنت أخاطبها بالآنسة سلام أثناء حديثنا، فعقَّبت قائلةً:

- لا داعي لاستخدام الألقاب والرسميَّات، أم أنَّه يتوجَّب عليّ أن أناديك بالأستاذ؟
- لا إطلاقاً، حسناً سأناديكِ بسلام فقط.
- هذا عادلٌ بما فيه الكفاية.

وابتسمت، كانت لطيفةً فعلاً، ولم ترتبك كثيراً، حمدت الله أنَّها لم تكسر كأساً أو توقع مزهريةً، بدت واثقةً من نفسها، واستطاعت أن تحظى بالقبول من والدتي، التي أصرَّت ألا تفصح عن رأيها إلى أن نصل إلى المنزل، متذرِّعةً أنَّها لا تودُّ إعادة التقرير مرَّتين، تحبُّ والدتي أن تحرق أعصابي، لكنّ ابتسامتها كانت توشي برأيها.

وما إن وصلنا إلى المنزل، حتَّى بدأت تسرد لوالدي رأيها، كان والدي متحمِّساً لسماع الأخبار، فقال لها بعد أن أنهت كلامها:

- إذن لقد أحسن ولدكِ الاختيار، أدعو الله أن يجعلها من نصيبه.
- آمين.

قالاها معاً، ابتسمت واستأذنتهما وتوجَّهت نحو غرفتي، لكنِّي حالما خرجت من غرفة الجلوس حيث كانا، سمعت والدتي تكمل كلامها بصوتٍ خافتٍ:

- صدقني يا أبا يمان، لقد كنتُ قلقةً أن يكون اختياره كالمرَّة السابقة، فتاة جامدة لا تستطيع فتح حديث معها، وأهلها مغرورون يعتقدون أنَّهم أفضل الناس، وفوق هذا وذاك تخلَّت عنه، ولكن هذه المرَّة، الحمد لله، الفتاة مثل قطعة السكر تذوب في القلب، وكذلك أهلها من أرقى الناس، مؤدَّبون ومتواضعون للغاية، وبيننا الكلام، يبدو أنَّ الفتاة معجبة به، لقد كانت عيناها تلمعان بشدَّةٍ في كلِّ مرَّةٍ تنظر إليه، الحمد لله الذي استجاب دعائي وأتمنَّى أن يتمِّم الله لهما بالخير.
- ما اسم الفتاة، هلَّا ذكرتني؟
- سلام، أسأل الله أن يجعلها سلاماً لقلبه.
- آمين.
- أمَّا تلك، كسرت قلبه ومضت ولم تكترث به.

- للآن أنتِ ناقمةً عليها! دعيها وشأنها، ذهبت الفتاة لتكمل حلمها.
- سمير، أنا أحذِّرك، لا تدافع عنها، هذه مشكلتي معها بالأساس، ما دام أنَّ حلمها هو الدراسة، لِمَ جعلت ابني يتعلَّق بها كالمجنون؟!

لم أشأ أن أسمع أكثر من ذلك، تركت التنصُّت وذهبت إلى غرفتي، فتحت ألبوم صوري مع جُمان وبدأت أسترجع ذكرياتنا معاً شعرت أنِّي أخونها، وبدأت تلك الفكرة تدور في رأسي، فهي لم ترتبط ولم تخنّي، لكن أنا الذي شرعت بالخيانة وفكرت بالارتباط بغيرها.

هل عليّ التراجع عن الأمر! ما أزال في بداية الطريق!

فتحت حساباتي على وسائل التواصل الاجتماعي، وبدأت أبحث عنها، لم أجد ملفَّاتها الشخصيَّة، يبدو أنَّها أغلقتهم مجدَّداً. بحثت عن اسمها وعن آخر أبحاثها، فرأيت أنَّها ستشارك في مؤتمرٍ جديدٍ سيقام بعد شهرين، كما أنَّها انتهت من كتابة ورقة عمل حديثاً.

عظيم! يبدو أنَّ حلمها يسير على أكمل وجه وأنا كالمغفّل ما أزال واقفاً مكاني أنتظر.

لا! لم أخنها بل هي خانتني حين فضَّلت الدراسة عنِّي، فراحت لتحقِّق حلمها بعيداً عنِّي، لم تكترث بي ولم تأبه بوجودي معها من عدمه، ولم تدرجني ضمن خططها المستقبليَّة.

راجعت نفسي وتذكَّرت كلام عمر عن سلام وكيف أنَّها وحيدةٌ ولا طاقة له بأن أظلمها معي.

تبّاً لي، كيف أفكر بحبيبتي السابقة في يوم زيارتي الأولى لزوجتي المستقبليَّة. بالفعل أنا خائنٌ، خائنٌ، لعمر، ولسلام، ولأمِّي تلك المسكينة التي تحلم بأن تراني سعيداً.

ذهبت إلى حضن والدتي ألقيت رأسي المنهك من التفكير وطلبت منها أن تمسح عليه لعلَّ تلك الوساوس التي تطاردني تخرج منه فأرتاح. ظلّت والدتي تتمتم بدعواتٍ وهي تداعب خصلات شعري إلى أن غفوت بهدوء، تماماً مثل الأيام الخوالي، حين كنت طفلاً صغيراً.

الفصل الثالث

آدم يناير 2013

- آلو، مرحباً يا عريس.
- أهلاً رشا، ماذا تريدين؟
- سآتي بعد قليل لزيارة حماتي، لدينا كثير من المهمَّات، هل أنت في المنزل؟
- نعم.
- إذن ابقَ في المنزل إلى أن آتي، هنالك بعض الأمور التي أودُّ استشارتك بها.
- حسناً مع السلامة
- أراك بعد قليل.

لم تمرّ أكثر من عشرين دقيقةً حتى وصلت رشا وهي تقفز من الحماسة، فموعد رفافهما هي ويمان قريبٌ جداً، وهي الآن متجنِّدةٌ تماماً لتنسيقه وتنظيمه. فتحت لها أمِّي الباب، سمعتها وهي تسأل عنِّي:

- أين آدم؟
- في الداخل، سأناديه.

وأتيت بالكاد إلى غرفة الجلوس، وما إن رأتني رشا حتَّى صرخت:

- ويلي ما بك؟
- مريض، أهي المرة الأولى التي ترين فيها شابَّاً مريضاً؟!
- لا، لكنَّ وجهك شاحبٌ جدَّاً.

نظرت أمي إليّ ولم تعلّق، فمنذ يوم عقد قراني وهي لا تطيق نقاشي في هذا الموضوع، خرجت أمِّي لتجلب القهوة، وهنا استلمتني رشا وقالت:

- ما بك يا مجنون؟

وجدتها فرصةً مناسبةً كي أحكي لها عمَّا يعتريني، فلا أحد يسمعني ولا أستطيع أن أبوح بما أشعر به إلا لليلى أو رشا، وليلى تلك البائسة يكفيها ما بها، لقد أتت بالكاد لتحضر حفل عقد قراني، لذا فأنا لا أستطيع أن أزيد همومها، أمَّا رشا وقد أتت بنفسها إلى هنا، فعليها أن تسمعني، نظرت إليها نظرة البؤس والشقاء، وقلت:

- لست بحالةٍ جيِّدةٍ يا رشا، أنا مرهقٌ نفسيَّاً.
- ما الذي حدث؟ أين سلام؟ وكيف حالها؟
- هي بخيرٍ، لكن المشكلة بي أنا.
- أخبرني ما بك؟

في تلك الأثناء حضرت والدتي إلى الغرفة ومعها القهوة، فقالت رشا:

- لأحمل عنك يا خالة.

وأخذت الصينية من والدتي، فقلت لها:

- حيَّرتني، أهي امرأة خالك، أم حماتك أم خالتك؟

ضحكت رشا وهي تطبع قبلةً على خدِّ والدتي وقالت:

- هي كلُّ ذلك، ما دخلك أنت، أم أنَّك تغار!
- أغار، لِمَ سأغار؟
- بالمناسبة ماذا تقول لكِ سلام يا خالة؟

تنهَّدت والدتي وأجابتها:

- والله لم أنتبه بعد يا رشا!

ونظرت إليّ والدتي نظرة عتاب، أشارت إليها رشا بأنَّها ستتدبَّر الأمر، ففهمت والدتي وقالت:

- لديّ بعض الاتصالات المهمّة.

وجلست والدتي في زاوية الغرفة آملةً أن تنهال عليّ رشا باللوم، وحينها سألتني رشا مجدَّداً:

- أخبرني ما الذي جرى من البداية ومن غير لفٍّ أو دوران.

- حسناً سأخبرك لكن التزمي الهدوء ولا تنفعلي، اتَّفقنا!
- حسناً.

أخذت كوب الشاي خاصَّتي، وضعته بين يدي، ورحت أتأمَّله وأنا أحكي لها عن مكنونات قلبي، عن العواصف التي اجتاحتني منذ يوم عقد قراني.

- لا أعلم كيف تهوَّرتُ بهذه الطريقة! كيف وضعت نفسي والفتاة في موقفٍ كهذا! حين نظرت في عيني والدها وأنا أجيبه بـ "قبلت" شعرت أنِّي أحمل جبالاً على كاهلي، أمَّا هو فقد كاد أن يبكي، لا أعلم كيف يشعر الأب حين يزوِّج ابنته، لكنَّه شعورٌ صعب، بكلِّ فرحه وكلِّ حزنه، بكلِّ أمله وكلِّ ألمه، رأيت كلَّ تلك المشاعر في عيني والد سلام، شعرت أنَّ الكلمات عالقة في حلقي، كيف سأحمل هذه الأمانة؟! وأنا إلى الآن...

وسكتُّ قليلاً، انتظرتني رشا كي أستجمع قواي وأكمل كلامي ولم تقاطعني، لكن حين طال سكوتي، قالت بهدوء:

- إلى الآن لم تنسها؟!
- لا أعلم رشا، لا أعلم، لكنِّي لست سعيداً بخطبتي الآن، أشعر بالاختناق.

- بصراحة من السهل معرفة ذلك.
- أكان ذلك واضحاً يوم الحفل أيضاً؟

تنهَّدت رشا بحزنٍ ثمَّ قالت:

- للأسف، نعم!

قطبت حاجبيّ وأكملت سؤالي:

- كيف؟
- ربَّما لأنِّي أعرفك جيِّداً، فقد كان من الواضح أنَّك لست على طبيعتك، فأنت مرح وتحبُّ الأجواء الاحتفالية وتشارك فيها بشغفٍ، أمَّا في يوم عقد قرانك، كنت جافَّاً وكئيباً، ثمَّ أخبرني كيف تجرَّأت وغادرت الحفلة معنا نحن المدعوَّات؟ كان عليك أن تبقى مع خطيبتك لوقتٍ أطول.
- أعلم، لكن صدِّقيني، كنت مُتعباً لدرجةٍ كبيرةٍ، شعرت أنَّ جسدي على وشك الانهيار.
- سلامتك يا ابن خالي، لكن ماذا عن سلام؟ هل شعرت بشيءٍ؟
- لا أعلم!
- لا تعلم؟! هل تواصلت معها خلال الأيام الماضية؟

- تتَّصل بي يوميَّاً، تسأل عن حالتي، أخبرها أنِّي أتحسَّن وأنِّي لا أستطيع رؤيتها بسبب المرض.
- كم أنتَ شئيم، ألم ترها منذ يوم الحفل؟
- لا، رغم أنّها أتتْ منذ يومين، لكنِّي تظاهرتُ بأنِّي نائم، جلستْ مع والدتي قليلاً ثمَّ انصرفتْ.
- يا لك من أحمق، ستشعر الفتاة بأنَّ هنالك خطب، لِمَ تفعل ذلك؟
- رشا! لا تلوميني، أنا متعبٌ حقَّاً، ولا يُفارقني الدوار، وأتقيَّأ في كلِّ مرَّةٍ آكل بها.
- ولهذا تبدو شاحباً كالأشباح، سلامتك!
- قولي لي ماذا أفعل؟
- لا شيء، عليك أن تتماثل للشفاء أوَّلاً وخلال ذلك تواصل مع خطيبتك كي لا تشعر بما يحدث معك من تخبُّطاتٍ، والله لديك خطيبة كالذهب، لم أرَ بجمالها ولطافتها، حتَّى سمعت أكثر المدعوَّات يوم الحفل يتغزَّلن بها.
- أعلم ذلك، لكن أصدقيني القول، ألم تكن الخالة أم جميل تقارنها مع جُمان؟ رأيتها وهي تشير إلى الطول، وإلى الكعب العالي، لستُ غبيَّاً، كان من الواضح أنَّها تقارن.

ضحكت رشا وأكملت:

- أنت تعرف الخالة أم جميل كم هي ثرثارة.
- بالله عليك أخبريني، ماذا قالت عنها؟
- لا أذكر.
- لا تكذبي، أخبريني الصدق.
- ليست هي فقط، بل كان الموضوع الذي يشغل بالهنّ هو المقارنة، وأعتقد أنَّ الأمر طبيعيّ، إنَّهنَّ يتسلَّين!
- ومن نجحت وفقاً للجنة التحكيم المصونة، سلام أم جُمان؟
- حسب ما سمعت، النتيجة كانت التعادل!

ضحكت رغم تعبي، فأكملت رشا كلامها حين رأتني أبتسم:

- جُمان تفوَّقت بالطول، بينما سلام نالت نقاطاً أعلى في جمال الملامح، جُمان تفوَّقت في الدراسة، فمن الواضح أنَّهنَّ معجبات بكونها مهندسة، ولم يقتنعن بمهنة التصوير لخطيبتك، لكن في الوقت ذاته خسرت جُمان إحدى الجولات بسبب تقدُّم عمرها عليك، بعدها أحرزت سلام نقاطاً إضافيَّةً بسبب الجنسية الكنديَّة، فتبعتها جُمان حالاً كون والديها طبيبين، وهكذا دواليك، أمضين السهرة كلّها بالغيبة والنميمة، لا سيَّما حينما بدأن بالتدخُّل في التقييم الديني، ومحاولة استكشاف من منهما

أكثر تقوى وأقرب إلى الله، فتناقصت درجات جُمان بسبب الحجاب.

قاطعتها في تلك اللحظة لأصحِّح تلك المعلومة:

- على فكرة، لقد تحجَّبت جُمان.
- آه هذا جميل، علينا تعديل الدرجات على هذا النحو.

ضحكنا فسألتها:

- وماذا عنكِ أنت؟ من هي التي تفوَّقت بنظرك؟
- أحببت الاثنتين ولم أقارن بينهما، ورأيي غير مهمٍّ بالأساس، المهم أن تتفوَّق سلام في نظرك أنتَ، هل تفهم؟

صمت ولم أجبها، فاستاءت منِّي، وقالت:

- آدم، لقد وعدتني ألا تكسر بخاطر أي فتاة، ألا تذكر؟
- بلى أذكر!
- لا يجوز ما تفعله!
- لكنِّي تورطت!
- لا تقل هذه الكلمة، إن كنت لا تريد الفتاة، اتركها حالاً، لا تُعلِّقها بك أكثر.
- وهل الأمر بهذه السهولة، لقد أصبحت زوجتي!

- لِمَ عقدتم القران مباشرة؟
- لست أنا من اقترح الفكرة، إنّما والدها، أخبر والدي بأنّه سيسافر إلى كندا خلال الأشهر المقبلة، أعتقد أنّ لديه مشكلة صحيّة، وما فهمته أنّه يودّ أن يطمئنَّ على ابنته، وتكون بين أيادٍ أمينةٍ.
- أيادٍ أمينة! فعلاً، أستخيِّب أمله بك؟
- لا تلوميني رشا، الأمر فوق طاقتي، لا أشعر بأي شيء تجاه سلام، أتصدِّقينني إن قلت لك لا أعلم ما كان لون فستانها يوم الحفل!
- تبّاً لك! كانت كالحورية بفستانها الزيتونيِّ، والذي عكس لون عينيها بشكل لافتٍ للانتباه.
- هل لون عينيها زيتونيّ حقّاً؟

لم أنهِ سؤالي ذاك حتّى رمت رشا وسادةً صغيرةً على وجهي رميَّةً حرَّةً ومباشرةً، وقالت:

- ألم تنظر في عينيّ خطيبتك بعد؟

لم أجبها، هنا نظرت إليّ رشا بأسىً وتابعت:

- آدم، أرجوك، لا تكسر قلبها.

- سأحاول.

وفي تلك الأثناء رنَّ هاتفي:

- إنَّها سلام!
- ماذا تنتظر؟ أجبها حالاً.

أجبتها:

- هلا وغلا، نعم أنا في المنزل، ما أزال مرهقاً، لا جديد، أخذت إجازةً اليوم أيضاً، آمل أن تتحسَّن حالتي الأسبوع القادم، لم أذهب إلى الطبيب، أعاني فقط من إرهاقٍ عام، ولا حاجة إلى الطبيب، حسناً مع السلامة.

وأغلقت هاتفي، حينها انفجرت رشا غضباً وصرخت:

- أهكذا تتحدَّث مع خطيبتك؟ أأنتَ عجوز؟
- وكيف عليّ أن أحادثها؟
- لا تريد أن تفهم، هذا كلّ ما في الأمر، أتعلم، سأمضي الآن لقد انتزعت كل ما لديّ من طاقة.
- ماذا عن تنظيم حفلتك؟
- دعك منِّي وعش في أحزانك ومآسيك، أيُّها العجوز الخرف.

لم أجبها، ولم تعتذر منّي عمّا قالته، بل ودَّعت أمِّي ومضت فعلاً، أعرف أنَّها تودُّ صفعي، لكن كلّ ما تستطيع فعله الآن هو أن تستنكر ما أفعله بأقصى قوَّتها. حين فتحت رشا الباب وهي خارجة، نادتني أمِّي:

- آدم، انظر ماذا عند الباب!

أتيت لأجد باقة وردٍ من سلام.

- ألا تتعب هذه الفتاة من إرسال الزهور!

قلت هذه الجملة ودخلت إلى غرفتي، لكنَّ رشا أردفت:

- لم ترسلها، لا بدّ أنَّها كانت هنا منذ قليل حين اتَّصلت بك يا ذكيّ!

استدرت في مكاني وسألتها:

- وكيف عرفتِ؟
- رائحة عطر نسائي تفوح في المدخل.
- ولِمَ لم تذكر ذلك؟
- لأنَّ ردَّك عليها كان سخيفاً، اذهب والحق بخطيبتك، أو اتِّصل بها حالاً.

تذكَّرت في هذه اللحظة أنَّ سيَّارة سلام في التصليح، نظرت إلى النافذة، فوجدت أنَّ الطقس غائمٌ ومزعجٌ للغاية، الرياح لا تتوقَّف والشجر يتمايل يميناً ويساراً، وانتابني شعورٌ سيّءٌ فاتَّصلت بسلام حالاً لكنَّها لم تجب، أعدتُ محاولة الاتِّصال مرَّات عديدة بينما كنت أرتدي ملابسي بسرعةٍ، وحين أجابتني كنت قد ركبت سيارتي، فسألتها:

- سلام! أين أنت؟

كان صوتها خافتاً وحزيناً، قالت لي:

- أين سأكون، أنا بالقرب من الاستيديو.
- لِمَ تمشين في الشارع في هذا الطقس السيء؟
- ما المشكلة في ذلك؟

وقبل أن أجيبها، سمعتها وهي تقول باللغة الإنكليزية: "ومن سيهتمّ"، لا بدَّ أنَّها لم تقصد قولها بصوتٍ عالٍ، فتظاهرتُ بعدم سماعها، لكنّ قلبي آلمني. بعدها تذرَّعتْ بأنَّها لم تعد تسمع صوتي بسبب الرياح وأغلقت الهاتف. كنت متأكِّداً من أنَّها ما تزال قريبةً في الأرجاء، فأسرعت في البحث عنها في الشارع العامّ الذي عليها أن تسلكه في حال أرادت الذهاب إلى الاستيديو.

سلام | يناير 2013

وافقت، كيف ولماذا لا أعلم بالضبط! أهو النصيب؟ ربَّما، نعم لقد أعجبني آدم منذ أن رأيته في حفل زفاف عمر، لكن لم أتخيَّل أن نرتبط بالفعل؟ أن يتقدَّم لطلب يدي وأوافق. لم أفكِّر يوماً بما أحبُّ أو لا أحبّ في شخصيَّة الشابّ الذي سأرتبط به، لكن كان آدم مختلفاً عن غيره، لقد نال إعجابي رغم عيوبه الكثيرة. حقَّاً لم أستطع رفضه، لكن فاجأني قرار والديّ بعقد القران مباشرةً مع الخطبة، لم أحسب حساباً لهذه الجزئيَّة، وتمَّ كلُّ شيء على عجالةٍ بعد إجابتي بالموافقة، كان والدي مطمئنَّاً بأنَّ عمر على معرفةٍ بآدم وعائلته منذ سنوات، أمَّا جود فبقيت متحفِّظةً على الموضوع لحساسيته، فمن ناحية رفضتُ أخاها مرَّتين، ومن ناحيةٍ أخرى، آدم هو الخطيب السابق لصديقتها المقرَّبة.

تزامن تحضير حفل عقد القران مع العديد من الولائم والاحتفالات وحفلات التعارف، شعرت أنَّ الجميع يرغب في رؤية خطيبة آدم والتحدُّث معها، يبدو أنَّ لآدم نجوميَّة ساطعة في العائلة.

وفي يوم عقد القران، كنت أعيش كما لو أنِّي في حلم، لم أصدق أنِّي اليوم سأصبح زوجته وسيمسك بيدي، نستطيع أن نلتقي ونخرج معاً

ونمضي أوقاتنا بلا أي قيودٍ أو موانع، تماماً كالأفلام. ليس من الصعب أن يمتلئ قلبي حبّاً لشابٍّ وسيمٍ وجذّابٍ كآدم. كانت أحلامي تفوق الخيال، شعرت بأنّي سأملك الدنيا بما فيها. كنت أنتظر وصوله إلى صالة الأفراح التي أقمنا فيها حفل عقد القران بفارغ الصبر.

لكن لسوء حظّي لم تكن حالته الصحيَّة جيِّدة في ذلك اليوم، لم يستطع أن يكون بنشاطه المعتاد، ولم يسهر ما تبقى من الليلة معي، بل عاد مع أهله ووالدته إلى المنزل حين انتهى الحفل. تحطَّمت أحلامي على صخرة الواقع تلك، لكن قلت في نفسي هي أيام وسيعود إلى صحَّته، ونشاطه وحيويَّته.

مرَّ اليوم الأول بعد الحفل، وهو لا يردُّ على هاتفه، اتَّصلت بالخالة أم يمان، فأخبرتني أنَّه ما يزال متعباً ومريضاً، أسرعت وجلبت له باقةً من الأزهار وانطلقت إلى بيته، لم يتسنَّ لي أن أراه، جلست قليلاً مع والدته ثمَّ عدت إلى المنزل. مضى اليوم الثاني ولم يتَّصل أيضاً، اتَّصلت به، فشكرني على باقة الأزهار، وأخبرني بأنَّه ما يزال متعباً، وفي اليوم الثالث لم أتَّصل به ولم يفعل هو كذلك لكن حين أتى اليوم الرابع، انشغل بالي كثيراً، فعاودت الاتِّصال به، والجواب ذاته، متعبٌ ولا يستطيع الحراك!

في اليوم الخامس ومن غير أن أتَّصل به، اشتريت باقةً من الأزهار وانطلقت بسيارة أجرة إلى منزله كي أراه، فسيارتي في التصليح منذ عدّة

أيام بسبب تعطّل الفرامل. كنت متحمّسة للغاية، فقد حضَّرت له مفاجأةً جميلة، إذ إنّني أنهيت تنسيق صور الحفل ووضعتهم في ألبومٍ جميلٍ، وأردتُّ أن نستعرضهم معاً. وقفت أمام باب منزله واتَّصلت به كي أخبره بأن يفتح الباب فيراني. لكن حينما ردَّ عليّ، كان صوته جافَّاً، وطريقته في الكلام لا توحي بأي شوقٍ أو شغفٍ. لم أشأ أن يراني فتكون ردَّة فعله باردةً كصوته الجامد، أنهيت حديثي معه، وضعت الباقة أمام باب المنزل ومضيت بخيبتي.

وعندما خرجت لم أجد سيارات للأجرة، فمضيت ماشيةً من غير أن أفكِّر إلى أين ستقودني خطواتي، لكنَّه الشارع العام، لم أجد سواه، مشيت دون شعورٍ مني، وأجهشتُ بالبكاء.

أيعقل أن أندم منذ الآن! ظننت أنِّي سأعيش سعادةً على الأقل لبضعة أشهر. أهذا الذي خبَّأه آدم لي؟ الحزن منذ اللحظة الأولى! كلا، لا أستطيع أن أكمل معه إن كان الأمر على هذا النحو. لم أكن أظنُّ أنَّه بهذا القدر من الصراحة والمباشرة، اعتقدت أنَّه سيجاملني، سيتعامل معي بشكلٍ طبيعيٍّ، أمَّا أن يكون كارهاً لي ولرؤيتي إلى هذا الحدّ، فهذا ما لا أسمح به.

مضيت في طريقي، كانت الرياح شديدةً، وكادت حقيبتي أن تطير من يدي، تلك الحقيبة التي أحمل بها ألبوم الصور. سخرت من نفسي وأنا أتمسَّك بها، يا للغباء، بماذا أتمسَّك بالضبط؟!

إن كنت سأتركه حقَّاً، فمصير هذا الألبوم إلى القمامة. أكملت طريقي، وتذكَّرت كلمات عمر، وتحذيره لي. هل كان عمر محقَّاً، أم أنَّ الأمر لا علاقة له بخطيبته السابقة؟!

خطيبته! هي لم تكن خطيبته فقط، بل حبيبته، وكلّ شيء، أمَّا أنا فلا شيء. بكيتُ بحرقةٍ، وفجأة سمعت أحدهم ينادي: سلام، سلام!

استدرت خلفي، فوجدته أمامي، وجدت آدم يجري نحوي، حين وصل إليّ، أردت أن أتجاهله، ألّا أكلِّمه، ألّا أنظر إليه، لكنَّه ضمَّني إليه بقوَّةٍ، حتَّى اختفيت بين ذراعيه، كان يلهث كثيراً وكانت دقَّات قلبه متسارعةً إلى حدٍّ كبيرٍ.

أهو قلقٌ عليّ! لماذا أتى؟ وكيف عرف بمكاني؟ لماذا يحضنني الآن بعد كلِّ هذا التجاهل؟

لم أسأله أيَّاً من تلك الأسئلة، بل أخفيت وجهي في صدره، أمَّا هو فبعد أن عادت أنفاسه إلى حالتها الطبيعية، أمسك بي وقال:

- لا تخرجي بهذا الطقس السيء، هذا التصرُّف خطِرٌ جداً، قد تتحطَّم شجرةٌ أو ينهار عمودٌ هنا أو هناك، هيَّا اصعدي إلى السيارة حالاً.

لم أجبه، فأمسك بيدي وسحبني إلى سيارته، ربَّما لم ينتبه أنَّها المرَّة الأولى التي يمسك بها بيدي، لكنِّي انتبهت، كانت تقسيمات يديه رقيقةً جدَّاً، تلك اليد السمراء، لطالما تتبعت حركات أصابعه الطويلة حين يحادث عمر. نسيت كلَّ ما دار في خلدي قبل أن أراه، نسيت قراري بانفصالي عنه. فتح لي باب السيارة فجلست، وأسرع ليجلس مكانه، لكنَّه لم ينطلق حالاً، فحتَّى تلك اللحظة لم أكن قد تفوَّهت بكلمةٍ، ولا بدَّ أنَّه تنبَّه إلى ذلك. أمسك حافَّة ذقني بيده وأدار وجهي إلى ناحيته وقال:

- لماذا تبكين؟

أجبته بحزمٍ:

- أنا لا أبكي، دخل الغبار في عينيّ من كثرة الرياح.
- آه، غبار، حسناً.

سحب منديلاً من علبةٍ على المقعد الخلفي، ومسح دموعي ثمَّ أطال النظر لعينيّ، إنَّها المرَّة الأولى التي ينظر إليّ مباشرة، أدرت وجهي مجدَّداً إلى الناحية الأخرى، فأنا لم أغفر له بعد انعدام اهتمامه.

- هل أنتِ جائعة؟
- لا
- أترغبين في الذهاب إلى مكانٍ ما؟
- أريد الذهاب إلى المنزل.
- منزلي؟
- لا، بل منزل أهلي.
- أأنتِ متأكِّدة؟
- نعم، فأنت مريض على ما أذكر، ومن الأفضل أن ترتاح.
- لكنِّي تحسَّنت حين رأيتك.

لم أستطع إخفاء ابتسامتي من غزله المفاجئ ذاك، ضحك وسألني:

- ماذا تحملين في هذه الحقيبة؟ علبة شوكولا؟
- لا
- كتاب؟
- لا
- دفتر؟
- لا
- قنبلة؟

ضحكت ولم أتمالك نفسي، فأجبته:

- ألبوم صور.

انتظرته ليسألني أكثر، لكنَّه أمسك بالألبوم وقبل أن يفتحه سأل:

- هل به صورٌ خاصَّة أم أستطيع الاطلاع على كلِّ ما فيه؟
- افعل ما تشاء.

ونظرت إلى الجهة المقابلة وأنا أحاول الإبقاء على حزمي المزعوم. فتح الصور وراح يقلِّب في صفحات الألبوم وهو يلقي بكلمات الإطراء والإعجاب التي لم أسمعها منه حين رآني أمامه، لا بدّ أنَّه شعر بتقصيره فراح يستدرك خطأه. حاولت ألا أظهر اهتمامي، لكنَّه قال فجأة جملة ولم أفهم ما يقصد:

- زيتوني! أين الزيتوني؟

وضحك، فسألته:

- ما هو الزيتونيّ؟
- انسي الأمر، لقد كان فستانك الأخضر جميلاً.
- أخضر؟ أي فستان أخضر؟
- فستان حفل عقد القران!
- هذا فيروزيّ وليس أخضر!

ضحك مجدَّداً ومن ثمَّ قال لي:

- أيٌّ من هذه الصور أحببتها أكثر؟

لم أستطع أن أقرِّر، فلم أفكِّر بالأمر. ظهر آدم في أغلب الصور عابساً أو بنصف ابتسامة، فقلَّبت الصفحات، واخترت صورةً عشوائيَّةً لنا، كنَّا نجلس فيها على أريكة الكوشة وأشرت إليها:

- تلك!

- وما المميَّز بها؟

لم أعلم بماذا أجيبه، فقد كانت الصورة تعيسةً، حاولت تغيير الموضوع فسألته:

- بالمناسبة ذكِّرني ما اسم هذا الكوكتيل الذي كنَّا نشربه؟

ضرب يده على رأسه وهو يضحك وقال:

- كوكتيل؟ أي كوكتيل؟ هذا اسمه "شراب اللوز"
- تعادلنا إذن!
- والآن، ماذا تودِّين أن تأكلي؟ أشعر بجوعٍ شديدٍ.

فكَّرت قليلاً ولم أشأ أن أرفض طلبه، فأجبته بثقةٍ:

- شاورما، أحبُّها كثيراً.
- حسناً إلى أطيب محل شاورما في البلد، لكن لن نستطيع الجلوس هناك، فالمطعم غير مخصَّص للعائلات، والطقس سيء بالعموم.
- لا بأس، نأكلها في السيارة!
- يا سلام! وهكذا تكون أوَّل دعوة للغداء بعد عقد القران في أبريل، ما هذا الإبداع!
- نحن في يناير ولسنا في أبريل.
- أبريل اسم سيّارتي.
- آه فهمت!
- أتحبّ شهر ميلادك؟
- كثيراً.

وانطلقنا، أمضى الطريق وهو يدندن مع مسجّل الأغاني، شعرت كما لو أنَّه عاد إلى طبيعته المرحة، أسعدني ذلك جدّاً، كنت أودُّ لو يعاود تشبيك يده بيدي، لكنَّه لم يفعل، فيديه مشغولتان بقيادة السيارة، رحت أنظر إليه وقلبي يرقص فرحاً، ما أجمله حين يضحك ويبتسم!

وصلنا إلى المطعم، فطلب منِّي أن أنتظره ريثما يحضر الوجبات، وبسرعة البرق ذهب وعاد، حين جلس في مكانه لاحظت أنَّه لا يرتدي محبسه. نظرت إلى كلتا يديه وقطّبت حاجبيّ وعادت الغيمة السوداء فوق رأسي، شعر آدم بالأمر وأدرك سبب ذبولي فقال لي:

- خرجت مسرعاً خوفاً عليك، هذا كلّ ما في الأمر، لا تحزني!

وضع يده على رأسي، فسامحته فوراً ولم أشأ أن أعود إلى الكآبة، ثمّ قال لي:

- بالمناسبة، رائحة عطرك نافذة للغاية، لا تتعطري خارج المنزل.
- لِمَ لا؟

حرّك رأسه يميناً ويساراً ثمّ قال:

- لا يجوز يا حلوتي.
- عادات؟

رفع حاجبيه بظرافة وأجابني:

- لا، بل دين.

أومأت له، بينما خفق قلبي، وسألت نفسي: هل هو مهتمّ فعلاً لأمري؟ أيغار عليّ؟

آدم	مارس 2013

كان يوماً عصيباً بالنسبة لي كحال باقي الأيام، ضغط في العمل، ضغط من قبل أهلي وأهل سلام حول ترتيبات منزل الزوجيّة وغيرها من الأمور، وأخيراً الاستماع إلى سلام وأحاديثها التي لا تنتهي ورسائلها الكثيرة، ترسل تارة لتخبرني أنَّها استيقظت، وتارة بأنَّها ذاهبة إلى العمل، سترتدي اللون الأحمر اليوم، تتكلَّم معي في تفاصيل لا أفهمها، تحتاج إلى فتاة أخرى لكي تسمعها، لا أنا! تحادثني وتحادثني فأجيب بكلماتٍ مقتضبةٍ، تنهي المكالمة وتخبرني أنِّي مستمعٌ جيِّدٌ في نهاية كلِّ محادثة، أودُّ أخبارها بأنِّي لست ذلك المستمع الجيِّد ولكنِّي ما أزال في عالمٍ بعيدٍ عنها، عالم الأحلام الذي تكون جُمان هي البطلة فيه.

لو كانت تلك الرسائل من جُمان لكنت الآن ملكٌ على هذه الأرض ولكن للأسف حين كنت مع جُمان وكنت أشاركها تفاصيل يومي كانت ترى ألّا داعي لكلِّ تلك الرسائل وإضاعة الوقت، ولم تكن تبادلني هذه الرسائل إلا بردودٍ مقتضبةٍ جدّاً أو وجهٍ تعبيريٍّ.

انتهى هذا اليوم أخيراً، وبدأت بجولة في مواقع التواصل الاجتماعي، التي أفضّل تصفُّحها وقراءة الرسائل فيها في آخر الليل، حتى أتجنَّب

كثيراً من المقاطعات التي لا داعي لها، كنت أقلِّب الحالات بسرعةٍ إلى أن وقفت عند حالة لليلى يبدو أنَّ زواج يزن سيودي بها إلى الجنون، وهذا واضحٌ من الصورة أمامي والجملة المتبوعة بها، أردت إخبار والدتي أن تحادثها وتهدِّئ من روعها لربَّما تفهمها أكثر منِّي ولكن لم تكن والدتي في البيت، فقد كانت مدعوَّةً هي ورشا إلى اجتماعٍ نسائيٍّ عند أهل سلام، اتَّصلت بليلى ولم أنتظر عودة والدتي، وحين ردَّت على الهاتف كان صوتها كما لو أنَّها نائمة، وقالت:

- أهلاً آدم، أهذا أنت!
- نعم، ومن سيكون غيري مثلاً؟
- لا أحد، أصلاً لا يتذكَّرني إلا خائبو الرجا أمثالك، بما أنَّني المتعوسة.
- صدقت حقّاً، فقد التمّ المتعوس على خائب الرجا، نحن كذلك فعلاً.
- مهلاً، لكنَّك لم تعد خائب الرجا، لقد تطوَّرت حالتك إلى الأنانيّ، تماماً مثله.
- مثل من؟

- آدم لا تتظاهر بأنَّك لا تعرف عمَّن أتحدَّث، ومن غيره، ذاك الذي حلفت ألا أنطق اسمه بعد اليوم، ولكن هذا ليس غريباً عنكم أنتم الرجال جميعكم من طينةٍ واحدةٍ.
- كفاك حمقاً، أنا لست مثل يزن وما فعله بك لا يمتُّ لي بصلة، وعليك أن تتذكَّري أنَّ جُمان هي من تركتني وليس العكس.
- لكنَّك أنت من عقدت قرانك، ثمَّ ألا يحق للفتاة أن يكون لديها ظروف تمنعها من الارتباط في أوقاتٍ معيَّنةٍ؟
- تدافعين عنها وأنت مِن أشدِّ مَن حقد عليها بتخلِّيها عنِّي، أم أنَّك نسيتِ ذلك؟
- لم أنسَ، لكنَّك أصبحت أسوأ من جُمان بهذا الارتباط، وقاحتك بوزن مئة جبل، تكمل حياتك كأنَّ شيئاً لم يكن، وتعيش في العسل مع خطيبتك تاركاً خلفك بقايا فتاة، كانت تحبُّك ولا تزال تحبُّك.
- مهلاً، أأنت متأكِّدة أنَّنا نتحدَّث عن نفس الجُمان؟ أم أصاب الجنون ذاكرتك أيضاً فأتلفها؟
- اصمت تبّاً لك، لم أجن، نعم أتكلَّم عن جُمان نفسها، وإلا لِمَ لَمْ ترتبط الفتاة إلى الآن؟ هل فكَّرت بهذا يوماً؟

- لأنَّها ببساطةٍ لم تجد شخصاً يناسب أحلامها وطموحاتها الكبيرة.
- بل لأنَّها لم تتعلَّق بشخصٍ غيرك أيُّها المتعالي، على عكسك أنت.
- ليلى أرجوك، اتَّصلت بكِ كي أخفِّف عنك، فلا تقلِّبي المواجع عليّ أرجوكِ، لا ينقصني هذا الحديث ولا هذا النقاش، ومن أخبرك بالأساس أنِّي سعيد مع سلام؟! من أخبرك أنِّي أستمتع معها، من أخبرك أنِّي أقابلها بالأساس؟ ربَّما لا تصدِّقين أنَّ من شدَّة تعبي النفسيّ، مرضت بعد عقد قراني مباشرةً وبقيت لمدَّة خمسة أيَّام طريح الفراش لم أستطع فيها الحراك، لقد تسرَّعت باتِّخاذ القرار بالارتباط، لكن كان لا بدَّ من تلك الخطوة بعد ردِّ جُمان البارد، الردّ الذي عوَّلت عليه كثيراً، وظننت أنَّنا سنعود إلى بعضنا البعض، هي لا تريد العودة إلي، لِمَ لا تفهمون؟!

صمتُ، فأجابتني ليلى:

- عذرٌ أقبح من ذنبٍ، أنت بهذا أكثر سوءًا، أنت تخون الفتاتين معاً، مشاعرك المتضاربة هذه وحالتك المعقَّدة سبب في حزنهما، كيف تعلَّق فتاةً بك وما يزال قلبك في مكانٍ آخر؟ أجبني يا فيلسوف زمانك، ما ذنب سلام بماضيك الأسود المتعفِّن؟
- ذنبها أنَّها وافقت على الارتباط بي.

- وتقولها بملء فيك، ويلك ممَّا ينتظرك، ستحلُّ عليك لعنةٌ من السماء عاجلاً أم آجلاً!
- لن أردَّ على اتِّهاماتك وكلامك الجارح هذا، لا طاقة لي، أودُّ الاطمئنان عليك، أخبريني كيف حالك؟

وراحت تبكي بحرقةٍ، ثمَّ قالت:

- نزل خبر زواجه عليّ كالصاعقة يا آدم، لم يعد لديّ أي طاقة عقليَّة لتحمُّل ما يحدث.
- ليلى، استعيذي بالله من الشيطان الرجيم، أرجوك حاولي أن تتماسكي، حالتك تستدعي تدخُّل طبيبٍ نفسيٍّ.

ضحكت كالمجنونة وأجابتني:

- إذن احجز لنا موعداً جماعيَّاً فحالتك أصعب من حالتي.
- عدتِ إلى الهرج والمرج، سأنهي المكالمة، حاولي أن تكوني بخيرٍ.
- وأخيراً استطعت أن أصبَّ شيئاً من حقدي على هذه الدنيا على أحدهم.
- وكنت أنا الضحيَّة!
- ألست تدَّعي أنِّي أختك، تحمَّل إذن!

ودَّعتها وأغلقت الهاتف، ثمَّ تأمَّلت ما قالته، محقَّةٌ هي ليلى، كيف أخون الفتاتين بهذه الطريقة؟ لا بدّ أن تعرفا بما في قلبي، لكن كيف؟!

فكَّرت طويلاً بحالتي المعقَّدة، كما سمَّتها لي ليلى. أنا لستُ عاشقاً، ولا مرتبطاً، ولا خاطباً، ولا أعزباً، ولا متزوِّجاً ولا غير متزوِّجٍ، ولا أيّاً من هذه الصفات.

أنا بحالةٍ معقَّدةٍ!

وكي تصل هذه المعلومة إلى الفتاتين، يتوجّب عليّ أن أعترف لهما، لكن لن أقوم بذلك وجهاً لوجه، ولا برسالةٍ، ولا مكالمة. سأضع اعترافي على الفيسبوك، وأبرِّئ ذمَّتي، ولتفعلا ما تشاءان!

فتحت الفيسبوك وعدَّلت حالتي من "خاطبٍ" إلى "الحالة المعقَّدة"، وأقفلت جميع التعليقات على تلك الحالة. أقفلت هاتفي، صلَّيت العشاء وهرعت إلى رفاهية النوم، بعد أن أرحت ضميري الخرف.

سلام　　　　مارس 2013

كنتُ في جلسة تصويرٍ لمتجر ملابس، والتي تضمَّنت التقاط صور لأطفال يرتدون ملابس من بضاعة ذلك المتجر، قال لي صاحب المتجر بأنِّي أمتلك رؤيةً مختلفةً عن المصوِّرين التقليدين نظراً لطبيعتي المختلفة، وأثنى كثيراً على عملي. وفعلاً، كانت تلك الجلسة من أجمل جلسات التصوير التي حظيت بها على الإطلاق.

مع كلِّ بسمةٍ وضحكةٍ ولقطةٍ لطفل، كنت أتخيَّل أطفالنا أنا وآدم في المستقبل، فهذا المشاكس وتلك الخجولة، وذاك الأسمر الصغير، وكثير من الجمال والبراءة هنا وهناك. كنت في مزاجٍ رائعٍ، إلى أن أمسكت هاتفي أتفقَّده فوجدت رسالة من إحدى قريبات آدم، كتبت فيها:

ماذا حدث؟ لِمَ انفصلتما؟ أتَّصلُ بآدم منذ ساعتين ولا يردّ، هل من خطبٍ؟

انفصلنا؟ من انفصل؟ لم أفهم ما كتبت! أهي لغتي العربية التي لم تساعدني؟ أم أنَّها تمزح؟

أتممت عملي وأنا شاردة الذهن ومستاءة من تلك المزحة السخيفة، وما إن انتهيت من عملي حتَّى أرسلت إليها:

أهلاً عزيزتي، عن أيِّ انفصالٍ تتحدَّثين؟ مع كامل احترامي لكن أنا لا أحبّ المزاح في هذه الأمور!

وبعد دقائق عديدة أرسلت إلي صورةً لصفحة معلومات آدم الشخصية على الفيسبوك، لأجده قد غيِّر حالته الاجتماعية من "خاطبٍ" إلى "الحالة المعقَّدة"!

لم أصدِّق ما رأيته، وجزمت في بداية الأمر أنَّ حساب آدم ربَّما قد اختُرِق، فاتَّصلت به مباشرة، لكنَّه لم يرد. أرسلتُ إليه رسالةً عبر تطبيق الواتس آب:

- هل اختُرِق هاتفك؟

وبعد عشر دقائق من قراءته الرسالة كتب بها:

- أهلاً سلام، لا، لم يخترق أحد حسابي، ولا هاتفي!

قرأت رسالته تلك، فتجمَّدت في مكاني، إذن هو من غيَّر حالته تلك! وهو من لا يرد على اتِّصالاتي! ما هذه الحركات الصبيانيَّة! في هذه اللحظة قرَّرت الانفصال عنه نهائيَّاً، لستُ لعبةً بين يديه، لي مشاعري وكبريائي، لم تكن مشاعري تؤلمني بقدر ما كان كبريائي مكسوراً. إن كان يريد الانفصال، يستطيع أن يخبرني بذلك بشكلٍ مباشر، لا أن يكتب ما يريده كحالةٍ على الفيسبوك، ويعلم الجميع قبلي.

ما هذه الإهانة؟ أنا سلام التي لم تكن تعير أي بالٍ لنظرة المجتمع، بعد الذي فعله آدم بتُّ أهتمّ برأيهم عنِّي، ماذا سيقولون؟

أرسلت رسالةً إلى قريبته فحواها أنَّ ما حدث هو مجرَّد مزحة من صديق آدم الذي استولى على هاتفه لخمس دقائق، أمَّا عن عمر فهذا صديقه ليحصل على التبرير منه لا منِّي. حمدت ربي ألّا حسابات لأهلي على تلك المواقع. لطالما حاولت إقناع أمِّي أن أنشئ لها حساباً ولكنَّها كانت ترفض ذلك متذرِّعةً بأنِّي كافيةً لإدارة صفحة الفنون خاصَّتها، ولا تحتاج إلى أكثر من ذلك. فهي لا تقتنع بالحياة الاجتماعية الافتراضية وهذا ما أحمد ربي عليه الآن، كي لا ترى كيف تُهان ابنتها أمام الناس، وفي ظلِّ كل تلك الأفكار التي تلوح في دماغي رنَّ هاتفي، إنَّها والدته، الخالة هناء، في البداية ترددت في الرد عليها.

ترى ماذا تريد الآن؟ هل ستخبرني برغبة ابنها في الانفصال!

قلت في نفسي إن كان الأمر كذلك فلتنتهِ هذه المهزلة.

- أهلاً سلُّومة كيف حالك حبيبتي؟
- الحمد لله بخير.
- لا يبدو صوتك على ما يرام، إن كنت مشغولةً سأعاود الاتِّصال بك لاحقاً.

- لست مشغولة، تفضَّلي خالة!
- اتَّصلت لأخبرك أنَّه تمّ تأكيد موعد زفاف يمان ورشا، بعد أسبوعين من الآن، أنت أوَّل شخص أتَّصل به لأزفَّ له هذا الخبر الجميل.
- ألف مبارك يا خالة، أسعدني الخبر، أتمنَّى لهما كلَّ الخير، وأن يرزقا بحظٍّ وحبٍّ أوفر ممَّا كان من نصيبنا.

لم أستطع أن أكتم حزني، فأجهشت بالبكاء، صدمت خالة هناء فارتجف صوتها وهي تسألني:

- ما بكِ يا ابنتي؟ ماذا فعل آدم؟ أخبريني أرجوك؟
- أنا التي سأفعل يا خالة.

وشرحت لها القصَّة كاملةً، صمتت الخالة هناء ثمَّ أجهشت بالبكاء هي الأخرى، كم عيناً ستهمر الدموع لأجل جنونك يا آدم!

قالت لي وهي تحاول أن تستجمع كلماتها:

- سلام أرجوك لا تتركيه، لو رغب آدم بالانفصال حقَّاً، لفعل ذلك بشكلٍ مباشر وأنا متأكِّدة من أنَّه لم يتقصَّد إهانتك، ليست هذه من الطباع التي ربَّيت ابني عليها، هي حركةٌ صبيانيَّةٌ لا أكثر. صدِّقيني يا سلام، لم تكن تصرُّفات آدم بهذا الشكل

سابقاً، لم تكن مشاعره متضاربةً كما الآن، ولم أره يوماً يؤذي أحداً، أمَّا الآن فهو يتفنَّن بتعذيب نفسه وتعذيب من حوله ممَّن يحبونه بحقٍّ ووفاء، ولا يتخلّون عنه كما فعلت خطيبته السابقة، لا أرغب بالحديث عنها الآن فقد اتَّخذت طريقها وأدعو الله أن ييسره لها، لكنِّي أحزن على ابني الذي تعلَّق بها تعلُّقاً شديداً، آه يا سلام لو كنت هنا منذ خمس سنين.

أردت كسر الجو المشحون هذا والحزن الذي لديها فقلت لها:

- منذ خمس سنين كنت قاصراً لا أستطيع الارتباط بآدم!

ضحكت وقالت لي:

- أسعدك الله يا ابنتي لو تعلمين مدى معزَّتك عندي وعند والد آدم.
- ليت لي هذه المعزَّة في قلب آدم أيضاً!
- صدِّقيني إنَّك عزيزة على قلبه جدّاً، ولكن أرجوك اصبري عليه، فكِّري بالأمر مجدَّداً، ولا تتَّصلي به الآن، اتركيه لجنونه، وسيعود إلى الصواب أنا متأكِّدة، فقط اصبري عليه بضعة أيام.
- ما يحزنني يا خالة، أنّيِ لست كأي فتاة مخطوبة، فأنا قد عقد قراني للأسف، بسبب ظروف سفر والديّ.

- لا تقولي هذا! صدِّقيني من قلب أمٍّ أقول لك إنَّ هذا القران أفضل ما حصل لآدم.
- أتمنَّى ذلك، وأن يكون أفضل ما حصل لي أيضاً.
- سيكون بإذن الله، لا تنسي أنَّ دعواتي ودعوات والدتك لا تفارقكما وأنَّكما بارَّان بأهليكما.
- الحمد لله على هذا.

أنهينا المحادثة بعد أن وعدتها بالتروِّي قليلاً، وبقيت بعدها تتَّصل بي كلّ يوم لتهدِّئني، وترفع معنوياتي، وتقول لي أحلى وألطف الكلام، بينما اكتفى خطيبي و"زوجي المستقبلي" بإرسال الرسائل القصيرة وبعض الاتِّصالات المقتضبة وكأنَّ شيئاً لم يكن! حينها شعرت أنّ انتظاري لاعتذاره دون جدوى، واتَّخذت قراري بتركه قبل موعد زفاف رشا وإيمان، أساساً يستحسن ألّا أتواجد في الحفل، فبات الأمر سخيفاً ومحرجاً، بأن أمثِّل دور الخطيبة السعيدة!

وفي اليوم التاسع بعد فعلته تلك أرسلت إليه رسالةً مقتضبة فحواها:

- أودُّ أن أراك غداً في الساعة السابعة مساءً.

فأجابني:

- حسناً، أين؟

- اختر المكان الذي يناسبك.
- حسناً، نلتقي في مطعم برج الشمال.

آدم مارس 2013

قرأتُ الرسالة وكلّي ثقة بأنَّ سلام طلبت مقابلتي غداً لتطلب الانفصال عنّي، لا سيَّما أنَّ كلام والدتي يشير إلى أنَّها تعلم بالقصة كلّها، فقد أمضت الأيام الماضية كلّها وهي تنهرني بحزمٍ وغضبٍ وتكرِّر:

- ألا تملّ من تلك الحالات التي تعيشها؟ ألم تيأس من حبِّك الفاشل؟ ألم يكن واضحاً منذ البداية أنَّكما لا تناسبان بعضكما؟ في تلك الأيام لم أقف ضد رغبتك ولم أدع الله أن يباعد بينك وبين جُمان، بل سألت الله أن يختار لكما الخير، لكنَّها تركتك وسافرت، ثمَّ عاودت أنت المحاولة مراراً وتكراراً، فصدَّتك ولم تأبه بك ولا بمشاعرك، وها أنت الآن ما تزال مصرَّاً على هدم حياتك متعمِّداً بسبب قصَّةٍ تافهةٍ، أين أنت من تلك المصائب الحقيقية؟ هل هذا الرجل الذي ربيته؟ أدعو الله أن ينزعها من قلبك عاجلاً غير آجل.

لم أكن أردُّ ولا بكلمة، فهي محقَّةٌ بكلِّ حرفٍ تقوله، لكنّي لست سعيداً، كيف أتظاهر بشيءٍ لا أشعر به. سألت نفسي: هل انفصالي عن سلام سيريحني بالفعل؟ وهل هذا ما كنت أودُّ تحقيقه؟

ولِمَ اخترتُ للقائي معها المطعم الذي انفصلنا به أنا وجُمان!

ترى ماذا ستمزِّق هذه الأخرى؟ وماذا ستقول لي؟ كيف سترمي الخاتم؟ أسترميه على وجهي أم على الطاولة؟

ورحت أتخيَّل السيناريو السخيف الذي سيتكرَّر، ستتركني وسأُصدم عاطفياً، لكن هذه المرَّة لسببٍ مختلفٍ عن صدمتي بفقدان جُمان، فمن المؤلم أيضاً أن يتخلَّى عنك شخص كان يكنُّ لك المشاعر، وتتحوَّل مشاعره إلى عدم مبالاة، ويسأم منك ومن حالاتك. أمسكت هاتفي ورحت أقلِّب فيه، هل لديّ صور مع سلام؟

رأيت بضع صور، فتأمَّلتها وأنا أسأل نفسي: ترى هل كنَّا نناسب بعضنا؟

نظرت مليَّاً، لم أعرف الإجابة ولم تعد تهمُّني الإجابة بعد الآن، فسننفصل بعد ساعاتٍ معدودةٍ. رميت هاتفي جانباً ثمَّ انطلقت لأجهِّز نفسي، فسيصل يمان بعد ساعتين، وعليّ الذهاب إلى المطار لاستقباله، اتَّصلت خلال ذلك الوقت برشا للتأكُّد من الموعد فأعربتْ عن رغبتها في الذهاب معي، أخبرتها عن الموعد، وأغلقت الهاتف ولكنَّها ظلَّت ترسل إلي كثيراً من الرسائل عبر التطبيقات كلّها، فتارة تسألني عن رقم الرحلة، وتارة تغيِّر رأيها وتقرِّر عدم الذهاب لأنّها مشغولة بتحضير

طعام العشاء لخطيبها، وتارة تتراجع عن رأيها، لذا وبعد ساعة لم أعد أنظر إلى الرسائل مطلقاً، تجاهلتها ومضيت إلى المطار. أبقيت هاتفي مغلقاً كي أريح رأسي من أسئلتها، وانشغلت بعدها مع يمان إلى أن حلَّ المساء، أمضى معنا يمان بضع ساعات ثمّ فارقنا لزيارة خطيبته، أضحكني عندما رأيته متحمِّساً للذهاب، ولأوَّل مرَّة أراه منفعلاً إلى هذه الدرجة. كم يصنع الحبُّ المعجزات! يمان الهادئ، متبلِّد المشاعر، يبدو مثل الشعلة أمامي وهو يحضِّر نفسه للقاء خطيبته، بينما أنا فقد تحوَّلت إلى صخرةٍ جافَّةٍ صلبةٍ لا تتحرَّك.

قررت أن أنام مبكراً، ففي اليوم التالي ستكون لديّ معركة مصيريَّة، وعليّ أن أستجمع طاقتي النفسيَّة لتحمُّل الخسارة. أمسكت هاتفي كي أضبط المنبِّه، وأفتح رسائل رشا كي أزيل تنبيه الرسائل من التطبيقات وهنا كانت المفاجأة، وجدت رسالةً لم أكن قد تنبَّهت لها سابقاً، تلك الرسالة وصلتني منذ تسعة أيام، غريب كيف لم يصلني إشعارٌ بوصولها؟! لعلّي تجاهلته دون قصد! إنَّها من جُمان، كتبت بها:

- مرحبا آدم كيف حالك؟

توقَّف الدم في عروقي، وشعرت أنَّ قلبي قد وقع على الأرض ومن ثمَّ طار إلى السماء.

جُمان أرسلت إلي رسالة وتسأل عنِّي!

إنَّها المرَّة الأولى التي تراسلني بها بعد ارتباطي بسلام، أتراها ستبارك لي! أم أنَّها قرأت "حالتي المعقَّدة" فعلاً؟ ولديها ما تقوله؟

كنت على وشك الردِّ لكنِّي امتنعت، فأنا لا أستطيع تبادل أطراف الحديث معها. قلت في نفسي سننفصل أنا وسلام في الغد، لِمَ لا أنتظر يوماً للردِّ على جُمان، فبذلك، لا أخسر فرصة الحديث معها.

أغلقت هاتفي، وسرحت في أحلامي: أسنعود إلى بعضنا! أهي قدري فعلاً؟

سلام مارس 2013

لِمَ اختار أن نلتقي في مطعمٍ وهو على علمٍ بما سأقوله له؟ حتَّى القهوة، هل نستطيع احتساءها ونحن ننفصل؟! أم أنّه سيشرب مشروبه المفضّل –الشاي مع الحليب دون أن يبالي؟!

على الرغم من كوننا لم نرتبط إلا منذ شهرين، إلا أنّني حفظت معظم عادات آدم في الطعام، فهو يفضّل أن يأكل صحن السلطة كاملاً قبل أن يبدأ بوجبته الرئيسية، على عكسي، فأنا أحبّ أن أناوب بينهما. وبعد الغداء يحبّ آدم أن يشرب الشاي، وفي كثيرٍ من الأحيان يضيف إليه الحليب. كنت أعتقد أنّه يعشق القهوة، لكن تبيّن لي أنّه يشربها مرّة واحدة في الصباح، ولا يبالي بنوعها، ولاحظت أنّه لا يهتمّ بطعام الفطور، وفي المساء نادراً ما يأكل وجبة دسمة، يحبّ المعجنات والخبز كثيراً ومع ذلك يبقى نحيفاً. تساءلت: تُرى هل يعلم آدم ما أفضّله وما أحبّه؟! أشكّ بذلك بل أكاد أجزم أنّه لم ينتبه لأيٍ منها.

كنت أفكّر بحزن وقبل أن يحين موعدي مع آدم، تذكَّرت أمنيةً لي، فقلت في نفسي، لعلّي أحقّقها قبل أن أنفصل عنه، اتَّصلت به قبل ساعةٍ من موعدنا، وقلت له:

- أهلاً آدم، كيف حالك؟ الموعد على ما هو عليه، لكن هلَّا ذهبنا بالدرَّاجة الناريَّة؟ نعم أريد ذلك، إلى أي مكانٍ، حسناً، سأنتظر اتِّصالك وأنزل حالما تصل، مع السلامة.

كثيراً ما تمنَّيت أن أركب الدراجة الناريَّة لكن لم تقبل والدتي ولن تقبل إطلاقاً، لذا ففرصتي اليوم هي الأخيرة ولا أودُّ إضاعتها، لعلِّي أحصل على ذكرى جميلة معه قبل انفصالنا بساعات. انتظرته وما إن وصل حتَّى نزلت بسرعةٍ، وسألته:

- لقد تأخَّرت، هل هنالك خطبٌ ما؟

أجابني وهو يترجَّل عن الدراجة:

- لا إطلاقاً، لكنِّي ذهبت إلى السوق لشراء خوذة لك.

خفق قلبي، هل تذكَّر آدم أنَّ هنالك فتاة اسمها سلام وتحتاج إلى الخوذة؟ لكن يا للهدر، لن ألبسها إلا هذه المرَّة يا آدم. لم أستطع أن أكتم شعوري فقلت له:

- أعتقد أنَّها باهظة الثمن، لم يكن من الضروري أن تشتريها.

أجابني وكما لو أنَّه فهم ما أقصد:

- لا عليك، ستكون ذكرى منِّي.

ذكرى! إذن فأنت تعلم بكلِّ شيءٍ يا آدم!

ناولني إيَّاها، وحين شرعت بارتدائها، انتبه إلى ملابسي، فقال:

- لِمَ ترتدين بنطالاً ضيِّقاً؟

استغربت من سؤاله، فلم يسبق وتدخَّل بملابسي أو علَّق بمدحٍ أو ذمٍّ:

- أهو كذلك فعلاً؟
- نعم، ملابسك كلّها ضيِّقة على غير عادتك!
- لقد ارتديت هذه السترة الجلدية والبنطال كي تناسب ملابسي ركوب الدراجة النارية.

لم يرد، فخفق قلبي للمرَّة الثانية، إذن فهو يعلم ما ألبس ويرى! لم أكن أعتقد أنَّه ينتبه أصلاً إلى شكلي، لكن مهلاً، لم تكن خطيبته السابقة محجبَّةً بالأساس، أهي غيرة أم ماذا بالضبط؟

فكَّرت بخيبتي وأنا أقارن نفسي بخطيبته السابقة، كم أنا مثيرة للشفقة؟!

وأثناء ذلك أنهيت ارتدائي للخوذة، بعد مساعدته لي، فالخوذة ثقيلة وكبيرة. لاحظت أنَّه تعمَّد ألا ينظر إلى عينيّ حين كان يضبط لي مقاس الخوذة، بل كان يتهرَّب منِّي، وحين أصبحنا جاهزين، امتطيت الدراجة وجلست في المقعد الصغير الخلفي، فقال:

- تمسَّكي بي جيِّداً، ولا تفلتي يديك إطلاقاً.
- حسناً.

وطوَّقت خصره بذراعيّ، وانطلقنا، لم يخبرني إلى أين يمضي ولم أسأله. فلا يهمّ أين سنمضي، إن كنَّا سنفترق بعد قليلٍ إلى الأبد.

أسندت رأسي على ظهره، وراح قلبي يودِّعه، أودِّع صاحب الحالة المعقَّدة، الذي لم يستطع أن ينسى حبَّه السابق، وتركني أرى تقلُّباته بعينيّ، دون أن يواري، أو يتظاهر بعكس ما يشعر! لم تكن بحاجة إلى أن تكون صادقاً إلى هذه الدرجة يا آدم! لو أنَّك كذبت عليّ!

كتبت له بطرف إصبعي على ظهره "وداعاً آدم"، فسألني:

- ماذا تفعلين؟
- وجدت شيئاً على سترتك فأزلته.

صمت ولم يجبني، كان كئيباً كعادته. فسألته:

- بالمناسبة ما اسم درّاجتك؟
- زئبق.

أجابني وبالكاد سمعت صوته بسبب صوت الأغاني الصاخبة التي تخرج من مسجل صوت صغير ثبَّته على دراجته الناريَّة. رحت أدندن مع تلك الأغاني وحين وجدني مندمجةً، رفع صوت المسجِّل أكثر وراح يتراقص بالدراجة يميناً ويساراً، ثمَّ رفع صوته وهو يغني، وقال لي:

- غنّي بصوتٍ مرتفعٍ واصرخي، أفعل ذلك حين أشعر بالضيق.

وفعلاً، رحت أقلِّده، وأصرخ معه بأعلى صوتي. كان ذلك ممتعاً للغاية، لكنِّي لم أعتد هذا النوع من التهوُّر يوماً، لذا شعرت فجأة بالغثيان الشديد بسبب الحركة اللولبية للدراجة، فقلت له:

- آدم أرجوك، أوقف الدراجة أشعر بالدوار والغثيان.

أوقفها حالاً على طرف الطريق السريع، ثمَّ ساعدني على النزول وخلع الخوذة.

- أأنتِ بخير؟ أرجوك تماسكي!

سألني بصوتٍ مرتجفٍ، لم أستطع أن أجيبه، فقد كانت الدنيا تدور حولي، أخرج زجاجة مياه من صندوق دراجته، وناولني إيَّاها، وقال:

- اغسلي وجهك واشربي قليلاً من الماء، لعلَّك تشعرين ببعض الراحة.

لم أستطع أن أمسك بالزجاجة فقد كنت على وشك أن أتقيَّأ، فوضع قليلاً من الماء على راحة كفِّه ومسح لي وجهي، حينها أملت رأسي على كتفه كي أستجمع قواي، مرَّت بعدها خمس دقائق، شعرت خلالها ببعض التحسُّن، فرفعت رأسي لأجده ينظر إليّ بوجهٍ مُصفرٍّ، ويقول:

- سلام! هل أنت بخيرٍ فعلاً؟
- لا تقلق، تحسَّنت حالتي.
- أعتقد أنَّ الخوذة سببت لك نقصاً في الهواء، فأنت لست معتادةً عليها.
- أنا آسفة آدم.

- لا تعتذري، أنا من عليّ الاعتذار، لقد بالغت في تمايل الدراجة، اعذريني أرجوك.

نظرت إلى عينيه وهو خائفٌ وقلقٌ، كانتا تلمعان بجمالٍ لم أر له مثيلاً في حياتي كلّها، أجبته:

- أنا بخير، دعنا نكمل الطريق.
- لا، لن نستطيع الذهاب إلى أي مكانٍ، أنت لست بحالةٍ جيِّدةٍ الآن، علينا أن نعود حالما ترتاحي، وإن لم تتحسَّني، سأطلب سيارة أجرة ونعود معاً.

لم أجبه، جلسنا على طرف الطريق، فقال لي بعد عشرة دقائق من الصمت وهو ينظر إلى السيارات المسرعة في وسط الطريق المظلم:

- سلام، أنا أسمعك، أخبريني بما تودِّين قوله.

كان آدم ينتظر سماع قراري بالانفصال، ارتبكت ولم أعلم كيف سأجيبه، أحقّاً سأنفصل عنه! وكما لو أنَّ لساني قد عُقد، وجوارحي تجمَّدت، واستلم قلبي زمام الأمر وفرض سيطرته عليّ بالكامل، فلم أردّ، انتظر آدم قليلاً ثمَّ أكمل:

- سلام، لا تقلقي عليّ، اعتدت الأمر، أنت تستحقِّين السعادة و...

لم أشأ أن يكمل هذا الموال، فقطعت حديثه ورحت أتحدَّث عن آخر فيديوهات للكوميديان الذي نحبُّه أنا وآدم، منذ عشرة أيام لم نتحدَّث بتلك الأمور التي اعتدناها قبل حالته المعقَّدة تلك، أراني بعض المقاطع الجديدة على هاتفه، وبعدها فتح لي بعض صور للديكورات المنزليَّة التي وصلته في الآونة الأخيرة من صديق والده، تحدَّثنا عن أمور عديدة، إلا عن إهانتي، وتجنَّبنا الحديث عن حالته الاجتماعية البائسة تلك، أمَّا هو فقد كان كالطفل المذنب، الذي يشعر بخطئه لكن لا يملك الجرأة للاعتراف به، ولا يتحمَّل مسؤوليَّة فعلته، وبعد أكثر من نصف ساعة، أمسك يدي، شعرت كما لو أنَّه يقول لي "لا تتركيني" لكنَّه لم يقلها، ارتبكت فقلت له:

- أشعر أنِّي بخيرٍ الآن، دعنا نكمل طريقنا.

نظر إليّ باستغرابٍ، ونزل عند رغبتي، وقال:

- كما تشائين، لكن لا تلسبي الخوذة، ستكون الآن أكثر ثقلاً على رأسك، أخشى أن يتكرَّر ما حدث قبل قليل.
- لكن ذلك خطر!

حملني حينها، وأجلسني أمامه، كأميرةٍ تمتطي حصاناً أبيضَ مع أميرها، وقال:

- سأحميك، ابقِ بين ذراعيّ ولا تتحرَّكي إطلاقاً.

خفق قلبي للمرَّة الثالثة، لكن هذه المرَّة استمرَّ بالتسارع، ففعلت ما قاله لي، كما لو أنَّني تحت تأثير تنويمٍ مغناطيسيٍّ. دسست رأسي بين كتفيه. كانت دقَّات قلبه كفيلةً بأن توقعني في حبِّه أكثر! كانت كفيلةً بأن أغيِّر أنا حالتي.

ما أجملك يا آدم، أنت وحالتك المعقَّدة، تقسو بحنانٍ، تهتمُّ بعدم اكتراث، تتناسى بحبٍّ، تجرح وتداوي، كيف سأتركك يا آدم؟! لِمَ تجعل الأمر مستحيلاً عليّ؟

آدم مارس 2013

حين عدتُ إلى المنزل في ذلك اليوم كنت سعيداً بمرافقتها لي، شعرت براحةٍ حين كنَّا نغنِّي معاً، ونصرخ معاً، ونضحك معاً. لم تعفني سلام -كما كنت أظنّ- من مهام الخطيب الحالي، وزوج المستقبل، بل أبقت عليّ، وإلى الآن لا أعلم لماذا بالضبط، فمن الواضح أنِّي أطفأت جذوة الحبِّ التي في قلبها بسبب تصرُّفاتي الخرقاء، لا أعلم فيما إن أسعدني الأمر أم أحزنني، ولا أعلم لماذا عاملتها بهذا اللطف! ولماذا حاولت التودُّد إليها بعدما فعلته بها؟

وقبل أن أغفو في تلك الليلة، أمسكت هاتفي ورددت على رسالة جُمان بكلماتٍ مقتضبةٍ:

- بخيرٍ، ماذا عنكِ؟

ردَّت مباشرة:

- لم يتغيَّر وضعي!

وكأنَّما تشير إلى أنَّ وضعها الاجتماعيّ لم يتغيَّر بعد، لم أسهب وأجبتها:

- جيِّد! آمل أن تبقي بأفضل حال.

آدم مارس 2013

بعد يومين من زفاف يمان ورشا، أقام والداي حفلاً للعائلة في صالةٍ صغيرةٍ، لنبارك للعروسين، ونودِّعهما قبل سفرهما. حين وصلت سلام مع والديها كانت بأبهى حلَّتها، قضيت معها وقتاً ممتعاً، وكان الجميع سعيداً باجتماع كنتيّ والدتي: سلام ورشا.

في بداية الحفل، كانت سلام منشغلةً بالتقاط الصور للعروسين، لم أجلس معها كثيراً، ورحت أتأمَّلها وهي تتحرك كالفراشة، تجامل هذا وتتحدَّث مع تلك. فتاةٌ إيجابيَّةٌ ومفعمةٌ بالحيويَّة، حلوة الروح والمظهر، وهبتني قلبها، وأحبَّتني رغم عيوبي وجنوني، وأنا بالفعل أكون سعيداً بوجودي معها، وأستطيع أن أكون أنا كما أنا، دون أن أتظاهر بشخصيَّةٍ مختلفةٍ لأرضيها. تساءلت: ما الذي ينقصها بعد كي تحظى بحبِّي؟ عاودت تأمُّلها وهي تركِّز في الكاميرا، إنَّه قلبي يا سلام، ما يزال قابعاً هناك، في مكانٍ بعيدٍ، وتفصلني عنه آلاف الأميال، عليّ أن أسترجعه أوَّلاً، وحينها سأهبه لكِ. اتَّجهت نحوها وأنا أفكِّر بتلك الأفكار ومددت لها يدي، وقلت لها:

- آنستي الجميلة، هلَّا سمحتِ لي بالتقاط صورة معك؟

احمرَّت من الخجل وأومأت إلي بالإيجاب، ثمَّ ثبتت الكاميرا على حاملٍ كان معها والتقطت بضع صورٍ لنا معاً، وقبل أن تزيل الحامل نادت رشا وبيان، وطلبت منهما الحصول على صورةٍ جماعيةٍ لنا نحن الأربعة، رأيت والدتي وهي تنظر إلينا وعيناها تفيض سعادة. كانت سعادتها تلك كفيلة أن تبهجني لأيام.

أمضينا وقتاً ممتعاً، وبعدها جلستُ بجوار عمِّي -والد سلام- الذي كان يتحدَّث مع والدي في تلك الأثناء، فربَّت على كتفي وقال:

- ألف مبارك، والعقبى لك إن شاء الله.
- شكراً لك يا عمِّي.

فقال لي والدي:

- كنَّا نتحدَّث أنا والسيد حِسان حول زفافكما أنتَ وسلام، ما رأيك أن نقيمه في شهر مايو المقبل؟ بيتك جاهز ولا داعي للتأجيل.

صدمت لما سمعته، لم يكن من المقرَّر إقامة الزفاف بهذه السرعة، كيف يقرران ذلك دون الرجوع إليّ؟! لم أعلِّق ولم أسأل، فأنا لا أريد أن أرتكب أي خطأ أمام عمِّي، أجبتهما بارتباكٍ واضحٍ:

- إن شاء الله!

زفاف! صمت وانتظرت إلى أن نعود إلى المنزل!

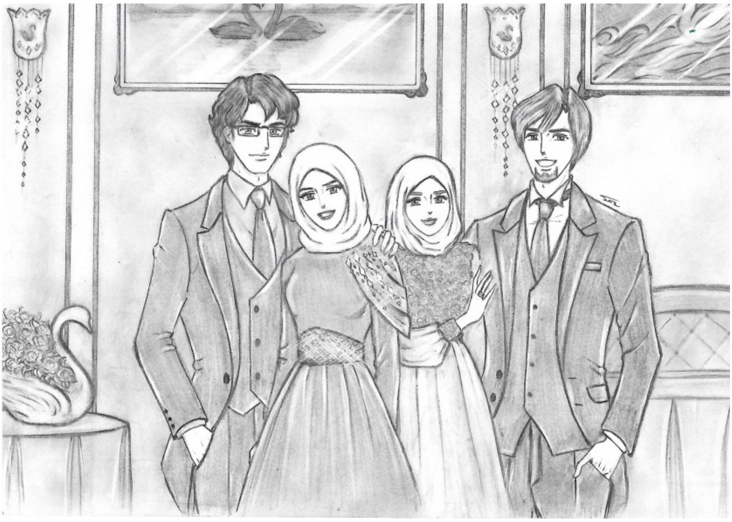

آدم	أبريل 2013

منذ أن ارتبطت بسلام والمفاجآت لا تتوقف! في البداية عُقد قراننا على عجالةٍ، والآن يفاجئني والدي برغبة والد سلام في تسريع حفل الزفاف، بسبب ظروفه الصحيّة، لم أكن أعلم بالفعل أنّ مرضه سيءٌ لهذه الدرجة، أحزنني الأمر، والأسوأ من ذلك كان علينا أن نبقي هذا السبب سرّاً وألا تعلم سلام عنه شيئاً. وكان عليّ أن أمثّل دور العريس الذي يتعجّل زفافه.

كيف سأتظاهر بذلك؟! كيف سأخبرهم أنّي لست مستعدّاً لهذه الخطوة بعد!

وخلال أيام بتَّ والدي ووالد سلام بموعد الزفاف، ولم يبقَ لي سوى الإذعان لقرارهما. ومنذ ذلك الحين والجميع يحضِّر نفسه على قدمٍ وساقٍ، وأولهم العروس، فقد أسرعت بشراء فستان الزفاف من كندا، ولم تستطع السفر بنفسها، لذا طلبته عبر البريد. كانت سلام تعدُّ الأَيَّام بشغفٍ وابتهاجٍ، بينما كنت أعدّها بذعرٍ وذهولٍ، فكلُّ يوم يقربني من اللحظة التي سأرغم بها على العيش مع فتاةٍ لم أحبّها ولم أبادلها أي شعورٍ

مميَّز بعد. كيف سأعتاد الأمر؟ كنت أتساءل: كيف سأستطيع خيانة جُمان؟ هل سأتزوَّج حقَّاً؟ وأترك جُمان ورائي، وكلّ ما يتعلَّق بجُمان؟!

أعلم أنِّي غبيٌّ وأحمقٌ، لا أفكِّر إلا بما ينقصني ولا أريد إلا من نستني. كان قلبي يرتجف رعباً حين أفكِّر بالورطة التي ستغدو حقيقةً وواقعاً بعد عدّة أسابيع.

فتاةٌ كسلام، تستحقُّ من هو أفضل منِّي بمئات المرَّات، لكنَّها هي الأخرى غبيَّة باختيارها الأعمى لي. وقبل حفل الزفاف بأسبوعين، اتَّصلت سلام بي:

- آدم، لقد وصل ثوب الزفاف، لا أعرف من أين سأستلمه، هل نذهب معاً؟ وهنالك كثير من الصناديق التي ستصل معه.
- صناديق؟
- نعم، لقد طلبت كثيراً من الحاجيات لي.
- آه فهمت.
- آدم، ما بك؟
- لا شيء، سأمرُّ على الاستيديو وننطلق عند الساعة الواحدة بعد الظهر، اتَّفقنا؟
- حسناً، سأنتظرك بفارغ الصبر، أنا متحمِّسة جدَّاً لرؤية الفستان.
- في أمان الله.

وبالفعل، ذهبنا معاً واستلمت كلَّ ما وصلها من كندا، عندما وصلنا إلى منزلها لم تقبل والدة سلام إلا أن أشاركهم طعام الغداء، فلم أشأ أن أرفض طلبها.

وضعتُ الصناديق في غرفة سلام، ثمّ جلست في غرفة الجلوس ورحت أقلِّب في هاتفي، لأراجع مواعيد استلام البطاقات، وتفاصيل المواعيد المتعلِّقة بما تبقَّى من أثاث المنزل وما إلى ذلك.

في تلك الأثناء أتت حماتي إلى غرفة الجلوس لتردّ على الهاتف الأرضيّ، وبينما كانت تتحدَّث نادتها سلام مرات عديدة، ماما ماما، ماما، ماماااااا، فأشارت إلي حماتي لأرى ما بها، ريثما تنتهي من مكالمتها، لأنَّ وتيرة النداء من قبل سلام في ازدياد، ويبدو أنَّها لن تيأس من النداء.

ذهبت إلى الردهة، حيث مصدر الصوت، وما إن رأتني سلام حتَّى صرخت بأعلى صوتها:

- لاااااااااااااا

- ما بكِ سلام؟

جرت بسرعة عائدةً إلى غرفتها وهي تقول بفزعٍ:

- لا، هذا سيءٌ للغاية! لا يجب أن ترى فستان الزفاف!

أيّ فستان وأي زفاف، أنا لم أنتبه أصلاً أنَّ ما ترتديه كان فستانها الأبيض، فالردهة مظلمة بعض الشيء. مضت عشر دقائق ثمّ أقبلت إلى غرفة الجلوس وعيناها منتفختان ويكسو وجهها الحزن الشديد، سألتها:

- ما بكِ سلام؟
- هذا فألٌ سيء، يجب ألا تراني بفستان الزفاف.
- سلام، هوني عليك الأمر، لم أره بشكلٍ واضحٍ صدِّقيني.

أدمعت عيناها مجدداً، فاقتربت منها، وسألتها باستغرابٍ:

- أتصدِّقين هذه الخرافات فعلاً؟
- لا أعلم، لكن لا أرغب بأيِّ فألٍ سيءٍ. اصدقني القول آدم: هل رأيت الفستان؟

تنهّدت ولم أجبها، بينما راحت حماتي تهوّن عليها الأمر وتقنعها بألّا تنغصّ فرحتها بهذه الخرافات.

بقيت أتأمّلها بهدوءٍ وأنا أتساءل: أكلُّ هذه الدموع، خشية أن نفترق؟!

آدم مايو 2013

انتهت مراسم الزفاف، تساءلت ونحن في طريقنا إلى المنزل: أحقَّاً مضت حفلة زفافي بهذا الشكل! رغم أنِّي لم أتواجد كثيراً أثناء الحفل إلا في اللحظات الروتينيَّة، إلا أنَّه كان مؤلماً لقلبي!

في البداية دخلنا أنا وسلام بخطواتٍ هادئةٍ وكأنَّنا في حالة استعراضٍ مع نغمات الموسيقى التي أشعرتني كما لو أنَّني متَّهمٌ يُساق إلى محكمةٍ في القرون الوسطى! تغيَّرت تلك الموسيقى ذات الرهبة لتصبح أغنيةً صاخبةً تتحدَّث عن عروس وعريس وسعادتهما بهذا اليوم الذي لطالما حلما به، فتكرَّرت تلك الكلمات بشكلٍ إيقاعيٍ مملٍّ:

سعادة، حب، حلم، حلم، حلم...

لا لم يتحقَّق حلمي، لِمَ عليّ أن أرقص طرباً؟

كلمات خنقت روحي وذكَّرتني بالماضي، وضعته نصب عيني فشوشت أمامي كلّ ما هو جميل. حاولت جاهداً أن أتظاهر بالحماسة والسعادة ولا أعلم إن كنت قد أفلحت في ذلك أم لا، بينما كانت تلك المشاكسة تقفز أمامي من سعادتها بي، سعادتها بأنَّها مع هذا الذي لا يستحقَّها حقَّاً. كان عليها أن ترفض طلب زواجي منها، وتنتظر لتقابل شابَّاً يحبُّها

ويعشق جنونها. العشرات من الشبان كانوا ليقعوا في حبِّها بسهولةٍ، إلا أنَّها تخلّت عن كلِّ شيءٍ، واستغنت عن كلِّ من حولها، لتحظى بآدم!

آدم الذي لم يندمل جرحه بعد، وما يزال خيال الماضي يلوح له! لِمَ أنا مغفَّل إلى هذه الدرجة؟ كنت أتساءل بينما وصل البرنامج الروتيني إلى مرحلة تقطيع كعكة الزفاف، وضعت سلام يدها على يدي لنقطِّعه معاً، وكأنَّنا في تلك الحالة سنظهر بأقصى حالات الرومانسيَّة!

أصرَّت المصوِّرة بعد ذلك على التقاط صورةٍ ونحن نقضم قطعة من الكعكة معاً، وتلك المشاكسة ورغم كعبها العالي، كان من الصعب عليها أن تحقِّق ذاك المطلب، وأنا من شدَّة شرودي وبرودي لم أتنبه ولم أنحنِ، فبقي ظهري مستقيماً إلى أن لوَّحت لي المصورة بأن أميل قليلاً.

راقصت بعدها والدتي، ولعلّ تلك اللحظات كانت الأجمل في زفافي، والدتي التي كانت سعادتها بي لا توصف، مما أراح قلبي بعض الشيء.

وبعد سلسلةٍ طويلةٍ من الخطوات التي كان علي أن أتمَّها، تحرَّرتُ من صالة النساء مؤقَّتاً، فقد عدت بعد ساعتين لأتمَّ مراسم حفل الزفاف المملّة تلك!

للصدق، لم تكن مملّة، أعلم أنَّني كنت سأعشق تلك التفاصيل وسأعيش تلك اللحظات بكلِّ ما أوتيت من قوَّةٍ وسعادةٍ، فقط لو كانت جُمان معي.

على أي حال، كان الشوط الثاني في الزفاف أسهل، وبات عدد الجمهور أقلّ وحماسته قد هدأت، إلا سلام، لا تتعب!

رافقني في الشوط الثاني والدي ويمان الذي وصل مع رشا قبل يومين من حفل الزفاف خصيصاً ليشاركانا فرحتنا! وضعت سلام حجابها والتقطت المصوِّرة صوراً للعائلة. وبعد أكثر من ساعة انتهى الحفل.

وحين وصلنا إلى المنزل، كانت سلام تقفز بكعبها العالي هنا وهناك برشاقةٍ وخفَّةٍ ونشاط، أمَّا أنا فقد كنت متعباً إلى أبعد حدٍّ. ففككت ربطة عنقي، وأنا أخبرها بأنَّ حفل الزفاف كان جميلاً، لكن كانت كلماتي رسميَّةً بشكلٍ لا يُطاق، وشعرت أنَّ هذا السياق ليس طبيعياً في هذا الوقت، ورغم ذلك ظلَّت سلام تستمع إلى كلماتي التي لا معنى لها الآن بكلِّ إنصاتٍ.

آدم مايو 2013

كنت جالساً على كرسيٍّ في زاوية بعيدةٍ بينما تقف جُمان أمامي تحاول استرضائي بكلماتٍ عهدتها منها قبل أن ننفصل، أخبرتني أنَّها كانت وما تزال تحبُّني ولم تنسني ولو للحظةٍ واحدةٍ، وطلبت السماح منِّي مرَّاتٍ عديدةٍ، ثمَّ مدَّت يدها إليّ لأذهب معها إلى حيث ننتمي. وبالفعل، مددت يدي إليها ولكنِّي لم أعر انتباهاً إلى قطَّةٍ تقف في الزاوية المعتمة، وما إن رأتني أمدُّ يدي إلى جُمان حتى هجمت عليّ، آذت يدي وجرحتها ثمَّ ما راحت تلعقها وكأنّها تعتذر عن تصرُّفها، في غضون هذا اختفت جُمان ولم أستطع الإمساك بيدها، فرأيت نفسي أناديها: "جُمان! جُمان!" لكنَّها لم تعد، بينما بقيت القطة في حجري تلعق يدي، فرحت أربتّ على ظهرها ودموعي تنهمر من عينيّ.

صحوت فجأةً من ذاك المنام وأنا أشعر بضيقٍ في صدري، وعدت إلى الواقع، كانت الساعة السادسة صباحاً، وجدت سلام بجانبي، تساءلت بقلقٍ: ترى هل شعرت سلام بدموعي! هل ذكرت اسم جُمان بينما كنت نائماً؟ ويلي إن كنت قد فعلت.

لم أفكِّر كثيراً بل عاودت النوم إلى أن أيقظتني سلام على رائحة القهوة وصوت فيروز ووجهها الحسن، ارتبكتُ حين تذكَّرت حلمي وهذياني، لذا لم أكن أعلم ما الموضوع الذي يجب عليّ فتحه مع سلام!

أرادت سلام كسر ذلك الجليد، ففتحت هاتفها لترى من بارك لنا، وفي أثناء التصفُّح قالت لي:

- آه إنَّها ليلى، نشرت صورة لنا نحن الثلاثة من ليلة البارحة، ولهذا تصلني كلُّ هذه الإشعارات منذ الصباح، فالجميع يبارك لنا.

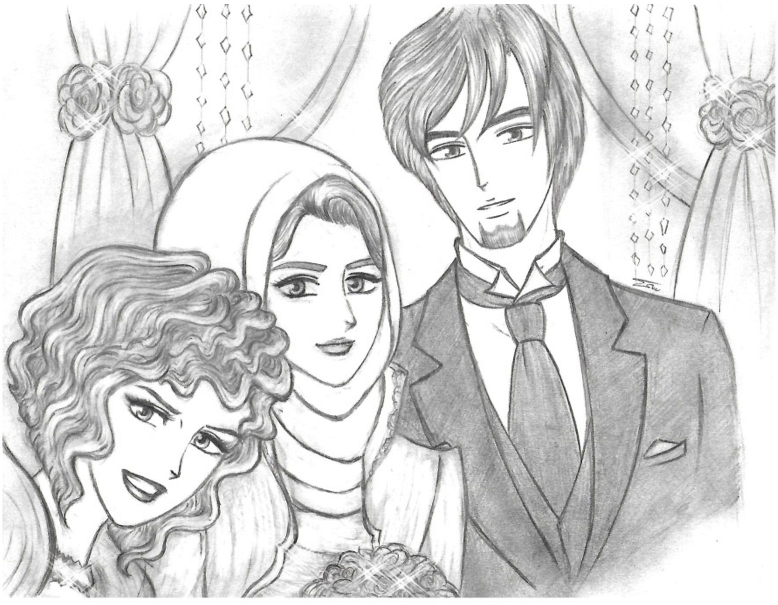

لم تنهِ سلام جملتها حتَّى جنَّ جنوني، فصرخت وأنا في قمَّة غضبي:

- ومن سمح لكما بالقيام بعملٍ طائشٍ كهذا؟ لِمَ هذه التصرُّفات؟ من ترغبن بغيظه بصورةٍ كهذه؟

أمسكت هاتفي ورحت أقلِّب فيه بيدين مرتجفتين لأرى ما رأته جُمان ليلة البارحة، لا بدَّ أنَّها علمت بأمر زواجي من تلك الصورة. كم أنتِ لئيمة يا ليلى، أما تزالين تحقدين عليها!

رأيت الصورة، فازداد غيظي واتَّصلت بليلى حالاً، لم تجبني، فهي تعلم أنِّي غاضبٌ منها أشدّ الغضب، أرسلتُ إليها رسالةً والنيران تأكلني من الغيظ، وكتبت فيها:

- ليلى، امسحي الصورة حالاً، وحسابي معك فيما بعد!

كنت أرعد وأبرق من الغضب، بينما تسمَّرت سلام في مكانها ولم تتفوَّه بكلمةٍ، ولكنَّها في هذه المرَّة كابرت ولم تسمح لدموعها بالنزول، بعدها دخلت غرفتنا بكلِّ هدوء وأغلقت على نفسها الباب، جلست أفكِّر فيما حدث، لم تمهلني سلام كثيراً من الوقت للتفكير فقد خرجت في أبهى حللها وطلبت مني أن أغيِّر ملابسي، فيجب علينا الذهاب إلى منزل أهلي لأننا سنجتمع معهم ومع والديها أيضاً ونودعهم جميعاً قبل سفرنا مساءً إلى شهر العسل.

لم نتحدَّث طوال الطريق، وضعت سلام بعض الأغاني الأجنبيَّة وراحت تدندن معها، ما أبهرني حقَّاً هو تصرُّف سلام فلم تفارق الابتسامة شفتيها، لكنَّها كانت تتجنَّبني.

كم أنتِ قوية في داخلك يا سلام وكم أنا مهزوز!

شعرت بسخافتي وتفاهة ما قمت به منذ قليل، فحاولت أن أسترضيها، لكنَّها لم تدع لي مجالاً مطلقاً، فتقصَّدتْ أن تتواجد حيث الجميع وألا يتسنَّى لي الانفراد بها كي لا نتحدَّث بما جرى.

بعد أن أنهينا تناول الطعام، وبينما كنَّا نحتسي الشاي، استأذنت سلام لتصلِّي صلاة العصر، فدخلت إلى غرفتي، وبعد أن مضى من الوقت أكثر من ربع ساعة، لحقت بها، فوجدتها تنظر إلى الخزانة التي كنت أرصّ على أحد رفوفها كتبي المفضَّلة وألعابي المحبَّبة في طفولتي. كانت تتأمَّلهم وتمسك بيدها إحدى اللعب، وبهدوءٍ دخلت إلى الغرفة، وقفت خلفها، وسألتها:

- لا بدّ وأنَّك تتساءلين، ترى ماذا يفعل هذا الأرنب المحشوّ بين ألعاب الصبيان، أليس كذلك؟

تفاجأتْ قليلاً، ثمَّ قالت:

- ربَّما!

- "رشاد"، اسمه "رشاد"، عندما كنَّا صغاراً، كنَّا نذهب بعد العيد إلى متجر الألعاب، فنشتري ألعاباً بالمال الذي جنيناه خلال العيد من آبائنا وأقاربنا، وفي إحدى المرَّات، ذهبنا أنا ورشا، فاشتريتُ لعبة السيارات التي تتحرَّك عبر جهاز التحكم، واشترت رشا هذا الأرنب الصغير، في ذلك اليوم وحين عدنا إلى المنزل، دخلنا أنا ورشا إلى غرفتي ورحنا نلعب بالسيارات، وبسبب قلَّة خبرة رشا في قيادتها، كانت السيارة التي تتحكَّم بها رشا ترتطم بكلِّ شيءٍ حولها، فتصدر أصواتاً مزعجةً، كنّا نصرخ ونضحك بصوتٍ مرتفعٍ، فدخل يمان إلى غرفتي وهو غاضبٌ، أظنُّه كان يحضِّر للامتحانات، صرخ في وجهي وصبّ جام غضبه عليّ، بعدها سحب جهاز التحكم الذي كان بيدي وضربه بالأرض وكسره، تماسكتُ ولم أشأ أن أشاجره أمام رشا، أمَّا هي فارتعدت من الخوف، وضعتْ جهاز التحكم الذي بيدها أمام يمان، ظنّاً منها أنَّه سيكسره، لكنَّه نظر إليها دون أن يتحدَّث معها ومضى، وما إن خرج من الغرفة حتَّى انهارت من البكاء، وكي تحاول إرضائي، ولأنّها اعتقدت أنّها السبب وراء ما حدث، أعطتني أرنبها كتعويضٍ عن خسارتي، مضت بعدها الأيام وفي كلِّ مرَّةٍ كنت أحاول أن

أعيده إليها، لم تكن تقبل بذلك إطلاقاً، كانت تبكي وتتذكَّر حادثة السيارة، في نهاية الأمر، مللت من محاولة إعادته إليها واحتفظت به عندي، هو أرنبٌ غبيٌّ إلى أبعد حدٍّ، أسميته "رشاد"، كي يذكِّرني بصاحبته المزعجة.

ثمَّ أخذتُ "رشاد" من يدها، ورحت أحرِّكه كما لو أنَّه دمية في مسرح العرائس، وتحدَّثت على لسانه بصوتٍ سخيفٍ:

- سلام أرجوكِ سامحي ذاك المعتوه آدم!

ضحكتْ ووضعتْ يديها على وجهها من كثرة الضحك، ثمَّ نظرت إليه وأجابته:

- لا أسمح لك بالتطاول على حبيبي، ثمَّ من قال إنِّي غاضبة منه بالأساس؟ لدى آدم خطوط حمراء ويبدو أنِّي قد تجاوزتها!

أكملت الحوار معها من خلال رشاد:

- لم تتجاوزي شيئاً، سامحيه أرجوك!
- قلت لك لست غاضبةً منه.

أمسكتْ "رشاد" مجدَّداً ووضعته على الرّف:

- هيّا عد إلى مكانك.

ثمَّ استدارت نحوي فضممتها إليّ، من غير أن نتكلَّم. كنت ممتنّاً لها بمسامحتي، أشعرتني بالخجل أمام نفسي، وتساءلت: هل كانت جُمان ستقبل أن أصالحها من خلال أرنبٍ تافهٍ ينتمي إلى ذكريات طفولتي؟!

سلام　　　　　　　　　　　　　　　　يونيو 2013

رغم أنَّ جود قد وضعت ربيع بعد خطوبتي بأسابيع، إلا أنَّهم لم يقيموا عقيقته إلا بعد خمسة أشهر. لم يمضِ على زواجنا أنا وآدم إلا بضعة أسابيع، وحين عدنا من شهر العسل كانت حفلة عقيقة ربيع هي أوَّل حدث نذهب إليه أنا وآدم ونحن متزوِّجان.

في يوم العقيقة ذهبت وحدي في وقتٍ مبكِّرٍ إلى منزل عمر لمساعدته في ترتيب المنزل وتحضير الأطباق وما إلى ذلك، فجود مشغولة بشكلٍ كاملٍ مع ربيع، وقبل أن يصل أحد من المدعوين، ذهب عمر ليجلب أطباق الطعام والمناسف، وكنت مشغولةً بالتقاط صور الزينة التي وضعتها، والألوان الزرقاء في كلِّ مكانٍ، رحت ألتقط صوراً من كلِّ الزوايا إلى أن وصل عمر، وقال:

- هل نستطيع الدخول؟

سألني وهو يقف على الباب، أجبته من مكاني:

- بالطبع!
- حسناً، كرم معي.

ودخلا معاً وهما يحملان الأطباق الكبيرة المغلَّفة بورق القصدير، ألقيت السلام عليهما وتوجَّهتُ إلى المطبخ كي أساعد الخادمة في ترتيب المقبلات. ترك عمر الباب مفتوحاً، وبدأ الاثنان بالذهاب والإياب. وفجأةً دخل كرم إلى المطبخ وهو يتنحنح كي ينبِّهنا بوجوده، وأخذ كأساً وجعل يبحث عن زجاجة الماء. كان الموقف محرجاً للغاية، لا سيَّما بعد رفضي له لمرَّتين، كسر حاجز الصمت وهو يسألني:

- أين يضعون زجاجات الماء؟
- أعتقد أنَّها في البراد!

فتحت البراد وناولته واحدةً.

- شكراً لك، لا أحبِّذ شرب الماء البارد.
- لا عجب فأنتَ طبيب أسنان، حسناً، دعني أسأل الخادمة.

ولسوء حظِّي، وصل آدم في تلك اللحظة، بينما كان عمر مشغولاً بجلب بعض الحاجيات من السيارة. ألقى آدم السَّلام وهو يرمقني بنظراتٍ غريبةٍ ومخيفةٍ، ثمّ قال بصوتٍ خافتٍ:

- سلام أحتاجك قليلاً!

أجبته بعفويّةٍ:

- ماذا هنالك؟

ازدادت نظراته حدّةً، وفي تلك اللحظة دخل عمر وهو يسأل:

- آه لقد وصل آدم، أهلاً وسهلاً.

وهنا كان كرم قد وجد زجاجة ماء عاديَّةً فأخذها وخرج من المطبخ، أمَّا عمر فشعر بالتوتر الحاصل بيني وبين آدم، الذي بدوره أمسكني من كتفي كما لو أنَّه يعاملني بلطفٍ إلا أنَّ قوَّة قبضته كادت تخترق عظمي. سأله عمر:

- آدم، هل من خطبٍ؟

صدَّه آدم بطريقته الساخرة قائلاً:

- "يا داخل بين البصلة وقشرتها"!

تجاهل عمر ما رأى وما سمع، فمضيت مع آدم إلى زاوية غرفة الجلوس، التي كانت خالية، فأغلق الباب وحشرني في إحدى الزوايا، همس في أذني بغضبٍ شديدٍ وبصوت بالكاد يسمع وهو مطبقٌ على فكّيه:

- ماذا كنتِ تفعلين مع كرم وحدكما؟
- ما هذا السؤال؟! كنتُ أنسِّق بعض الأطباق في المطبخ بينما حضر لطلب ماءٍ ليشربه! ثمَّ ألم ترَ الخادمة التي كانت في المطبخ!

- وما كلّ تلك الابتسامات التي رأيتها تعلو وجهك؟
- هل من المفترض أن أعبس في يومٍ كهذا؟
- ألم يستوعب عقله بعد أنَّك متزوِّجة!

نظرت إليه باستغرابٍ وألمٍ، هل هو مجنون أم أنَّه يهذي؟! عمَّ يتحدَّث بالضبط؟ هل كرم بحاجة إلى أن يهتمَّ بي أو يتقرَّب إليّ؟!

لم أستطع أن أكتم غضبي، فأجبته:

- بلى، استوعب، واستوعبنا جميعنا أنِّي متزوِّجة منك، هو شخصٌ واحدٌ الذي لم يدرك ذلك بعد وهو أنت يا أستاذ، بالأمس فقط كنت مع ليلى في المقهى تساعدها على حل مشكلاتها التي لا تنتهي، وقبله كانت الذكريات تعتصر قلبك ووضعت أغانيك المفضَّلة والتي تحكي عن الفراق والوداع، وجلست تسمعها بتمعُّنٍ وألمٍ، وقبلها اجتمعت مع زميلاتك في العمل بعد أن تطوَّعت لمساعدتهنّ فيما استعصى عليهنّ من المهمَّات، هذا ما عدا عن حالتك الاجتماعيَّة المعقَّدة التي تغيَّرت من أسبوعٍ فقط! معاملتك لي كما لو أنِّي إحدى قطع الأثاث في المنزل، وإهمالك لي وحجَّتك بأنَّ أهلك يقومون بالواجب ويكرمونني، كما لو أنِّي تزوَّجت أهلك ولم أتزوَّجك أنت! حتَّى شهر العسل جعلته مثل شهر البصل تماماً كما نعتّ نفسك قبل قليل، تنام طيلة النهار

بالفندق بحجَّة أنَّك متعب وهذا وقت الاسترخاء، ثمَّ تأتي لتحاسبني على ابتسامةٍ لشخصٍ محترمٍ يتحدَّث معي بكلِّ أدبٍ! وتظهر نفسك بمظهر الزوج الغيور المحبِّ والخائف على زوجته الغالية على قلبه!

كانت دموعي على وشك الانهيار، فتملَّصت منه وفتحت باب غرفة الجلوس فوجدت بأنّ خالتي ووالدتي قد وصلتا للتو، دخلت إلى غرفة جود حيث اجتمع النسوة حول المولود. وبعد أن وصل جميع المدعوين وتبادلوا أطراف الحديث مع بعضهم، تمّ تقديم الطعام، وحينها جلست بالقرب من عمر وكأنِّي أحتمي به، لكن ظلَّ آدم يرمقني بنظراتٍ شرِّيرةٍ، وكانت تعليقاته خلال الجلسة قويَّةً ولاذعةً للجميع، حتى أنَّ المسكينة جود وكرم لم ينجوا من تلك التعليقات. أخبرني آدم بعد انتهائنا من تناول الحلويات أنَّه سيعود إلى المنزل مباشرةً، فلديه كثير من المشاغل، لكنِّي لم أرغب بالعودة معه فلا طاقة لي بمجابهته، كما أنَّ والدي لم يكن على ما يرام، لذا قلت له بأنِّي سأعود مع والديّ، لم يناقشني كثيراً، وحين وصلنا إلى المنزل، ذهب والدي ليرتاح في غرفته، فأكملت السهرة مع والدتي، وبينما كنّا نتبادل أطراف الحديث، سمعنا أبي فجأة وهو يسعل بشدَّةٍ وينادي بصوتٍ شبه مرتجفٍ، وحين وصلنا

إليه وجدناه في الحمام بحالةٍ صعبةٍ بعد أن تقيَّأ كلَّ ما في معدته. ارتبكت والدتي وراحت تكرِّر وهي تحاول أن تسنده إلى صدرها:

- يا ليتنا لم نذهب، كان الطعام دسماً عليك.

وهنا علمت أنَّ ثمَّة شيءٌ يخفيانه عنِّي، لم أعلم ماذا عليّ أن أفعل، فهرعت إلى هاتفي، ووجدت نفسي أتَّصل به، نسيت كلَّ أفعاله وتعامله السيء معي بالذات خلال عقيقة ربيع، تذكَّرت فقط أنَّه سندي بعد الله ومن ثمَّ والديّ. حين ردَّ على هاتفه، صرخت مباشرة وأنا أبكي:

- آدم! حالة والدي سيئة للغاية، اتَّصلت والدتي بالإسعاف ونحن بانتظارهم.

كانت أنفاسه تتلاحق وهو يسمعني، فأجابني بسرعةٍ:

- الإسعاف! لن يجدي انتظارهم، الوضع هنا مختلف عن كندا، سآتي حالاً!

وبالفعل لم تمضِ سوى سبع دقائق حتى كان آدم عند المنزل، صعد بسرعةٍ فأسند والدي وساعده على الركوب وانطلقنا بسرعة البرق. في الطريق جلست والدتي بجانب والدي في المقعد الخلفي، بينما جلست في المقعد الأمامي كي أترك لهم فسحة أكبر، كنت أمسك بيد والدي وأنظر إلى الخلف، لم أحزم نفسي ولم أجلس بطريقةٍ آمنةٍ، لم يعقِّب آدم على

ذلك، بل راح مع كلِّ فرملة مفاجئة يسند ظهري بيده خشية أن ارتطم بزجاج السيارة أو يختلَّ توازني وأنا أجلس بشكلٍ غير منتظم. كانت يده على ظهري، كالسند والداعم، حملت كلَّ حنان ودفء العالم، تساءلت رغم أنِّي في موقفٍ صعب لا مجال به لتلك الأفكار: كيف له أن يكون حنوناً وشريراً في آنٍ معاً؟

وحين وصلنا إلى المستشفى، تولَّى آدم الإجراءات كافَّة بسرعةٍ شديدةٍ. رأيته وهو يغلق هاتفه كي لا يزعجه أحد، ويركِّز على كلِّ ما يجري، لم أجد كلمةً تعبِّر عن شهامته في ذلك اليوم، ولم أجد مثل طيبة قلبه، ينسى كلَّ خلافاتنا ويقف معي بكلِّ قلبه ومشاعره، كيف لا أحبُّه وأتعلَّق به؟!

مرَّت أربعة أيام من العلاج والعناية المشدَّدة، وخرج بعدها والدي من المستشفى. خلال الأسبوع الذي تلى خروجه، بقينا أنا وآدم عند والديّ، وبعد أن استقرَّت حالته، عدت إلى المنزل مع آدم، لم أناقش مشكلتنا السابقة، وتجاهلناها، يبدو بأنّ "تجنُّب المواجهة" سيغدو أسلوبنا الفاشل لحلِّ الخلافات!

آدم يونيو 2013

كنت خجلاً من نفسي، أفكِّر هل ستفتح الموضوع أم أنَّها ستتجاوزه وبحمد الله تجاوزته، لكن ليس حبَّاً بي، وإنَّما بسبب انشغال بالها على والدها. ينتابني شعورٌ بالسعادة في كلِّ مرَّةٍ تسامحني بها سلام، لكن مع هذا وذاك ما يزال قلبي يضنّ عليها، ولا يغدق الحبَّ كما يجب أن يكون. أراها دوماً كيف تحاول أن تسعدني، وترضيني، وتدخل السرور إلى قلبي، ورغم أنَّها تفلح بالفعل، إلا أنِّي مصرٌّ على ألا أتعلَّق بها فقد تتركني هي الأخرى يوماً ما، كنت أخشى أن تملَّ الحياة هنا، أو يزول انبهارها بجمال الوطن، والآثار والقلاع، فتسأم الروتين اليومي وتضجر من الفوضى العارمة مقارنة مع كندا.

خلال الأيام التي مكثناها مع والديّ سلام في منزلهما، تأكَّدت شكوكي تلك، فقد رددت سلام ووالدة سلام مرَّات عديدة الحديث عن فرق الرعاية بين هنا وكندا، وعن سهولة الأمور هناك بالنسبة لمرض والدها، وما إلى ذلك. كنت أشعر بوخزٍ في قلبي في كلِّ مرَّةٍ تذكران بها هذا الأمر. لم أكن أعقِّب أو أتدخَّل، لكن كنت قلقاً وغير مطمئنّ. وبالفعل، فبعد عودتنا إلى منزلنا بأسبوعين، راحت والدة سلام تتحضَّر للسفر، اتَّصلتْ بمستشفيات في كندا، وطلبت منِّي أن أرسل إليهم كلَّ التقارير

والتحاليل، كي يستعدُّوا لاستقبال وعلاج عمِّي حال وصوله. لكنَّها لم تخبرني عن موعد السفر، أو متى حجزت البطاقات. ظللت مترقِّباً خائفاً، لا أجرؤ على سؤال أيٍّ منهم حول الموضوع، أمَّا سلام فقد كانت قلقةً طيلة الوقت على أبيها، ولم تكن تتحدَّث كثيراً. لم تمضِ أيام كثيرة بعد إرسالي كلّ التقارير إلى كندا، حتَّى اتصلت بي سلام وأنا في عملي، وقالت:

- آدم، كيف حالك؟

كان صوتها غريباً بعض الشيء، أجبتها:

- بخيرٍ، ما الأمر؟
- لا تتأخَّر اليوم مساءً، هنالك شيء أودُّ إخبارك به، سأكون في منزلنا.
- حسناً.

أغلقت الهاتف، وأدركت أنَّ ساعة الفراق قد اقتربت، سألت نفسي: ماذا سأجيبها إن قرَّرت الرحيل؟ وهل سيكون رحيلها مؤقَّتاً أم دائماً؟ ماذا زرعتُ حتَّى أحصد؟ ما الذي سيجعلها تعود إليّ؟ لم ترَ منِّي إلا سوء التعامل، ولكن رغم أنِّي لا أعشقها إلا أنَّها قد ملأت حياتي بكلِّ جميلٍ، كل تلك الضحكات، والسهرات، كل تلك الساعات التي

قضيتها وأنا أستمع إلى أحاديثها التي لا تنتهي، وتفاصيلها الكثيرة، عليّ أن أعترف أنَّها إن رحلت، فسأفتقد حتَّى إزعاجها حين تكون غاضبةً ومستاءةً منِّي.

لِمَ ابتُليتُ بفتياتٍ وحيداتٍ لأهلهنّ؟

الأولى دفعها أبواها إلى تحقيق ذاتها، فهي وحيدتهما التي يودُّون أن تحقِّق لهما كلّ أحلامهما، والثانية، لا يستطيع والداها العيش من غيرها! ماذا عنِّي أنا؟

كنت أفكِّر وأنا في الطريق عن جوابٍ مناسبٍ، لكنِّي لم أجد. وصلت إلى المنزل، وحين دخلت كانت جميع الأضواء مطفأةً، قلقت بعض الشيء، لكنِّي أكملت طريقي في الظلام لأجد أضواءً خافتةً للشموع تشعُّ من غرفة الطعام. دخلت فوجدت مائدةً كبيرةً عليها أشهى المأكولات والأطعمة والحلويات. تساءلت: أهو عشاء الوداع أم ماذا بالضبط؟

لم أستطع أن أشكرها، قطّبت حاجبيّ وتسارعت نبضات قلبي، شعرتْ سلام بتوتري فسألتني:

- ما بك آدم؟

- سلام، ادخلي في صلب الموضوع، ماذا تريدين بالضبط؟

تنهَّدت وهي تحاول أن تحافظ على هدوئها، ثمَّ ابتسمت وأحضرت علبةً صغيرةً:

- تفضَّل، هذه هديةٌ لك.

نظرت إليها وغضبي يزداد أكثر، وقلت لها بحزمٍ:

- أهذا وقت السخافات، هلَّا أخبرتني ما الأمر من غير لفٍّ أو دوران؟

- لا تكن عنيداً، هيَّا افتحها.

استجبت لرغبتها بامتعاضٍ، وفتحت العلبة، وإذ بي أجد اختبار حملٍ بنتيجةٍ إيجابيَّةٍ، لم أصدِّق ما أرى أمام عيني، فصرخت:

- هل أنتِ حامل؟

ابتسمت ابتسامةً عريضةً وأجابتني:

- نعم، الحمد لله.

ضممتها إلى صدري، ولكن لوهلة تذكَّرت سفر والديها، فسألتها بينما كان وجهها غائراً في صدري:

- سلام! أجيبنني بصدقٍ.

- ما الأمر؟

- هل ستعودين إلى كندا؟

رفعت رأسها ونظرت إليّ باستغراب ٍ وقالت:

- ولماذا أعود؟ لم أفهم سؤالك! هل تودُّ الذهاب إلى هناك؟
- أنا بالطبع لا، لكن منذ أن بدأ والداك بالاستعداد للسفر، وتحوم شكوكٌ في رأسي حول انضمامك إليهما في سفرهما هذا!
- آدم، بالطبع يؤلمني أن يذهبا وحدهما الآن، لكن أكَّدت والدتي أنَّ الأمور ستكون هناك على ما يرام، هي ما تزال بأوج قوَّتها وستتدبَّر كلَّ الأمور، سأسافر لزيارتهما بالتأكيد، لكن آمل ألا يطول مكوثهما هناك، لكن لم أفكِّر للحظة أنِّي سأعود أو أستقرّ هناك، مهلاً ألسنا زوجين، كيف سأقرِّر قراراً كهذا دون مناقشة الأمر معك؟!

نظرت إليها نظرة امتنانٍ وحبٍّ، ولم أعرف كيف أجيبها، هل أستحقُّ فتاةً كسلام بالفعل؟! كم عليّ أن أحمد الله على تلك النعم: زوجتي الوفيَّة الجميلة، ستنجب لنا طفلاً عمَّا قريب، هل أنا في حلمٍ أم في حقيقة؟!

لا أذكر كم بقيت في تلك الليلة ساجداً بين يديّ ربي، لعلَّه يغفر لي حماقاتي، فأنا لا أستحقُّ شيئاً، ومع كلِّ هذا يغدق عليّ بكلِّ تلك النعم.

سلام يوليو 2013

بعد رحيل والديّ إلى كندا وبدء فترة حملي حاولت حماتي ملء أيامي بالنشاطات الممكنة، فكانت تتَّصل بي كلّ صباح لتطمئنَّ عليّ وعلى وضعي مع الحمل، ثمّ تأتي إلى الاستيديو ومعها إمَّا فطائر اشترتها أو شطائر صنعتها بنفسها لنتناول طعام الفطور معاً. كنَّا نمضي وقتاً ممتعاً، نأكل ونتحدَّث، ثمَّ ترحل وتخبرني ألا أحضِّر شيئاً لطعام الغداء، لأنَّها إمَّا ستحضِّر لنا الطعام أو ستدعونا إلى منزلهم، وكان عمر وجود يفعلان الأمر ذاته على حسب استطاعتهما.

وذات يوم وبينما كنت منشغلةً في العمل اتَّصل عمر للاطمئنان عليّ وأخبرني أنَّه سيُحضر اليوم شاورما من مطعمي المفضَّل، لم أقاوم هذا العرض، لذا وبعد انتهائي من عملي ذهبت مباشرةً إلى منزل عمر، وبعد فشلي في وضع بصمتي الخاصَّة بطرق الباب، فتحت لي السيدة رجاء باب منزل عمر. السيدة رجاء هي جارة عمر وجود، هي إنسانةٌ مرحةٌ وودودة، أحبُّ حديثها والجلوس والضحك معها مع أنِّي على علمٍ بأنِّي لن أنجو من تعليقاتها، إلا أنِّي كنت أحبُّ تلك التعليقات ولا تزعجني طريقة مزاحها، على الأقل هي تخبرني بما في قلبها ولا تتعامل معي بوجهين.

حين دخلت كان صوت بكاء ربيع يملأ المنزل، وبعد أن ألقيت السلام على الخالة رجاء، أتت جود وهي مرتبكةٌ، فظننت أنَّ السبب وراء ارتباكها هو بكاء ربيع. دخلت باندفاعٍ نحو غرفة الجلوس، فرأيت ما لم يكن بالحسبان.

رأيت فتاةً، وما إن وقعت عيناي عليها حتَّى انقبض قلبي، وعرفتها حالاً. كيف لا وأنا أحفظ تفاصيل وجهها! لطالما تأمَّلت صورها مع جود والتي كانت قد نشرتها عبر حساباتها على مواقع التواصل. عرفتها من أناقتها المبالغ بها، ورسميَّتها المفرطة.

تسمَّرت في مكاني إلى أن عرَّفت الخالة رجاء عنها، فسمعت اسمها الذي وقع كالسهم في قلبي: إنَّها جُمان، التي حُفر اسمها في قلبه ولم يمحَ إلى الآن.

لا أعلم كيف تبادلنا السلام، ولم أستطع أن أحفظ ماذا قالت أو كيف أجبت، كلّ ما أذكره أنَّه دار بيننا حوارٌ قصير، استعرضت خلاله الخالة رجاء وجُمان جميع مواضع القوَّة لدى جُمان وأُظهر خلاله جميع مواضع الضعف لديّ، بقصدٍ أو بغير قصدٍ، ولعلّ أهمّ تلك المواضع هو دراستي ومجال عملي اللذان لا تعترف بهما الخالة رجاء وغيرها من أصحاب العقليَّات التقليديَّة في مجتمعنا. يعتبرون أنَّ العمل المرموق والجيِّد يقتصر على مجال الطبِّ والصيدلة ومن ثمَّ الهندسة، تليها بقية الفروع، وبالتأكيد لم يدخل علم التصوير ضمن قائمتهم.

أكملتا الحديث، جُمان والخالة رجاء، كانت جُمان هادئةً جدَّاً وبأعلى درجات الثقة بالنفس، بينما ظهرت أنا كالمزعزعة، منذ متى وأنا بهذا الضعف؟ رحت أفكِّر وألقي اللوم على نفسي، لكنِّي أعدت التفكير فوجدت أنَّ آدم هو الملام الوحيد، هو من أفقدني كلَّ ثقتي بنفسي. أفقدني إيَّاها بقلَّة اهتمامه بي، بشحِّ حبِّه، لم يجاملني يوماً أو يدعمني نفسيَّاً، حتَّى عملي، لا أذكر أنَّه أثنى يوماً على مشهدٍ صوَّرته، أو مشروعٍ عملت عليه. سلبني كلَّ الثقة، وأعطاها لها، لها فقط.

لم تطل جلستنا معاً، فقد غادرت باكراً الآنسة الدكتورة المهندسة جُمان "هانم" التي تعتزُّ بنفسها وبكلِّ ما تفعله، وحين وصل عمر لم أكن بأفضل حالاتي، وغادرت بعد انتهائنا من الطعام، الذي لم تعد لديّ أي

شهيَّة لتناوله أساساً. وحين عدت إلى المنزل، كنت بائسةً وحزينةً، ومليئةً بالخيبة والانكسار. وصل آدم بعدي بساعات، كانت الفرحة تغمره. تساءلت: لعلَّ وجودها في البلد هو سرُّ فرحته تلك!

لم أخبره بما حدث، فسألته حين دخل الغرفة:

- آدم هل ترغب في تناول طعام العشاء؟
- لا مطلقاً، لقد أكلت بصحبة صديقي، أتى زيارة من إنجلترا هذا الأسبوع، كانت جلسةً رائعةً استعدنا فيها ذكريات الماضي.

همهمتُ وقلت له:

- آه، فهمت، سعيدةٌ لأجلك.
- نعم، وعلى فكرة لقد كان طعام هذا المطعم شهيَّاً للغاية، وجلسته وديكوره وكلّ تفاصيله مرتَّبة، كيف لم أعرف به إلى الآن! وكانت الحلويات من أشهى ما يكون، تذكَّرتك وأنا أختار طبقي.
- صحَّة وهناء.

تذكَّرني! هذا ما استطاع فعله فقط! أن يتذكَّرني! أين أنت يا أمِّي! كيف لفتاةٍ مدللةٍ مثلي اعتادت أن تحظى بكلِّ الاهتمام ممَّن حولها أن تحتمل عدم مبالاة هذا الكائن؟!

وتنبَّهت لأوَّل مرَّةٍ لأمرٍ لطيفٍ، لم تكن والدتي تذهب إلى أي مطعمٍ أو مقهىً دون أن تحضر لي معها شيئاً حين تعود، وعمر حين يعلم بحبِّي لطعامٍ معيَّنٍ إمَّا أن يأتي ويحضره لي أو يدعوني لتناوله معه، أمَّا زوجي ووالد طفلي، فيتذكَّرني فقط، يا له من إنجازٍ ونقطةٍ تُحسب له بالفعل.

- إذن فأنتَ غير جائع، أنا ذاهبة إلى النوم، تصبح على خير.
- وأنتِ بألف خير، هنالك شيء آخر، غداً سيكون اجتماع الدفعة، لذا قد أتأخَّر بعد العمل.
- جيِّد!
- إن رغبت تستطيعين المبيت عند والدتي.
- لا شكراً، لا داعي.
- كنتُ سأقترح عليك منزل عمر، إلا أنَّهما سيتواجدان في اللقاء طبعاً.
- فهمت، إذن الاجتماع لجميع الدفعة وليس لشبابها فقط.
- بالطبع ماذا كنتِ تظنين؟
- لم أظن شيئاً، لا تقلق.

لقاء لكلِّ الدفعة! هل أتت الهانم من فرنسا خصِّيصاً للقاء الدفعة؟

لقاءٌ كهذا سيكون غالباً باصطحاب الأزواج والزوجات، لكنَّه لم يذكر شيئاً حول الأمر، طبعاً كيف يقول وهو بانتظار رؤية حبيبته.

آدم يا لوقاحتك!

أجبته وقلبي ينتفض من الغضب:

- سأبيت عند عمر، فرصة جيِّدة لأبقى مع ربيع.
- جيِّد، أعتقد أنَّك ستحصلين على دورةٍ تدريبيَّةٍ مجانيَّة للطفل القادم مع مكوثك المتكرِّر مع ربيع.
- ممم، صحيح.

وكأنَّ الطفل لي فقط! لم أشأ أن أتجادل معه، فأي نقاش سأفتحه الآن سيتَّهمني به بافتعال المشكلات وأنِّي أفسدت عليه مزاجه الجيِّد بعد لقائه بصديقه، الذي أظنُّه يزن، أو لعلّه الشابّ الآخر الذي يُدعى أُسيد. تركته وذهبت إلى النوم، وضعت رأسي على الوسادة، وإذ بي أسمع أم كلثوم، المطربة المحبَّبة لقلب والدي والتي أحبُّها لمحبة والدي لها، كان صوتها يصدح:

"أغداً ألقاك يا شوق قلبي للغد"

سلام يوليو 2013

استيقظ آدم وكعادته شرب قهوته وحده على أنغام فيروز: "أنا لحبيبي وحبيبي إلي". بقيت في السرير مع أنِّي كنتُ مستيقظةً، لكن لا طاقة لديّ لرؤية سعادته الغامرة. وما إن ذهب إلى عمله، حتى انطلقتُ إلى الاستيديو، وأرسلت إليه رسالة مفادها أنِّي سأتَّجه بعد عملي إلى منزل عمر وأبيت هناك، أجاب بكلمةٍ واحدةٍ: "ممتاز!"

ما هو الممتاز في الأمر؟! ألا يشعر بي؟ ألا يدري كميَّة الألم التي يقتلني بها؟ لم أشأ حتَّى رؤيته وهو يحضِّر نفسه لذاك اللقاء. وحين أنهيت عملي وضعت قناع الفرح على وجهي وذهبت إلى منزل عمر. بعد انتهائنا من الطعام أخبرت عمر وجود أنِّي سأبقى مع ربيع في غيابهما، سألني حينها عمر:

- ألن تعودي إلى منزلك لتتجهَّزي للقاء اليوم؟
- لا لن أذهب، لا أرغب بأن أكون ضيفاً ثقيلاً على أبناء الدفعة الواحدة.

قطّب حاجبيه، وقال:

- ومن أخبرك أنَّك ضيف؟ أنتِ من أهل البيت ما دمت ارتبطت بأحد أبناء الدفعة، وكلّ من ارتبط سيصطحب شريكه معه إلى اللقاء.

هنا ردَّت جود:

- عمر! دعها على راحتها!

رمقها عمر بنظرةٍ حادَّةٍ، مفادها "لا تتدخَّلي"، ذهبت جود بعدها إلى غرفة ربيع الذي بدأ بالبكاء بعد قيلولة الظهر، وبقينا أنا وعمر وحدنا. فقال لي:

- أخبريني الآن ما السبب الحقيقيّ وراء عدم ذهابك؟
- لم يدعني إطلاقاً، كما لا أرغب بإفساد فرحتهما باللقاء.

وهنا أجهشت بالبكاء، ربّت عمر على كتفي وقال:

- سلام، لم أعهدك هكذا ألا تدركين ما تقولين؟ هو زوجك وليس زوجها!
- عليه هو أن يدرك هذا الأمر، عمر! تصرُّفاته كلّها لا توحي بذلك.
- ألم أحذِّرك منذ البداية؟
- هل تشمت بي الآن؟ أرجوك دعني وشأني.

- بالطبع لا أشمت بك، ولكنَّه طريق شاقٌّ وصعبٌ وكنتِ على علمٍ بهذا.
- صدِّقني لم أتخيَّل أنَّ وضعه معقَّد إلى تلك الدرجة، وخبرتي متواضعة في الحياة، لم أدرك أنَّ الأمور ربَّما تكون بهذه الصعوبة.
- أتفكِّرين بالانفصال؟
- أشعر بالحيرة، وأنا نفسي لا أستطيع اتِّخاذ أي قرارٍ أو رأي، كلّ الخيارات سيئة، لا يوجد لديّ أي خيار جيِّد للأسف.
- بل يوجد!
- وما هو؟
- ستحافظين على زوجك وستذهبين معي إلى لقاء اليوم بكلِّ ثقةٍ وعزَّةٍ.
- لم يعد يهمُّني الأمر كثيراً، فلِمَ ومِن أجل مَن سأقاتل؟ فليعد لها، لا أهتمّ.
- أرجوك سلام لا تتفوَّهي بكلماتٍ لا تعرفين أبعادها، سنذهب ونريهم مَن سلام.
- "مَن سلام" أنا نفسي لم أعد أعرفها!
- لكنِّي أعرفها جيِّداً، سلام هي أقوى زهرة عرفتها، سلام هل تعرفين أنِّي أشبِّهك بأزهار الصباريات، هي أزهار نادرةٌ وجميلةٌ

ويصعب الحصول عليها كما أنَّ الشوك يحاصرها ليحميها ممَّن يفكر في أذيِّتها.

ضحكت ومسحت دمعتي، وقلت له:

- إذن أنا سلام الصبَّارة.
- نعم أنتِ كذلك.

ثمَّ نادى عمر لجود وقال لها:

- جود، هلَّا ساعدتِ سلام باختيار ملابس مناسبة للذهاب إلى لقاء الدفعة معنا، اعتقد أنَّ لكما المقاس ذاته، ولا داعي لنضيع الوقت بذهابها مجدَّداً إلى منزلها.

أجابته جود وهي متفاجئة من قراري بالذهاب:

- من دواعي سروري.

أمَّا أنا فقد كان قلبي يخفق بشدَّةٍ، هل سأواجهها معاً فعلاً!

آدم يوليو 2013

هل سأراها حقَّاً! إنَّها أربع سنوات، أربع سنواتٍ من البعد والفراق، تغيَّر فيها كلُّ شيء إلا قلبي الذي ما يزال يخفق بشدَّةٍ حين يسمع اسمها. علمت من ليلى -التي استقصت من منظِّمي اللقاء عن كلِّ المتواجدين- أنَّ جُمان ستتواجد، لم أسألها بشكلٍ مباشر، بل زلَّ لسانها حين قالت لي قبل أسبوع:

غريمانا سيتواجدان بالحفل، يا للصدفة!

لم أعقِّب يومها، لكنِّي انتظرت يوم الحفل بترقُّبٍ، ومن حسن حظِّي أنَّ سلام قد اقترحت المكوث مع ربيع ريثما تحضر جود اللقاء مع عمر. لا أعلم لماذا لا أودُّ اصطحابها معي رغم أنَّ الأزواج مدعوُّون للحفل أيضاً. لم أشأ أن أضعها في موقفٍ محرجٍ، كنت أريدها بعيدةً عن هذه المساحة من حياتي، لم تشاهدنا يوماً مع بعضنا، نحن زملاء دفعة واحدة، لذا لا داعي لأن ترانا بالأساس، لا نعني لها شيئاً مع بعضنا، ووجودها لا يعنيهم أيضاً، كما أنَّه من الأفضل لها أن تبقى مرتاحةً وبعيدةً عن الاجتماعات الكبيرة، فهي مرهقةٌ من الحمل.

أمَّا أنا، فليتركني الجميع، لا أريد مراقبين، ولا أريد أن يحاسبني أحد، فأنا لا أنوي أن أفعل شيئاً بالأساس، لكن لا أضمن ماذا ستقول عيناي حين أراها، ولا أعلم كيف سيرتجف قلبي إن تحدَّثنا معاً. انطلقتُ وقلبي مضطَّربٌ للغاية، وحين وصلتُ كنتُ متأكِّداً من تواجدها، فهي دقيقة في مواعيدها، وما إن دخلتُ القاعة حيث يتواجد الجميع، حتَّى هتفت ليلى بأعلى صوتها: رحِّبوا بالعريس!

راح الجميع يصفِّق ويصفر، شعرت بحرجٍ شديدٍ، كم أنتِ لئيمة يا ليلى!

اكتفيت بالابتسام وحاولت ألا أنظر حولي، فلست مستعدَّاً لأن أراها في لحظةٍ كتلك. رأيت يزن، فعانقته من غير أن أشعر، الأمر الذي أزعج ليلى من كلِّ بدٍّ، لكنَّ الخلاف لا يفسد للودِّ قضيَّة، فرغم اختلافي معه بما فعله مع ليلى إلا أنَّه ما يزال صديقي الذي كان لي سنداً يوماً ما. وكي أحترم شعورها لم أجلس بقربه، وجلست بعيداً في مكانٍ آخر أتبادل أطراف الحديث مع بقيَّة الزملاء الذين اشتقت إليهم حقَّاً بعد مضي هذه السنوات على تخرُّجنا.

وفجأة وبعد أن شعرت باستقرارٍ بسيطٍ، رحت أبحث عنها، فوجدتها مباشرة، لم تتغيَّر، كما هي برشاقتها وهالتها التي تشعُّ منها، خفق قلبي، لكن ما إن شعرت جُمان بأنِّي أنظر نحوها والتقت عيوننا حتى تغيَّرت كلُّ أحاسيسي في تلك اللحظة، تذكَّرت وداعنا وفراقنا وقسوتها،

تذكَّرت جرحي الذي لم يندمل بعد، شعرت أنَّ الكون توقَّف لوهلةٍ، لا أعلم كيف كانت ملامحي، لكنِّي كنت واثقاً من أنَّ شعوري وصلها بحذافيره، فأدارت وجهها وتهرَّبت كما دائماً، لكن لم يكن من اللائق ألا ألقي السلام عليها، فتوجَّهت نحوها من غير أن أعقِّد الأمور كثيراً وألقيت السلام، وقلت:

- أهلاً جُمان، حمداً لله على سلامتك.

ارتبكتْ لكنَّها تصنَّعت الهدوء وأجابتني:

- شكراً، كيف حالك؟

ها أنا أنظر إليها الآن وهي أمامي بعد كلِّ تلك السنوات، "كيف حالي" ما هذا السؤال المُمل، أجبتها:

- بخيرٍ، وأنتِ؟
- الحمد لله.

أنهيت جملتي تلك وإذ بأحدٍ يربّت على كتفي من الخلف، وبصوتٍ ظاهره اللطف وباطنه كثير من الغضب سمعت أحدهم يقول:

- مرحباً آدم!

إنَّه عمر قد وصل، وسيأخذ دور المراقب، لكن المفاجأة كانت حين استدرت، فلم أجد عمر وحده، بل معه سلام. ما هذه الحركات السخيفة؟ شعرت بالغضب الشديد، فسألتها مباشرةً:

- سلام! ألم تنوي البقاء مع ربيع؟

نظرتْ سلام إلى عمر وكأنَّها تستجديه، فأجاب عمر:

- ستبيت جدّته في منزلنا اليوم، وستعتني به.

لم أعلم كيف أجيب، فاستدرتُ مجدَّداً لجُمان وقلت:

- دعوني أعرفكم إلى بعضكم، عمر، جُمان.

وضحكتُ ضحكةً باهتةً، فطبعاً لا داعي لأعرّفهمها على بعضهما، فجُمان تعرف عمر حتّى قبل أن تعرفني، لكنّي كنتُ متوتراً للغاية ولم أجد الكلمات المناسبة، تجاهلا تعليقي السخيف ذاك وردَّ عمر:

- أهلاً جُمان، كيف حالك؟

أجابته جُمان:

- بخيرٍ، شكراً لك، ألن تأتي جود؟
- بلى، هي بالخارج تنهي مكالمةً طارئة.

ثمَّ نظر عمر إليّ نظرة مغزاها "ماذا عن سلام"، حينها أشرت إلى سلام وقلت:

- وهذه سلام أخت عمر.

وهنا غضب عمر غضباً شديداً، شعرت أنَّه على وشك صفعي، فتداركت الموقف بسرعةٍ وقلت له:

- مهلاً، مهلاً، أنا أمزح فقط، يبدو أنِّي لم أعد أجيد المزاح الجيد، سلامي هذه جُمان زميلتنا في الجامعة، جُمان أعرِّفك هذه زوجتي سلام!

بعدها أمسكتُ بيد سلام ومضينا مع عمر وجلسنا، وبعد أن وصلت جود جلستْ معنا أيضاً، استغربتُ أنَّها لم تجلس مع جُمان، كم هي بارعة بكسب المواقف!

لم يتسنَّ لي أن أتحدَّث مع جُمان مرَّةً ثانية خلال الحفل، لأنَّها غادرت باكراً. على أي حال، لم أكن أريد التحدُّث إليها، لا سيَّما أنَّ سلام تبدو بأتعس حالاتها بعد الذي حدث. كنتُ أفكِّر، ماذا تفكِّر سلام الآن، لعلَّها رأت وفهمت من هي جُمان التي استولت على كلِّ مشاعري، ولعلَّها بذلك تعذرني!

كنتُ أفكِّر بهذه الطريقة تماماً، أنّها لا بدّ وأن تنبهر بها، لا شيء كجُمان! هذه حقيقة، وعليها أن تتقبَّلها.

بقيت مرتاحاً تماماً بكلِّ هذه الحقائق والأفكار التي تدور في خلدي إلى أن انتهى الحفل، حينها اقترحتْ سلام أن تمكث الليلة عند عمر، فهي مشتاقةٌ إلى ربيع ولم يتسنَّ لها المكوث معه اليوم كما كان متَّفق عليه، لم أجادلها بل وافقت مباشرةً وعدتُ وحدي إلى المنزل. تجاهلتها من غير أن أفكِّر بمشاعرها البتّة ولم أعاود الاتِّصال بها، وتفرَّغت لنفسي، جلستُ في غرفة الجلوس وحدي، أحاول ترتيب أفكاري المبعثرة.

جلستُ في الظلام أذكر ملامح جُمان اليوم وابتسامتها وصوتها، لقد لمعت عيناها حين رأتني، أنا متأكِّدٌ أنَّها ما تزال تكنُّ لي كثيراً من المشاعر، حتَّى وإن تظاهرتْ بعكس ذلك، وضعتُ موسيقى غايةً في الرومانسية عبر سمَّاعات الأذنين، وانفصلتُ تماماً عن الواقع، سرحتُ وسرحت، كنتُ أشعر بسعادةٍ وأنا في عالم أحلامي وأوهامي فنسيتُ المكان والزمان، وتذكَّرتُ أيام سعادتي القديمة، وتذكَّرتُ ماذا تعني الحياة بصحبة جُمان، وتماديتُ بخواطري كثيراً، فقلتُ في نفسي: ماذا لو كانت سلام ليست حاملاً الآن؟ أكان من الضروري أن نستعجل أمر الأطفال، ألا نتأكَّد من استقرار حياتنا في المقام الأوّل، آهٍ! ترى كم ستطول إجازة جُمان؟ هل سأراها مرَّة أخرى؟ أم ماذا عليّ أن أفعل؟

أكملت أحلامي وبينما أنا منغمسٌ بالتفكير تنبَّهت لوجود نورٍ خفيفٍ في الغرفة.

أأشرقت الشمس؟! تساءلت وأنا أنظر إلى الساعة، فإذا هي الرابعة والنصف صباحاً، والشمس على وشك الشروق.

كيف مضى الوقت دون أن أشعر؟ انتفضتُ من مكاني وتوجَّهتُ مباشرةً كي أتوضأ وقلبي منقبض بشكلٍ كبير. لم يفتني فرض صلاة منذ سنواتٍ، كيف حلَّ وقت الفجر من غير أن أنتبه إليه؟!

وقفت لأقضي صلاتي العشاء والفجر بقلبٍ مرتجفٍ. لم أستطع أن أقف بعد أن أنهيت الصلاتين بل بقيت مطأطئاً رأسي، وأنا أسأل نفسي: ماذا فعلت؟ كيف لم أشعر بالوقت وهو يمضي؟

لم يكن من الصعب أن أفهم الرسالة، كانت واضحةً، أنا شخصٌ وقحٌ لا يليق بي الوقوف لصلاةٍ أو مناجاةٍ.

هل أصبحت فعلاً بهذا السوء؟ ولأجل ماذا بالضبط؟ لأجل تلك المشاعر! كم أنا تافه! لا عفَّة ولا أمانة، بل خيانة بكلِّ معنى الكلمة. خائن لزوجتي، خائن لنفسي، وتافهٌ إلى أبعد حدٍّ، أنانيٌّ ومغفَّل. أخفي كثيراً من الأوهام ونسيت أنَّ الله مطَّلع على كلِّ ما في نفسي.

رحت أكرِّر كلمات الاستغفار، كانت تخرج من لساني فقط، لم أستطع أن ألمَّ شتاتي، شعرتُ كما لو أنَّ جبالاً تجثم على صدري، أمسكتُ بطرف قميصي ورحت أشدُّه وأنا أنتحب، وحين انهمرت دموعي رفعتُ يديّ إلى السماء، لعلّ الله يلهمني دعاءً يشفي صدري، ويسعف روحي، وكان لا بدَّ من أن أعترف أمام نفسي بأنِّي غاليت وتماديت.

ما ذنب تلك المسكينة التي أظلمها معي، ما هذا الذي أفعله بها وبي؟! ومن أجل ماذا؟ يا ربي انزع عن قلبي هذا السواد، أشعر برانٍ يغطيه ويحجب الحق عنه ويغرقه بالسخافة.

يا رب، ليس لي سواك، أجرني واقبلني وتب عليّ وغيِّر حالي! ليس لي سواك، اغفر لي وتولَّاني، ولا تطردني من رحمتك، ارحم ضعف قلبي، وضعف روحي، وألهمني رشدي، أنا يا رب عجزتُ عن إصلاح نفسي، فأصلحها برحمتك، وأغدق عليّ بعفوك!

يا رب روحي تشتاق إلى مناجاتك وقربك، فلا تحرمني لذَّة الوقوف بين يديك، واحفظني من نفسي الأمَّارة بالسوء. أحتاج إليك يا رب، فلا تتركني في ظلماتي وحيداً.

توقَّفت عن الدعاء عند هذا الحدّ ولم أستطع السيطرة على صوت نحيبي، كنتُ أشعر أنَّ تلك الدموع تغسل روحي وتطهِّرها بعد أن

أمعنت في تدنيسها. بعد دقائق هدأ قلبي قليلاً، وتمالكت نفسي، فنهضت أمسح دموعي، غسلت وجهي، وشعرت بأنَّ حملاً انزاح عن صدري، شعرت بضآلتي وضآلة الدنيا بما فيها، وللمرَّة الأولى أدركت أنَّ عليّ أن أبدأ بالتخلُّص من مشاعري تجاه جُمان، أن أبدأ بالمحاولة، أن أجاهد أحاسيسي، أتجاهلها وأحاول نسيانها. تلك المشاعر لا تجلب لي سوى بؤس الدنيا، وسوء الخلق، وجبالاً من السيئات.

توجَّهت إلى غرفتنا، فلم أجد سلام، تذكَّرت أنَّها في بيت عمر، كاد قلبي أن ينفطر حين تذكَّرتُ خواطري قبل قليل حول حياتنا، وحملها ووجودها معي.

يا إلهي كم أنا شخصٌ سيء!

لم تمرّ سوى دقيقتين حتى وجدت نفسي في السيارة أتَّصل بها، ردَّت وهي قلقةٌ جدًّاً:

- آدم! ماذا تريد في هذا الوقت المبكر؟
- أريدك أنتِ، أنا في طريقي إلى بيت عمر، جهِّزي نفسك.
- ولِمَ في هذا الوقت المبكر؟

- اشتقتُ إليك، إنَّها المرَّة الأولى التي تبيتين بها خارج المنزل منذ أن سافر والداكِ، شعرتُ بضيقٍ شديدٍ ولم أستطع النوم إلى الآن.

صمتت ولم تستوعب ما هذا السياق الذي أتحدَّث به بعد كلِّ ما جرى اليوم. حين وصلتُ وصعدتْ سلام إلى السيارة، نظرتْ إليّ فلاحظتْ علامات البكاء على وجهي، سألتني:

- ما بك آدم؟
- أنا بخير!

لم تفهم سلام ما بي فعلاً، فلم ترد، في المقابل لم أستطع أن أعتذر منها بشكلٍ مباشر. حين وصلتُ إلى المنزل غرستُ وجهي بين ذراعيها وغفوت، بعد أن شعرت بطمأنينةٍ في قلبي لم أنعم بها منذ سنوات، كما لو أنَّه غُسل بالماء والثلج والبرد.

سلام	يوليو 2013

لم أفهم ما الذي دهاه حقاً؟ لماذا اتَّصل الساعة السادسة صباحاً ملتجئاً إليّ؟ منذ متى وأنا أعني له وبالذات في ظرفٍ كهذا؟

لم أناقشه، ارتديتُ ملابسي وعدتُ معه إلى المنزل، غفا بين يدي، ولم يكن وضعه مفهوماً بالنسبة لي، كما لم أسأله، لأنِّي حتَّى وإن فعلت لم يكن ليجيب. في اليوم التالي وحين عاد من عمله كنت في ذروة الأفكار السوداوية، في ذروة اشتياقي إلى والديّ، وضعت الطعام واعتذرت عن تناوله معه بسبب صداعٍ في رأسي ودخلت إلى الغرفة. ما تزال صورتها تظهر أمامي، شعرت حين رأيتها يوم لقاء الدفعة أنَّها كانت أكثر لؤماً من المرَّة الأولى التي التقيت بها في بيت عمر.

كانت نظراتها واثقةً بأنَّ قلب آدم ينتمي إليها وحدها. كيف لها بكلِّ هذه الثقة، ولِمَ أنا بكلِّ هذا الضعف والبؤس أمامها؟

تبَّاً لك يا آدم!

وفي لحظةٍ، كنت على وشك أن أنفجر وأقول له ما يدور في خلدي. أقول له إنِّي أنا التي فضَّلتك عن كلِّ العالم واخترتك، وهي التي فضَّلت العالم عنك واختارت مستقبلها وعلمها، لكن كلاماً كهذا لن يفيد، بل سيزيد

كسري. وضعت رأسي على وسادتي ورحت أبكي، لكن بعد دقائق لم أشعر إلا بيديه تضمانني، وقال:

- كم مرَّة قلت لك، لا أرغب برؤية قطَّتي حزينةً.

أجهشتُ في البكاء أكثر فوضع يده على بطني وقال:

- انظر ماذا تفعل بوالدتك، لم تكن قطَّتي كذلك إلا بعد أن حملت بك.
- مع كامل احترامي، لكنّ والده من يفعل كلَّ هذا بي!
- أخبريني ما الذنب الذي ارتكبته كي أعاقب نفسي؟

يسألني وهو يعلم الإجابة، ويدرك أنِّي لا أجرؤ على مصارحته بشيءٍ، أجبته:

- ذنبك أنِّي أحبُّك..

وللمرَّة الأولى في حياتي أسمعها منه:

- وأنا أيضاً.

أعلم أنَّه لم يستطع أن يحبَّني بعد، قد مرَّ ما مرّ من أشهر وأيام ونحن معاً، وإلى الآن لم يقل لي كلمة "أحبّك" بشكلٍ صريح وواضحٍ، يلفُّ ويدور

في كلامه وفي طريقة دلاله لي ويتحاشى تلك الكلمة دوماً، كما لو أنَّني لا أنتبه، لم أكن أتوقَّع أنَّ قصَّته القديمة قد امتصَّت كلَّ طاقة الحبِّ لديه!

وها هو ذا يقول لي "وأنا أيضاً" دون أن يتبعها بكلمة "أحبُّك"، طبع قبلةً على رأسي كعادته حين يرغب في امتصاص غضبي، توقفت عن البكاء، وأخبرته بأنّي بحاجةٍ إلى الراحة، فبقي بجانبي إلى أن غفوت.

سلام أغسطس 2013

إنَّه اليوم الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر، اليوم الذي سأرى فيه الجنين لأوَّل مرة عبر تصوير الإيكو، لكن حين استيقظنا صباحاً أخبرني آدم بألّا رغبة لديه بالذهاب وأنَّه أوكل مهمّة الذهاب معي إلى والدته!

إحدى أصعب التحديات التي كنتُ أواجهها مع آدم أنَّه يقوم بكلِّ واجباته الزوجيَّة ولكن بمشاعر وأحاسيس متبلِّدة، كما لو أنَّه آلة. كانت الفكرة الأولى التي خطرت لي حين أخبرني بعدم رغبته بالذهاب معي بأنَّ هذه الآلة بدأت تتهرَّب من واجباتها ومع الزمن ستصبح عاطلةً عن العمل!

لم أقل له شيئاً وبقيت صامتةً، إلى أن اقترب الموعد، لم أحرِّك ساكناً وبقيت جالسةً في مكاني أقرأ كتابي المفضَّل لدوستويفسكي، وبعد دقائق استفزَّه هذا الصمت أخيراً وسألني:

- سلام! متى تنوين تبديل ملابسك؟ تنتظرك والدتي في المنزل كي تذهبا معاً إلى العيادة.

أجبته بكلِّ برودٍ:

- لا أنوي الذهاب إلى العيادة، لقد أوكلت والدتي بالمهمَّة بدلاً عني أيضاً.

لم يتمالك نفسه من الضحك وفهم المقصود من تلك الجملة، فاتَّصل بوالدته وألغى الموعد بيننا وارتدى ملابسه وانطلقنا، بالنهاية استطعت إجبار تلك الآلة على أداء واجبها.

وفي غرفة الانتظار، كان هناك كثير من الأزواج، جميعهم كانوا يتحادثون، يطالعون مجلَّات الأطفال ويتناقشون، إلا الآلة التي بصحبتي، وضعت السماعات على أذنيها وأسدلت قبَّعتها على وجهها وغطَّت في نومٍ عميقٍ إلى أن يأتي دورنا.

بدأت بمحادثة نفسي وكعادتي حين أتواجد معه، لا أملك إلا نفسي لأحادثها:

"لا بأس هذا أفضل من أن يضع هاتفه في يده ويبدأ باللعب"

"نعم أفضل بكثيرٍ من أن أحادثه فيجيب بلا أو نعم أو لا يجيب إطلاقاً"

"أجل هذا أفضل من أن يكون مستيقظاً ويحادث جميع أصدقائه على وسائل التواصل ولا يتحدَّث معي، أنا التي بجانبه"

بقيت أحاول إيجاد مبرِّرات إلى أن حان دورنا ونادتنا الممرضة. طرحت عليّ الطبيبة بعض الأسئلة الروتينية ومن ثمّ سألتني وهي تحضِّر جهاز الإيكو:

- أترغبين في سماع نبض الجنين؟

أجبتها بحماس:

- وهل نستطيع ذلك؟
- نعم بالطبع.

نظرتُ إلى الآلة التي معي، فوجدتها كما هي لم يطرف لها جفن، ولكن حين وضعت الطبيبة الجهاز على بطني وبدأتُ بسماع النبضات لأوَّل مرَّة أظهرتْ الآلة مشاعرها وبدأتْ بالتعبير عن نفسها. كان صوت

النبضات سريعاً وواضحاً، تلألأت عينا آدم وشعرت بأنَّه على وشك البكاء، سأل الطبيبة:

- أهي حقَّاً نبضاته؟
- بالطبع!

أجابته الطبيبة وهي تبتسم، فاقترب منِّي، وأمسك بيدي وضغط عليها، ورأيت ابتسامةً عريضةً تعلو وجهه، ثمَّ راح يوجِّه كثيراً من الأسئلة للطبيبة:

هل الطفل بخير؟ هل نستطيع معرفة جنسه الآن؟ متى موعد الولادة المتوقَّع؟

وبينما كانت الطبيبة تجيبه، كان ينظر إليّ نظرات امتنانٍ وعطفٍ ورحمة، لم أرهم من قبل، وساعدني بعدها بالنهوض من الكرسي، وفي المصعد أمسك بيدي وهو يسألني:

- سنصبح أباً وأمَّاً بالفعل!

أجبته وأنا مستغربة:

- هل أدركتَ ذلك للتوّ؟

ضحك وقال لي:

- إيَّاك أن تذهبي إلى موعدٍ مع الطبيبة وحدك أو أثناء عملي! أم أنَّك ستحرمينني من رؤية طفلي؟
- أنا سأحرمك! من الذي لم يشأ الذهاب اليوم؟
- ذلك من الماضي، والذي فات قد مات.

حين قال هذه الجملة، صمتُّ قليلاً، وخطرت ببالي خطيبته السابقة في تلك اللحظة فسألت نفسي: هل ما فات معها قد مات أيضاً؟

وجَّهت كلامي إليه من غير أن أوضِّح سؤالي، وقلت له:

- هل مات فعلاً؟

اصفرَّ وجهه ولعلَّه فهم ما أرمي إليه، فتسمَّر في مكانه وراح يفكِّر، ترك يدي بينما كان قلبه يخفق بشدَّةٍ. في تلك الأثناء وصل المصعد إلى الطابق السفلي، بقيت أحدِّق فيه، لعلَّه يجبني بـ "نعم" لكنَّه لم يقلها. أكره صدقه المبالغ به، ماذا سيضرُّه لو قال لي "نعم". ابتلع ريقه بصعوبةٍ، ونظر إليّ يستجديني أن أعفيه من الإجابة، فلم أقاوم نظراته تلك، أمسكت يده وقلت له:

- لقد وصلنا، هيَّا بنا.

وسحبته من بؤسه وكآبته، وأنا أقول في نفسي: لعلَّ الذي فات في غرفة الإنعاش يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعلى وشك الموت.

من يدري؟!

آدم

سبتمبر 2013

أتى سبتمبر الكئيب، الشهر الذي انفصلتُ به عن جمان، وعلى مدى السنوات الماضية، كنتُ أحيا فصول كآبتي بكلِّ ما أوتيت من قوَّةٍ. أعيد إحياء ذكرياتنا معاً، أسمع أغاني الفراق والهجر، أقرأ الأشعار الحزينة وأحيا كآبتي بلذَّةٍ، ولكن اختلف الأمر في هذه السنة، ليس بزواجي فقط، بل بعيد ميلاد سلام الذي صادف أن يكون في سبتمبر!

حين استيقظت صباحاً لم أكن أنوي أن أفتعل المفاجآت، أو أتظاهر بنسياني للأمر ثمَّ أصدمها صدمة السعادة بتذكُّري له. على العكس تماماً، هنَّأتُ سلام وأخبرتها أن تحضّر نفسها حين نعود من العمل لنخرج للاحتفال في عيد ميلادها، وبالفعل ذهبنا إلى مطعمها المفضَّل وتناولنا الطعام، اخترنا بعدها كعكةً لطيفةً وانطلقنا إلى منزل والديّ كي نحتفل بها معاً هناك، وفي طريق عودتنا تذكَّرت أنِّي لم أحضر لها هديَّةً بعد. ركنتُ السيارة على طرف الطريق كي تنزل سلام قبلي، ولا تضطَّر إلى أن تمشي كثيراً حيث موقف السيارات، وقلت لها:

- سلام، ما رأيك أن تختاري هديَّةً لك من هذا المحل؟ تستطيعين النزول الآن!

خرجت سلام من السيارة، فرحت أنظر يميناً ويساراً محاولاً إيجاد موقف السيارات، وما إن بدأت بالتحرُّك بسيارتي حتَّى رأيتُ سلام على طرف الشارع تلوِّح بيدها إلى سيَّارة أجرة، ثمَّ صعدتْ بها وغابت عن ناظري بين الزحام.

تجمَّدت في مكاني لدقائق لأفهم ماذا حصل!

لِمَ انطلقتْ وحدها وإلى أين؟ ما بها؟! ولِمَ كانت غاضبةً؟

مضت ربع ساعة وأنا في السيارة، أحاول استرجاع ما حدث، لِمَ رحلتْ فجأةً؟ هل ظنّت بأنّي لن أنزل معها؟!

اتَّصلت بها، لكنّها لم تجبني. عدتُ إلى المنزل وأنا غاضب إلى أبعد حدٍّ، فبعد أن أجبرت نفسي على الابتهاج لأجلها، وخرجت معها رغم عدم رغبتي بذلك، تفعل بي ذلك!

فتحت باب المنزل وناديتها بغضبٍ:

- سلام! سلام! أين أنت؟

لم يجبني أحد، بحثتُ في الغرف، فلم أجدها. اتّصلت بها مجدداً، فإذا بهاتفها يرنُّ في المنزل، يبدو أنّها لم تأخذه معها بالأساس.

كان عليّ أن أتصرَّف سريعاً، يجب معرفة أين سلام!

قلت في نفسي، لا بدَّ أنَّها في منزل أهلي، فاتَّصلت بوالدتي، كنت على ثقةٍ كبيرةٍ من أنَّ سلام هناك، فسألتها:

- هل وصلت سلام؟
- لا، هل هي في طريقها إلى هنا؟
- لا أعلم، كنَّا معاً وعلى وشك القدوم إليكم.
- أين زوجتك آدم؟ أهنالك ما تخفيه عنِّي؟
- صدقِّيني لا أعلم، سأتَّصل بكِ بعد قليلٍ.

أقفلتُ الخط ولم تسعفني قدماي فجلست على الأرض، أصابني الذعر بشكلٍ مفاجئٍ، وشعرت أنَّ الأمر لن يمرَّ مرور الكرام. اتَّصلتْ بي والدتي مرَّة أخرى.

- آدم أخبرني ما الأمر؟

أخبرتها بما حصل بيننا، فقالت:

- هي أمانةٌ استودعها أهلها عندنا، حفظها الله وحماها من كلِّ مكروهٍ، لا حول ولا قوَّة إلا بالله، ماذا سنفعل الآن؟ أين سنبحث عنها؟
- سأتَّصل بأصدقائها وبعمر.
- أخبرني بكلِّ ما يستجد معك أرجوك.
- حسناً، دعواتك يا أمِّي.

حاولت أن أتذكَّر من هنّ صديقات سلام، فلم أجد اسماً واضحاً في ذهني، اتَّصلت بجود لأسألها إن كانت عندهم، ولتخبرني بأسماء أصدقاء سلام في حال لم تكن هناك، لكن بعد أن اتَّصلت وتبيّن لي أنَّها ليست هناك، حاصرتني جود بالأسئلة، وأخذ الحوار منحىً جديَّاً، فاستلم عمر الكلام عن جود وهو في أوجّ قلقه، وقال:

- أين سلام؟ كيف لا تعلم أين زوجتك؟

- قلت لك، لا بدّ أنَّه سوء تفاهم.
- منذ متى افترقتما؟
- منذ ساعتين تقريباً.
- ولِمَ لم تتَّصل بي حالاً، ألستُ أخاها؟
- لا تلمني الآن، وأخبرني ماذا علينا أن نفعل؟
- انطلق حالاً إلى منزل أهلها، وسأراكَ هناك.

وانطلقت فعلاً، كان لديّ نسخة من المفاتيح، أخذتها معي، في طريقي كنت أفكِّر كم أنَّ سلام وحيدة ومعزولة، أيعقل ألّا صديقة واحدة لها هنا! لا بدَّ أنَّها متعبةٌ من العزلة والوحدة في عالم اقتصرته على شخصٍ عديم الفائدة مثلي! امتلأت عيناي بالدموع بينما كنت أقود سيارتي باتِّجاه منزل أهلها، كنت أشعر بخوفٍ وندمٍ وقلقٍ لم أشعر به في حياتي كلّها. وصلت إلى المنزل فوجدت عمر ينتظرني أمام الباب، وقال:

- لقد طرقته كثيراً، لم ترد، هيَّا حاول فتحه علَّها بالداخل.
- حسناً!

دخلنا وبحثنا عنها في البيت، لكنَّها لم تكن موجودةً. انطلقنا بعدها إلى الاستيديو، ولم نجدها، حينها سألني عمر:

- هل أخذت رقم سيارة الأجرة تلك؟

- لا، لم أفهم ما حدث حينها فلم أكن سريعاً بما فيه الكفاية.
- إذن هيَّا نسأل عنها في المستشفيات ومراكز الشرطة.

صعد عمر معي في سيارتي وانطلقنا، وبعد مرور ثلاث ساعات، لم نجد لها أي أثر، لكن وضعنا اسمها وأرقام هواتفنا في كلِّ تلك الأماكن كي يتَّصلوا بنا في حال وصلتهم أي معلومات عنها. حين سألني الشرطي في مركز الشرطة العامّ عمَّا كانت ترتديه سلام اليوم كي يعمِّم مواصفاتها، فكَّرت طويلاً، وببساطةٍ أجبته: "لا أعلم".

لم ترحمني نظرات عمر في تلك اللحظة، نظر إليّ بحنقٍ شديدٍ، وما إن خرجنا وابتعدنا عن مركز الشرطة، حتَّى لكمني على وجهي، وقال:

- أيُّها الأحمق، ألا تنظر إليها حتَّى؟ وتستغرب لماذا هربت منك، تبَّاً لك!

لم أدافع عن نفسي ولم أدفعه عني، كما لم أجبه بشيءٍ، فأمسكني من طرف قميصي بيديه وقال لي وعيناه مليئة بالدموع:

- هي أمانة في أعناقنا، ألا تفهم؟

شدَّ ملابسي ومن ثمَّ دفعني بعيداً عنه. يعتبرها الجميع أمانةً في عنقه، ماذا عني أنا زوجها! ألستُ أحقّ بهذه الأمانة؟ ماذا فعلت لأحفظها؟! سألته، متناسياً ما فعله بي:

- إلى أين ستذهب؟
- البيت الريفيّ.
- لكنَّه على بعد ساعتين.

نظر إليّ وصرخ في وجهي مجدداً

- وهل لديك حلٌّ آخر؟!

لم أردّ، أعطيته مفاتيح السيارة، فجلس للقيادة ومضينا. اتَّصلت بوالدتي، طلبت منها أن تذهب إلى منزلي لتخبرنا في حال عادت سلام إلى هناك. ومرَّ عمر إلى منزله فأخذ مفاتيح بيت عائلتهم الريفيّ، وبعد مرور ساعتين من الصمت الكامل، وصلنا إلى المنزل، ومجدَّداً لم نجد أحداً.

ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها! هل اختُطفت؟

وفجأة، خطر ببالي خاطرٌ سيّءٌ جدّاً، فارتعدت أطرافي، أيمكن أن تكون قد فعلت بنفسها شيئاً ما؟

لم أستطع أن أظلَّ واقفاً في تلك اللحظة، فارتميت على حافَّة الطريق أمام المنزل الريفي، في وسط الظلام، وأنا في قمَّة اليأس. جلس بجانبي عمر، لكن هذه المرَّة من غير أن يتكلَّم. تذكَّرت منشوراً كتبته سلام على الفيسبوك منذ بضعة أيام، لم أعره انتباهاً حينها، وهي مقولة مقتبسة على

ما أظنُّ: "يحدث أن تصادف امرأة رجلاً محطَّماً وتقرِّر أن تجعل منه رجلاً سويَّاً، إنَّها تنجح في ذلك أحياناً، ويحدث أن تصادف امرأة رجلاً سوياًّ، وتقرِّر أن تجعل منه محطَّماً إنَّها تنجح في ذلك دائماً".

بالفعل نجحت جُمان في جعلي محطَّماً بامتياز، ولكن هل نجحت سلام في لملمتي؟ يبدو ومن جهة نظرها أنَّها لم تفعل، ومن الأكيد أنِّي أنا من حطَّمها.

سألني عمر:

- ها قد مرَّت نحو ست ساعات على اختفائها، هل نتَّصل بأهلها، لعلّ والدتها تدلُّنا على خيطٍ ما؟
- ماذا سأقول لهما بالله عليك وهم على بعد آلاف الأميال؟ لا أجرؤ على إخبارهما بالأمر، فكِّر أرجوك، جد لنا حلَّاً.

صمتنا قليلاً، ثمَّ سألني عمر:

- اصدقني القول ولن أغضب ولن أتدخَّل أعدك بذلك، ماذا فعلت لها؟

أجبته باستسلامٍ:

- قلت لك، أقسم لم أفعل لها شيئاً اليوم!

- ماذا تقصد بقولك "اليوم"؟

لم أردّ، فالشرح يطول، والقصَّة معقَّدة وبات كلُّ شيء مُزعجاً. فأكمل أسئلته:

- آدم، هل الأمر مرتبطٌ برؤيتك لجُمان؟

كنت أعلم أنَّه سيصل إلى تلك النقطة، أجبته:

- لا أعرف بماذا تفكِّر سلام، وما الذي أغضبها! وهل هو موقفٌ واحدٌ الذي أزعجها أم أنَّها تكتم شيئاً في قلبها! أهو سوء تفاهم، أم أنِّي ارتكبت خطأً من غير قصد؟ صدِّقني لا أعلم!
- ولِمَ لم تصطحبها معك يوم لقاء الدفعة؟
- عمر، لا تتعامل معي مثل المحقِّق الآن! أنا مُرهق للغاية.
- أجبني، منذ ذلك اليوم وأنا أحتاج إلى إجابةٍ واضحةٍ، وأتتني الفرصة الآن لأسأل، فأجبني.
- لم تشأ هي الذهاب، اتَّصلت بي وأخبرتني برغبتها في المكوث مع ربيع، لِمَ عليّ أن أضغط على الفتاة في أمرٍ لا ترغب بفعله؟
- تودُّ إقناعي بما توهم به نفسك، أتراني غبيّاً إلى هذا الحدّ؟
- صدِّقني، شعرت أنَّه من الأفضل لها البقاء بعيداً عن أيِّ نظراتٍ أو كلماتٍ، لا أعني نظرات حبٍّ أو كلمات غرام، لا. عمر

افهمني، لم تعدّ جُمان تعني لي شيئاً، ولمعلوماتك، ودون دخول في تفاصيل، لقد فُتح لي المجال لأن أتواصل معها قبل زواجي، لكن أنا من قطعته، لا نيَّة لدي في استرجاع مشاعري مع جُمان، لكنِّي بشر وأحاول دوماً، ولست مضطَّراً إلى شرح هواجس نفسي، ألا توافقني الرأي؟

تنهَّد عمر، ثمَّ قال لي:

- أنت لم تحب سلام بعد؟ أليس كذلك؟
- للحبِّ أشكال عديدة، بلى أنا أحبُّ سلام!

صمتنا مجدَّداً، بدأ عمر بعدها بسرد قصص طفولته مع سلام وكم لها من الذكريات في قلبه، وفي حديثه تذكَّر فجأةً منزل جدّهم الأكبر في الأحياء القديمة، فأكمل كلامه:

- هو منزلٌ عربيٌّ قديمٌ ومهجورٌ تعود ملكيته لعائلة سلام، لم يُرمَّم لذا لا يذهب إليه أحد، لطالما أحبَّته سلام، أعتقد أنّه الاحتمال الأخير!
- هل نجلب المفاتيح أوَّلاً؟ ومن أين؟
- ليس لديّ أي نسخة عنها، ولا أعلم أين نجدها، دعنا نذهب إلى هناك حالاً وحينها سنرى ما سنفعل.

انتفضنا وانطلقنا مباشرة، وقدت السيارة في هذه المرَّة، أشفقت على عمر من التعب كما أنِّي لن أحتمل رؤية عمر يقود بالسرعة العادية ملتزماً بالقانون وغير متجاوزٍ لحدود السرعة في ظرفٍ كهذا، قدتُ كالمجنون حتَّى وصلنا إلى هناك، وحين وقفنا أمام الباب لم أقوَ على الحراك وشُلَّت حركتي حين رأيت النور يخرج من إحدى الغرف العلوية للبيت، فكَّرت ماذا إن وجدناها وقد فعلت بنفسها شيئاً؟!

قرع عمر الباب، مرَّة واثنتين وثلاثاً، ولم يجب أحد، بقينا نضرب الباب ونصرخ "سلام افتحي" قرابة الخمس دقائق، ثمَّ نظر إليّ عمر نظرةً مفادها أن نخلع الباب، فوافقته.

ابتعدنا معاً عن الباب، وبقوَّة رجلٍ واحدٍ، كسرنا الباب، شعرت بأنَّ كتفي كاد أن يتحطَّم، وما إن أصبحنا داخل البيت، حتَّى هرعنا إلى الدرج وصعدنا، وحين وقفنا أمام باب الغرفة المُنارة، طرق عمر الباب بهدوءٍ وهو يناديها:

- سلام! هل أنتِ في الداخل؟ سلام! هل نستطيع الدخول؟

وحين لم نسمع أي رد، انهرتُ من البكاء، فأشفق عليّ عمر وقال لي:

- سأفتح الباب أنا، تمالك نفسك، ستكون سلام بخيرٍ، أنا واثقٌ من ذلك.

فتحه وهو يمسك بيديّ كالطفل الصغير، أمَّا أنا فقد أملت رأسي ولم أجرؤ على النظر، قال لي بهدوء وهو يدخل إلى الغرفة:

- هي نائمةٌ، لا تقلق!

رفعت رأسي فوجدت سلام نائمةً على الأريكة دون أن تغطِّي نفسها بأي بطانية، والكحل على خدودها من كثرة الدموع. اقتربت منها وتأكَّدت من أنَّها تتنفَّس بطريقةٍ طبيعيةٍ، وقلت لعمر:

- سأنتظرها إلى أن تصحو.

جلست ووضعت رأسها على حجري. تفهَّم عمر الوضع وقال:

- حسناً، سأنتظركما في السيارة.

أومأت له بالإيجاب ومضى. وضعت معطفي عليها وبقيت أتأمَّلها لنصف ساعة تقريباً وأنا أداعب خصلات شعرها الخرنوبي المجعَّد، وفجأة استيقظت سلام وحين رأتني بدت خائفةً من ردَّة فعلي فابتعدت عنِّي، نظرت إليها نظرة معاتبٍ، ثمَّ ضممتها إلى صدري، بكيت خوف فقدانها، بكيت تخاذلي معها، بكيت الأمانة التي لم أستطع حملها، وبكيت كلَّ شيءٍ.

- كيف فعلتِ بي ذلك؟ كدت أن أموت من خشيتي عليكِ.

- عليّ أم على الطفل؟
- سلامي إن لم تكوني أنت بخيرٍ فلا شيء بخيرٍ، لا أنا ولا الطفل، أنتِ وحدك من تحاولين سحبي من قاعِ نفسي، أنت التي تجاهدين للملمة جراحي، أخبريني هل تتخلين عنِّي في نصف العلاج؟ كيف ستتركين مريضك هكذا؟ هل هنت عليكِ إلى تلك الدرجة؟ ألهذه الدرجة أتعبتك واستنفدت طاقتك؟

صمتت وغلبتها الدمعة، فتابعت حديثي:

- سلام أحتاج إليك، أرجوكِ ابقي معي ولا تتخلّي عنِّي. أعلم أنِّي أنانيٌّ معك وأنَّك تستحقِّين الأفضل، أعلم أنِّي إلى الآن لم أعطِك حقَّك من الرعاية والاهتمام، أعلم أنَّك تخلَّيتِ عن كلِّ شيءٍ لأجلي، أعلم كلَّ شيءٍ وممتنٌ أنا لذلك، ولكن أرجوكِ أكملي صنيعك واستمرِّي في حبِّي إلى الأبد.
- ومن قال لك سأتخلَّى عنك؟ لكنِّي خفت على نفسي وعلى طفلي في هذه الفترة لذا آثرت الابتعاد عن طيش تصرُّفاتك وقسوتك الغالبة في تعاملك معي.
- سلامي، لم أكن كذلك صدِّقيني، أعيديني إلى أصلي جميلاً، سامحيني، أرجوك!

ابتسمت، فسألتني:

- كيف عثرت عليّ؟
- آه عمر، نسيته، هو ينتظرنا في الخارج، هيَّا بنا المسكين منذ ساعات وهو معي نبحث عنك.

وحين نهضت سلام وقع شيءٌ على الأرض، فانتشلتْه سريعاً، أمعنت النظر فإذا هو "رشاد"، أرنبي التافه. تساءلت في نفسي: منذ متى والأرنب معها، أتستمدُّ منه الحنان في مواقفٍ كهذه، حين أخذلها أنا؟!

سلام فبراير 2014

بدأت السنة الجديدة، ومضت أغلب شهور الحمل، كنت أتحدَّث مع والدتي كلّ يومٍ ولكن أرتدي قناع السعادة فلا رغبة لي بإثارة قلق والديّ على ابنتهما الوحيدة، كما أنَّ والدتي وعدتني أنَّها ستأتي حالما يحين شهري التاسع لتكون بجانبي أثناء ولادتي. في الوقت ذاته كانت مخاوف آدم وقلقه عليّ تزداد يوماً بعد يومٍ، فبات يراعي مشاعري، وأصبح تعامله معي أكثر لطفاً عمّا ذي قبل. وفي مرّةٍ عاد من عمله وكنت أتحدَّث مع والدتي. أخذ الهاتف منِّي ليحادثها، هنا دخلت في حالةٍ من الخوف، خوفي أن يخبرها عن حالتي النفسيَّة السيئة، أو عن هروبي منه، فنظرت إليه نظرة فيها كثير من اللؤم والرجاء في الآن ذاته، ولكن أخذ الحديث مساراً غير الذي كنت أتوقَّعه، مساراً جعل قلبي يخفق لآدم، ولضحكة آدم، ولكلمات آدم. في تلك الأثناء كان أبي يجلس بجانب والدتي، فأخبرهما آدم برغبته في تسمية الطفل "محمَّد" على اسم أخي المتوفَّى رحمه الله، هنا بدأت والدتي بالبكاء وراحت دعوات والدي تصدح عبر الهاتف.

شعرت بعد هذه المكالمة بمحبَّة آدم لي ومحاولته للبحث عن وسائل لإسعادي. بعد ذلك بدأت استجماع نفسي أكثر، حاولت تقبُّل مبادرات

آدم لتحسين العلاقة بيننا، وبالفعل مضت الشهور الأخيرة من حملي على خيرٍ. إلى أن اقترب موعد ولادتي وبدأ شهري التاسع. خلال الأسبوع الأوَّل منه كنت أحادث والدتي يوميًّا لأسألها عن موعد حجزها وقدومها، لكنَّها كانت تماطلني في الحديث. وفجأة غيَّرت لهجتها، وبدأت تقترح عليّ القدوم إلى كندا.

- أمِّي كيف سآتي وأنا في شهري التاسع؟
- ما تزالين في بدايته، تستطيعين القدوم والولادة هنا.
- أمِّي أرجوك أخبريني الحقيقة هل والدي بخير؟
- نعم بخيرٍ ألم تتحدَّثي معه منذ قليل؟!
- بلى! ولكنِّي لا أفهم سبب عدم رغبتك بالمجيء!
- سلام، لا أريد ترك والدك وحده، ثمَّ لم يعد عمري يحتمل السفر والمشقَّة وحدي.
- أمِّي، لم يكن هذا اتِّفاقنا، منذ متى وأنت تعتبرين السفر مشقَّةً؟ كنتِ تزورينني في أوقات دراستي كلّ ثلاثة أشهر.
- الوضع مختلفٌ الآن، كما أنَّ لديك آدم بجوارك.
- أفهم من كلامك هذا أنَّك لن تأتي؟!
- لا تحرِّفي الحديث، أنت التي لا رغبة لك بالولادة هنا.
- لا أستطيع تحمُّل مسؤوليَّة الولادة بعيداً عن آدم.

- لِمَ لا يأتي معك؟
- تعلمين أنَّه لن يستطيع تحصيل التأشيرة إلى كندا في غضون أسابيع، فالأمر مستحيل.
- نعم، معك حق.

أغلقت الهاتف بعد ذلك، وقد أدركت أنِّي قد أخوض معركة الولادة بعيداً عن والدتي، وتأكَّد شعوري ذاك وبات أمراً محتَّماً حين استشرت طبيبتي، فهي لم تنصحني بالسفر، لا سيَّما إلى مكانٍ بعيدٍ، لأنِّي قد ألد في أي لحظةٍ، وسيكون الأمر خطيراً جدَّاً.

الفصل الرابع

سلام

مارس 2014

- أما تزالين تشعرين بالألم؟

أمسك آدم يدي وهو يسألني للمرَّة الألف، فأجبته:

- نعم، لكنَّه محتمل.
- كيف سنعلم إن كان طلقاً حقيقيَّاً أم لا؟
- لا أعلم، لكن إن عاودنا الذهاب إلى المستشفى، ستوبُّخنا الطبيبة ككلِّ مرَّةٍ.
- وليكن ذلك، لم يجبرها أحد على أن تصبح طبيبة نسائية، عليها أن تحتمل جهل العامَّة أمثالنا.

ضحكتُ وأنا أتألَّم، فمنذ أربعة أيام وأنا وآدم لا نتوقَّف عن الذهاب إلى المستشفى كلّ ثلاث ساعات، فآلام تشبه الطلق تلازمني منذ أسبوع، وأنا إلى الآن لا أعلم الفرق بين الطلق الحقيقي والتقلُّصات العاديَّة. فالطبيبة مصرَّة أنَّ الطلق الحقيقيّ واضحٌ جدّاً.

- أتودِّين شرب الشاي بالقرفة مجدَّداً؟
- لا، أشعر بعدم الراحة، أودُّ الاستلقاء على سريري قليلاً.

دخلت إلى غرفة النوم، لكنّي لم أستطع أن أتمدَّد، فلم يعد الألم يُطاق.

- ماذا وضعتَ لي في الطعام؟ تؤلمني معدتي جدَّاً.

سألته وهو في غرفة الجلوس، فأجاب من بعيد:

- وضعت حبِّي، أهو ثقيلٌ إلى تلك الدرجة؟

لم أستطع أن أردَّ على مزحته تلك، أمسكت بطني التي شعرت كما لو أنَّها تتمزَّق. لم تمرّ دقيقةٌ حتى شعرت كأنِّي على وشك الولادة وأدركت أنَّ هذا هو الطلق الحقيقيّ، تبّاً، لقد كانت الطبيبة محقَّة، فالطلق الحقيقي لا يخفي نفسه. ناديت:

- آدم، أشعر أنَّ الأمر أصبح وشيكاً بالفعل.

لكنَّه لم يسمعني، عاودت الصراخ مرَّات عديدة، إلى أن أتى ورآني على الأرض ممسكةً ببطني وأكاد أن أموت من الألم.

- سلام! ما بك؟
- خذني إلى المستشفى حالاً، إنَّه الحقيقي صدِّقني.

انتفض من مكانه وانطلقنا إلى المستشفى، في الطريق كانت وتيرة التقلُّصات تزداد ويزداد معها مستوى الألم، كنت أصرخ بأعلى صوتي بينما أمسكت بيد آدم اليمنى، وراح يقود بيده اليسرى.

وصلنا وحين رآتني الطبيبة عن بعدٍ أدركت من هيئتي ومن صراخي أنَّ هذه المرَّة سألد فيها فعلاً. أدخلوني مباشرةً إلى غرفة المخاض، حاولت السيطرة على أعصابي لكن من دون فائدة، كان ألم كلّ طلقةٍ يفقدني صوابي. لم يعطوني أي شيءٍ لتخفيف ذاك الألم، بالأحرى لم يقبل آدم أن آخذ أي شيء، فقد قرأ فقط عن الأعراض الجانبيَّة التي يمكن أن تتسبَّب بها الحقنة المسكِّنة للألم ولم يأخذ الجانب الإيجابي ويقرأ عن الألم الذي تخفِّفه أو ربَّما تنهيه، وبالطبع شدَّت والدتي على رأيه ووافقته، في النهاية لم أعد أحتمل، صرخت بآدم أني سأتهوَّر إن لم ينادِ للطبيبة لإعطائي الحقنة، وفعلاً نادى آدم لإحدى القابلات ليخبرها عن قرارنا باللجوء إلى الحقنة لتخفيف آلام المخاض، لكن كان الوقت للأسف متأخِّراً، فقالت لنا القابلة أنِّي على وشك الولادة بالفعل ولن تجدي الحقنة أي نفعٍ الآن.

في اللحظات الحاسمة للولادة، كان لسان آدم يلهج بذكر الله، لطالما كانت هذه حالته في أوقات الشدَّة، أمَّا أنا فلم يلهمني الله بأي شيءٍ حتَّى أنّي نسيت الدعاء لوالدي بالشفاء في تلك اللحظات، طبعاً لاحقاً علمت أن دعاء المرأة وهي على وشك الولادة يعتبر من الأدعية المستجابة بإذن الله، فقط وفي نهاية مخاضي صرخت:

- يا الله ليس لي سواك ساعدني يا رب!

ومن ثمَّ سمعت صوتاً يدوي، طلبت الطبيبة من آدم أن يقصّ الحبل السريّ، أمسكه وهو يرتعد وقصَّه بالفعل، ثمَّ أعطوني محمَّداً الصغير، وضعته على صدري خمس دقائق ثمَّ أخده آدم منِّي وأذَّن في أذنه وأكملوا إجراءات الولادة لي. أثناء ذلك اقترب منِّي آدم بينما كنت أتأوَّه من الألم، وطبع قبلةً على جبيني ولكن هذه المرَّة أتبعها بالجملة التي انتظرتها لسنواتٍ طويلةٍ، قال لي: "أحبُّك يا قطَّتي!"

ابتسمت وأنا في قمَّة تعبي، وانتهت الولادة على خيرٍ وسلامةٍ. لم تكن الولادة هنا لتشبه الولادة في كندا إطلاقاً، فعلى مدار ثلاثة أيامٍ متتالية استقبلت حماتي الضيوف للمباركة، زيَّنوا الغرفة في المستشفى وحضَّروا الهدايا والحلويات وكثيراً من التفاصيل الأخرى، وبعد خروجي من المستشفى بأسبوعٍ أقاموا حفلاً آخر وهو عقيقة الطفل، لم يحتمل عقلي كلّ هذه الاحتفالات والأفراح خاصَّة أنَّ والديّ لم يكونا معي وما يزال الغموض يحاوط حالة والدي الصحيَّة، كما أنِّي كنت مرهقةً وأودُّ فقط الاسترخاء.

أمَّا آدم كان فقد كان على النقيض منِّي تماماً، فرحته لا تسعه مع وجود محمَّد الصغير، كنت واثقةً من أنَّ آدم سيكون الأب الحنون والمتفهِّم والمتعاون، فهو عاطفيٌّ بشكلٍ كبيرٍ، لكنِّي لم أتوقَّع أنَّه يحبُّ الأطفال إلى هذا الحدّ! كان يستيقظ على بكاء محمَّد ويحضره لي، يصوِّره كلّ يومٍ، وأنا

أمه المختصَّة بالتصوير، لم يخطر على بالي أن أصوِّره كلّ يوم لأراقب تطوُّره. وبعد أن أتمَّ محمَّد أسبوعه الثالث، لم أعد أحتمل البعد عن أهلي، بينما راحت أمِّي تُظهر لي كلّ يوم حجَّةً جديدةً لعدم مجيئها، ورغم إدراكي لتعلُّق آدم بمحمَّد إلا أنَّني قرَّرت السفر وأخبرت آدم بهذا القرار. دعمني آدم بقرار السفر، واعتذر عن عدم مرافقته لي وذلك لصعوبة تحصيل التأشيرة بهذه السرعة، وانشغاله بعمله في المقام الأول.

إحدى الأمور التي أعشقها بآدم، أنَّه ينزل عند رغبتي في كثيرٍ من الأحيان، فيرجِّح مصلحتي على مصلحته، لذا كانت موافقته سهلة، كانت حماتي هي الأكثر امتعاضاً لأنَّها ستُحرَم من رؤية محمَّد ولكنَّها لم تزعجني بأي كلمةٍ، إنَّما كان الامتعاض واضحاً على معالم وجهها.

سلام أبريل 2014

لم يكن السفر سهلاً عليّ هذه المرَّة، فالسفر بصحبة رضيعٍ لا يشبه السفر العادي، أنا الآن مسؤولة عنه وعن جميع أموره، وآدم ليس معي ليساعدني، لو كان معي لخفَّ ذلك الحمل عليّ، هذا إن كان هنالك أي حمل من الأساس. طوال رحلة الطيران كنت أذرف الدموع، أفكر ما هذا الذي اخترته لنفسي؟! عمري اثنان وعشرون عاماً وأحمل رضيعاً معي وكأنِّي طفلة تحمل طفلاً. أعلم أنِّي لست صغيرةً أو قاصراً، لكن لا توجد أي فتاة من صديقاتي قامت بخطوةٍ مثل خطوتي، تزوَّجت وأنجبت.

حين هبطت الطائرة، وخرجت من المطار كانت والدتي بانتظاري، وما إن رأيتها حتّى تبدَّلت أفكاري السوداوية، وغمرني شعور الاطمئنان والراحة، ولكنَّه للأسف لم يدم طويلاً، فحين وصلت إلى المنزل لم أرَ والدي، كنت أعلم أنَّ هنالك خطبٌ ما ولكن لم أكن أعلم أنَّ حالة والدي تستدعي المبيت في المستشفى. أخبرتني أمِّي بالحقيقة أخيراً وكيف أنَّهم اضطّروا إلى نقله إلى المستشفى الأسبوع الماضي بعدما فقد وعيه. صحيحٌ أنِّي تحدَّثت معه الأسبوع الماضي ولكن في كلِّ مرةٍ يخبرني أنَّ كاميرا هاتفه معطَّلة ولا يستطيع تشغيلها. ذهبنا إلى المستشفى، كانت

سعادة والدي لا توصف بمحمَّد حتَّى أنَّ الدموع بدأت تنهمر من عينيه، وأقسم أنَّه يشبه أخي محمَّداً -رحمه الله- وحينها بدأت دموعي بالانهمار ولم أستطع السيطرة على نفسي وبدأت بالبكاء أيضاً فليس من السهل أن أرى والدي على سرير في المستشفى.

بعد هذا اللقاء طلبت منِّي والدتي العودة إلى المنزل مع محمَّدٍ وأخبرتني بأنَّها هي من ستبقى مع والدي، لكنِّي لم أقبل بهذا الحلّ، ذهبت إلى أقرب صيدلية واشتريت آلةً لسحب الحليب، سحبت كميَّةً جيِّدةً من الحليب وأعطيته لوالدتي وبقيت مع والدي. كانت من أصعب ليالي العمر عليّ، ابتعادي عن محمَّد وهو ما يزال في شهره الأول، حالة والدي ومرضه، وكلّ تلك المسؤولية التي بقيت على عاتق والدتي، لم يتسنَّ لي التفكير في آدم إطلاقاً أو الاتِّصال والاطمئنان عليه، لم أتذكَّره إلا حين رأيت هاتفي يومض باسمه في الساعة الواحدة ليلاً، أجبته:

- سلام آسف على الإزعاج والاتِّصال في هذا الوقت المتأخِّر من الليل ولكن صدِّقيني تجاوز قلقي عليكم كلَّ شيءٍ.
- لا عليك آدم فأنا مستيقظة.
- وهل محمَّد هو من أيقظك كعادته؟!

هنا لم أعد أحتمل نفسي وبدأت بالبكاء، وقلت له:

- محمَّد ليس معي، اطمئن هو بخيرٍ مع والدتي في المنزل، وأنا في المستشفى مع والدي، حالته سيِّئة جدًّاً.

أخبرته بكلِّ ذلك دفعة واحدة حتَّى لا تساوره أي شكوك حول حالة محمَّد، بعدها بدأ آدم بالدعاء لوالدي بالشفاء وبقي معي على الهاتف قرابة الساعة، أنا أبكي وهو يحاول مواساتي بكلماته ودعائه.

بعدها مرَّ شهران على هذه الحال، أتناوب أنا ووالدتي بين المستشفى والمنزل مع محمَّد وأبي، لم أشأ أن أعرِّض محمد إلى أجواء المستشفى، كان والدي يرى حفيده ساعة التبديل بيني وبين والدتي، كانت تلك الساعة المفضَّلة لنا جميعاً عندما نجتمع أربعتنا، كما أنَّ آدم كان يحاول الاتِّصال في تلك الأوقات ليطمئنَّ على والدي ويكلِّم والدتي ويواسيها ويضفي شيئاً من المرح على الاجتماع، في بعض الأحيان كنت أنسى أنَّنا في المستشفى خلال تلك اللحظات.

لكن لم يستمر الحال على ما هو عليه، فما إن أصبح محمَّد في شهره الرابع حتَّى بدأ آدم يتململ ويحدُّثني عن مدى اشتياقه لمحمَّد، واستيائه من تفويت أجمل لحظات تطوره، لذا قطعت الطريق عليه من البداية وأخبرته أنِّي لن أعود حتَّى يخرج والدي من المستشفى، حتَّى لو استغرق الأمر سنة أو سنتين.

- ولكن هذا ليس اتِّفاقنا.
- مع كامل احترامي، لكن هل تسمع أذناك ما يقوله لسانك؟
- نعم أسمع وأخبرتك منذ البداية أنِّي لا أستطيع السفر، وأنتِ تعلمين ظروفي.
- أي ظروف تلك التي أعلمها؟ ألا تراعي مرض والدي؟ هل كان اتِّفاقنا من الأصل أن يمرض والدي وتسوء حالته؟ إذا كان لديك اعتراض فلتقدمه للقدر وليس لي.
- سلام ما هذا الكلام أستغفر الله، أرجوك راجعي نفسك.
- أنت من عليه أن يراجع نفسه.
- كلانا الآن سيء المزاج ولن يقودنا هذا النقاش إلى أي نتيجة، تملكين كلَّ الحق في الغضب منِّي ولكن أرجوك حاولي تفهُّم وضعي، أنا أبٌ لم يرَ ابنه سوى ثلاثة أسابيع، سوف أغلق الهاتف الآن، وسنجد حلَّاً قريباً.
- آمل ذلك ولكن كما أخبرتك لا تحلم بمغادرتي كندا إلى أن يعود والدي إلى المنزل.

آدم يوليو 2014

بعد غياب ثلاثة أشهر عن طفلي الرضيع أيقنت أنَّ سلام لن تعود إلى البلد ووالدها في هذه الحالة الصحيَّة السيئة، لذا أذعنت بالنهاية وباشرت بإجراءات التأشيرة والسفر، كان حصولي على التأشيرة سهلاً للغاية بما أنَّ زوجتي وطفلي يحملان الجنسية الكندية. كان الجميع يغبطني على حصولي على التأشيرة بهذه السرعة، لكن قليلاً منهم من يعلم أنِّي لم أسعَ إليها سوى لرؤية ابني وزوجتي وأنِّي أفضِّل عودتهما، لا سفري أنا. ولكن لا أستطيع إلا تلبية رغبات سلام في هذه الفترة الحرجة. لقد اشتقت إليها حقَّاً، أدركت كم أنا متعلِّقٌ بها وأحبّها بالفعل بعد ابتعادها عنِّي، ووقت ولادتها بالذات علمت مقدار أهميتها وحبّها في قلبي، فحين كانت تعاني من آلام المخاض كان قلبي يعتصر عليها، إن لم يكن هذا حبَّاً فماذا يكون!

بحمد الله، وافق مديري على منحي إجازة طويلة مدَّتها أربعة أسابيع، رغم عدم وجود من يحُلُّ مكاني خلال تلك الفترة، إلا أنَّه تفهَّم الأمر بعدما شرحت له تفاصيل أزمة مرض عمِّي، وسافرت أخيراً، وحين وصلت إلى كندا توقَّعت أن تكون سلام ومحمَّد بانتظاري في المطار، لكن للأسف لم يأتيا، وكانت والدة سلام وحدها من تنتظرني. أخبرتني أنَّ

سلام ومحمَّد ينتظران في المستشفى مع عمِّي، وأنَّ سلام لم تستطع ترك والدها.

وبالفعل ذهبنا إلى المستشفى ورأيت سلام ومحمّد، كانت سعادتي لا توصف برؤيتهما معاً بخيرٍ وعافيةٍ. ضممت محمَّداً إلى صدري ولكنَّه سارع إلى البكاء واستنجد بوالدته، حزَّ هذا في قلبي، بات محمَّد يبكي عند رؤيتي، لا ذنب لأحدٍ منَّا في ذلك ولكن هذا البكاء أوجع قلبي حقّاً، كانت الأسابيع الثلاثة الأولى التي قضيتها مع محمَّد بعد ولادته هي أحلى أيام حياتي كلّها، صحيح أنِّي -وبشكلٍ عامٍ- أحبّ الأطفال والتعامل معهم ولكن يبقى طفلك مختلفاً عن الجميع، تبقى كل الآمال والأحلام له، كلّ الطموحات، كلّ السعادة الموجودة في هذه الدنيا ترغب في أن تكون له، كلّ الأخطاء التي ارتكبتها في حياتك تتمنَّى ألا يرتكبها طفلك، كلّ الإحباط الذي أصابك في هذه الحياة تتمنَّى ألا يصيبه أي شيءٍ منه، هو الوحيد الذي تتطلَّع إلى أن يسبقك ويكون أفضل منك بآلاف المرَّات، هو الوحيد الذي ستفكِّر به قبل أن تفكر بنفسك.

وبعد مرور أسبوعين بدأ محمَّد يعتاد تواجدي ويألفني شيئاً فشيئاً، إلا أنَّ سلام كانت تبتعد أكثر وأكثر، فمنذ معرفتها بحالة والدها وسلام لم تعد سلام التي أعرفها، لم يكن حديثي معها يعنيها، لا تفتح أي أحاديث

معي إلا إن كانت بخصوص حالة والدها وأحياناً بخصوص محمَّد، في مرَّة حاولت مفاجأتها والذهاب معها إلى مطعمٍ مجاورٍ، لكنّها سخطت وأبدت استياءها، فمن وجهة نظرها كيف أفكِّر بذلك ووالدها في هذه الحالة.

كلّما أدرت أغنية في مسجّل السيارة سارعت هي إلى إسكاتها، فلا يحقُّ لنا سماع الأغاني ووالدها في هذه الحالة. لقد كانت حالة عمِّي الصحيَّة تسوء بالفعل، وحالة سلام النفسية تسوء أكثر فأكثر، تمكَّن منها النحول والشحوب، وأصبح تعلُّقها بمحمَّد غريباً ومزعجاً.

في يوم من الأيام اصطحبت محمَّداً معي إلى الحديقة، ثمَّ تناولنا وجبة الغداء، وأمضينا بضع ساعاتٍ نتجول في الأرجاء، وحين عدتُّ إلى المنزل أصابني الهلع، فقد كانت سلام بحالةٍ مزريةٍ، دموعها على خدَّيها ووضعها سيء للغاية، سألتها وقلبي يرتجف من جوابها:

- سلام! هل عمِّي بخير؟

أجابتني وهي تنتشل محمَّداً من يدي:

- أين كنت؟

ومن ثمَّ صرخت:

- ماذا كنت تنوي أن تفعل؟

لم أفهم إلى ماذا كانت ترمي بالضبط، فأكملت كلامها وهي تتفقَّد الصغير، كما لو أنَّه كان مخطوفاً أو ضائعاً، وراحت ترمي بالكلمات الجارحة بشكلٍ غريبٍ!

- كيف لا تردّ على الهاتف، ألا تشعر بشعور الأم؟ أجبني حالاً أين كنت؟
- ما بك سلام؟ كنا في السوق تجوَّلت وجلبت بعض الحاجيات.
- ولماذا كان هاتفك مغلقاً طيلة الوقت، ما هذه الصدفة العجيبة؟
- فرغ شحنه، ما بك؟ ماذا تقصدين بالضبط؟

كنت ألحق بها من غرفةٍ إلى غرفةٍ وهي تتحرَّك بطريقةٍ عشوائيةٍ ويداها ترتجفان، فسمعتها تتمتم:

- سأخفي أوراق محمَّد، أين جواز سفره؟ هل يعود به إلى الوطن من أجل عمله، ويتركني من دونه؟

حين فهمت أنَّها تلمِّح بمحاولة اختطافي لمحمَّد، أدركت أنَّ سلام ليست بحالةٍ نفسيّةٍ سويَّةٍ، وأنَّ وضعها يستوجب تدخُّلي أكثر لمساعدتها وعدم التخلِّي عنها في وقتٍ كهذا، فلطالما ساعدتني وأنا في أحزاني الوهميَّة، فكيف بي لا أساعدها؟!

أرسلت لمديري رسالةً طويلة، وبالكاد استطعت الحصول على إجازة بلا راتبٍ لمدّة أسبوعين إضافيّين وقرَّرت تمديد زيارتي في كندا.

سلام أغسطس 2014

أعلم أنِّي أبالغ بقسوتي مع آدم، لكنَّه يزعجني بكثرة كلامه عن عمله الذي يخاف فقدانه، لطالما أخبرني أنَّ مديره لا يستطيع الاستغناء عنه، ما المانع إذن بأن يأخذ إجازة بلا راتب، وما المشكلة إن فقد عمله، لا أعلم مدى صعوبة البحث عن عمل آخر، لكن بالتأكيد ليست بصعوبة موقفي وظروفي هذه، لم أكن أستطيع السيطرة على نفسي، كانت الهواجس والمخاوف تحاوطني من كلِّ جانبٍ، بدأت أصاب بحالاتٍ من الهلع، أشعر فجأة أنِّي على وشك الاختناق، يضيق صدري ولا أستطيع التنفُّس بشكلٍ جيِّدٍ. كانت حالة والدي الصحيَّة في تدهور أكثر، وعرفت أنَّ أيَّامه باتت معدودةً لكنِّي لم أتوقَّع أنَّها ستكون بهذه القلَّة.

استيقظت صباحاً في ذلك اليوم، اتَّصلت بوالدتي في المستشفى لأعلمها بقدومي في الساعة الثامنة صباحاً. وفعلاً، رتَّبت المنزل بسرعةٍ، فأغراض محمَّد تتناثر يوميَّاً في كلِّ أرجاء البيت، وحضَّرت محمَّداً وأطعمته، ومن ثمَّ سألني آدم وأنا على وشك الخروج:

- لماذا لم توقظيني؟

- سآخذ محمَّداً معي، لذا لا داعي لإيقاظك.

تمتم قليلاً، أظنُّه استاء من معاملتي له كآلة للاعتناء بمحمَّد فقط، لكن لم تكن لدي طاقة لنقاشه، انتعلتُ حذائي فسمعته ينادي:

- سأذهب معك، انتظريني.
- حسناً، أنا في السيارة.

لم تكن من عادته الخروج في هذا التوقيت المبكر معي، انتظرته وانطلقنا معاً. وصلنا إلى المستشفى، كان من المفروض أن نجلس مع والدي قليلاً، ومن ثمَّ آخذ مكان والدتي، وتعود هي وآدم ومحمَّد إلى المنزل. لكن حين دخلت إلى غرفة والدي، لم تكن الأمور طبيعيَّةً إطلاقاً. كان والدي يلفظ أنفاسه الأخيرة، أعطيت محمَّداً لآدم وجريت نحو والدي، بينما كانت والدتي منهارةً بجانبه والممرضات يحاولن تهدئتها. أمسكت بيديه ورحت أقبِّلهما، رآني وميَّزني، وراح يدعو لي، سمعته وهو يقول:

- رضي الله عنكِ وعن زوجك، وحفظ لكما أبناءكما، وجعلكما من سعداء الدنيا والآخرة.

كنت أبكي بصوتٍ مرتفعٍ وهلعٍ شديدٍ، لكن فجأةً أمسكني آدم من كتفي وهمس في أذني:

- اهدئي وافسحي لي المجال قليلاً، لا تجزعي.

وفعلاً، أفسحت له المجال بينما بقيت ممسكةً بيد والدي اليسرى، أمَّا يده اليمنى فقد أمسك بها آدم وجلس بقربه على الطرف الآخر من السرير، وراح يلقِّنه بهدوء.

- عمِّي! قل معي: أشهدُ ألّا إله إلا الله.
- أشهدُ ألّا إله إلا الله.

بالكاد قالها، وعمَّ الهدوء المكان، فلا الممرضات يفهمن ما يقوله آدم ووالدي، ولا أنا ملمَّة بما يحدث، حتَّى محمَّد صمت وهو بين يدي جدته، وكأنَّ رهبة الموت قد حلَّت بالمكان، فأكمل آدم:

- وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله.
- وأشهد أنّ محمَّداً عبده ورسوله.

وما إن أنهاها، حتَّى نظر إلى والدتي كي تقترب منه، اقتربت فوضع يده على رأسها بحركته المعتادة حين يودُّ ممازحتها، وتحسَّس يدي وشدَّ عليها، وبعد دقيقة ارتخت يده تماماً، وأغمض عينيه.

في تلك اللحظة لم أستطع تمالك نفسي، أصابني دوارٌ شديدٌ، سمعت ضوضاء لم أفهم منها شيئاً، سوى جملة كان يقولها آدم..

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ومن ثمَّ صرخ حين رآني أتهاوى، وهو يحاول أن يمسك بي.

- سلام! تماسكي أرجوك!

آدم أغسطس 2014

لم تحصل تلك المعجزة التي كانت تتمنَّاها سلام، ولم ينجُ عمِّي، وجاء أجله كما هو في كتابه ولم يستقدم ساعةً ولم يستأخر، أوقن أنَّ الموت حقٌّ علينا جميعاً وكأنَّه الحقيقة المطلقة الوحيدة التي يؤمن بها البشر جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم، حتَّى كروية الأرض اختلفوا عليها ولكنَّهم لم يختلفوا في حقيقة الموت، ورغم ذلك فأنا لم أختبر سابقاً تجربة أن يموت عزيزٌ عليّ، وكان عمي -والحق يقال- من أعزِّ الناس على قلبي، مع أنَّ علاقتنا لم تكن طويلة الأمد ولكن منذ متى يقاس عمق العلاقة بمدَّتها؟! وكيف لا يكون عزيزاً وقد ترك أغلى ما يملك في هذه الدنيا أمانةً في رقبتي، زوجته وابنته، أوصاني بهما وجعلهما أمانةً في عنقي؟

كان إنساناً خلوقاً وصابراً، صبر على المرض، صبر على الفقد، وأدعو الله أن يجعله ممن سيوفَّون أجرهم بغير حسابٍ، ولكن للأسف سلام لم تكن كأبيها من هذه الناحية. مرَّ اليوم الأول لوفاة عمِّي بشكلٍ مؤلمٍ، فسلام راقدة في المستشفى بسبب انهيارٍ عصبيٍّ، ومحمَّد مع والدة سلام التي بالكاد تجرُّ نفسها لتتحرَّك من فرط حزنها، وأنا بين تلك الغرف، أخرج لأوقِّع على الورقة هذه، وعلى المعاملة تلك، ومن ثمَّ أساعد حماتي في

الاعتناء بمحمَّد، وبعدها أعاود الذهاب إلى غرفة سلام لأطمئن عليها وهكذا دواليك. لم يكن لديّ الوقت حتَّى لأحزن على فقداني لعمِّي، لذا عندما عدنا إلى المنزل، بعد أن استيقظت سلام، أدركت لحظتها أنَّ عمِّي توفِّي بالفعل، وبدأت أسترجع ذكرياتي معه، وتذكَّرت قبضة يده حين لقَّننا الإمام العبارات الخاصَّة بعقد القران، وتذكَّرت نظرته إلي في ذلك اليوم، كم كان واثقاً ومطمئنّاً، هي ذاتها القبضة التي أمسكتها حين لقَّنته الشهادة، وهي ذاتها النظرة التي تحمل مشاعر الاطمئنان على ابنته معي وكأنَّه كان يقول لي: أنا متأكِّدٌ من أنّك لن تخذلني.

لا أعلم كيف استطعت أن ألتزم هذا القدر من الوقار؟!

في تلك الليلة، نام محمَّد الصغير بهدوء، فقد كان متعباً من كلِّ ما جرى، أمَّا سلام، فلم تتحدَّث بكلمةٍ واحدةٍ، كانت تبكي وتبكي فقط. حاولت مراراً أن أكلِّمها، لكنَّها لم ترد، فتركتها تعيش حالة حزنها، واحترمت شعورها، لكنِّي كنت أطمئنّ عليها طيلة الليل، حتَّى غفت عند الفجر.

في اليوم التالي لوفاة عمّي، كانت المهمَّة أشدّ صعوبة، لأن عمِّي سيوارى الثرى، خرجنا لكن من دون محمد هذه المرَّة، تركناه عند صديقة سلام، فمن المستحيل أخذ رضيع إلى المقبرة.

كان المشهد مهيباً، لم أستطع التحدُّث البتة، ارتديت ملابس رسميَّة سوداء، فأنا الممثِّل الوحيد عن العائلة، ظلَّت حماتي في السيارة، ودَّعتْ عمِّي ولم تستطع الوقوف على القبر، أمَّا سلام فما كانت لتقتنع أن تحذو حذو والدتها، بل أصرَّت على وداعه حتَّى آخر لحظة. لم أناقشها، لكن أخبرتها أن تحاول قدر الإمكان عدم الجزع وأن تكرِّر الأدعية له وتشغل لسانها بذكر الله، فهذا وحده ما سينفعه، اقتنعت وحاولت بالفعل أن تتماسك.

مضى ذلك اليوم بكلِّ قسوته علينا، فعدنا إلى المنزل بوجوهٍ حزينة، وجلسنا هادئين لا نتحدَّث لساعتين، بعدها تحدَّثت سلام وأخيراً، وكانت أوَّل كلمة تقولها هي:

- لماذا أنا؟

بقيت سلام تردِّد هذه الكلمة قرابة ثلاثة أيام حتى انتهاء العزاء، أمَّا أنا فلم أكن أجيبها بأي شيءٍ، فليست بحالةٍ تستطيع فيها الاستماع إلى أحدٍ، لكن في اليوم الرابع قرَّرت أن أتدخَّل، حينما كرَّرت للمرَّة المئة، سؤالها "لماذا أنا"، فأجبتها بهدوء:

- ماذا تعنين؟

استغربتْ من سؤالي، تنهَّدتْ قليلاً ثمَّ أجابتْ بقسوةٍ ودموعها تنهمر من عينيها:

- لماذا أنا من بين السبعة مليارات توجب علي أن أفقد أخي وأبي وأبقى وحيدةً؟
- وهل أنت على علمٍ بمصائب الآخرين؟
- لست على علم ولكن إن كانت مثل مصيبتك مثلاً، أن تخلَّت عنهم حبيبتهم فيالها من مصيبةٍ جميلةٍ ويا ليتها وقعت علي.

صُدمتُ حين سمعت منها هذا الكلام في هذه الظروف، لِمَ تقحم هذا الموضوع دائماً وفي كلِّ مناسبة؟ ماذا حلَّ بها؟ قلت لها وأنا أكتم غيظي من كلماتها الجارحة تلك:

- لم تكن مصيبةً، على أي حال لسنا بصدد الحديث عنِّي أنا.
- ولا رغبة لديّ بالتحدُّث عن أي شيءٍ آخر، لا مصائبك ولا أفراحك، أرجوك، اتركني وشأني الآن.
- كيف أتركك؟ ماذا عن طفلك الذي ينتظرك؟ ألا تعلمين أنَّك على وشك فقد حليبك بسبب تصرُّفاتك تلك، ماذا عن والدتك التي تحتاج إلى مساندتك وزوجك الذي ترك كلَّ شيءٍ ولحق بك، هل تتركيهم وتختلي مع أحزانك؟

- لكنِّي انكسرت كسراً لا يُجبر وانتهى الأمر، ثمَّ ما الفائدة؟ بالنهاية سأفقد الجميع كما فقدت أغلى إنسانٍ على قلبي!
- سلام لا تفكِّري بهذه الطريقة.
- لماذا لا أفكِّر؟ ألم تقل لي أن أدعو الله؟ دعوته ولم تحصل أي معجزةٍ ولم يُشفَ أبي، ساءت حالته وتوفي.
- هذا أجله، ادعي الله أن يدخله الجنَّة، ادعي الله أن يلهمك الصبر كما ألهمه لوالدتك ووالدك من قبل، ادعي الله أن يجزيك خيراً عن صبرك، هذا إن صبرتِ بالأصل.

فجأة تحوَّلت نظرتها إلى نظرةٍ أخرى ثمَّ سألتني:

- ترى هل توفِّي والدي بسبب تقصيري؟
- سلام ما الذي تهذين به؟ هذا أجل وحقٌّ علينا.
- تركته يسافر مع والدتي لوحدهما ولم أكن معه، لم أدعُ له بالشفاء لا أثناء ولادتي ولا في طريق السفر.
- سلام أنتِ لم تقصِّري في حقِّ أحدٍ.

كنت أجيبها وأنا مدركٌ من نظراتها أنَّها ليست معي وأنَّها تكلِّم نفسها فقط، ثمَّ راحت تكرِّر "لا بد أنِّي أنا السبب". تركتها ولم تشعر بي بالأصل، فتحت جهاز الحاسب كي أبحث عن أفضل مختصٍّ نفسيٍّ في الأنحاء، فحالتها تستدعي التدخُّل بشكلٍ مستعجلٍ، وكي يزداد الأمر

سوءًا وجدت في قائمة الرسائل رسالةً من مديري، وذلك بعد أن أرسلت إليه طلب تمديد إجازتي. فتحت الرسالة وإذ بها خطابٌ شديد اللهجة بأنَّه لم يعد يحتمل تقصيري، وأنَّه مضطَّر إلى فصلي من العمل.

تفهَّمت الأمر، ولم أناقشه إطلاقاً، فمعه كلّ الحق وعليه أن يوظِّف مهندساً ليحلَّ مكاني بعد غيابي الطويل.

سلام أغسطس 2014

لم أستطع في ذلك اليوم إلا أن أستهزئ بما يفعله آدم، حاولت أن أكون أكثر لطفاً لكن لم يكن الموقف ليساعدني. لا أعلم بماذا كان يفكِّر حين ظنَّ أنَّه أنجز عملاً مهمَّاً وناولني قائمةً بأسماء أهمّ الأطباء والاختصاصيِّين النفسيين في البلدة.

- أتمزح معي؟
- لا إطلاقاً، أين المشكلة؟ أشعر بأنَّك بحاجة إلى من يدعمك نفسيَّاً، منذ أشهر وأنا أحاول، لكنِّي لا أملك الخبرة الكافية بالفعل.
- أكرِّر سؤالي، أتمزح معي؟
- سلام! لا أمزح، ما بك؟

ضحكت بأعلى صوتي وأجبته:

- لديّ طبيبي النفسيّ منذ أكثر من عشر سنوات، وأنا أتلقَّى الدعم منه دائماً.
- لكن لماذا لم تخبريني؟ لقد بذلت مجهوداً كبيراً لانتقاء هذه القائمة.

- بماذا سأخبرك؟ أنَّ لديّ طبيباً نفسيّاً أراجعه حين الحاجة! كي تعتقد بأنِّي مجنونة، أنتم لا تؤمنون بأهميَّة الطبيب النفسيّ ولا تستوعبون أنَّ الموضوع عاديّ، لذا لم أكن لأخبرك يوماً.
- أنتم! ماذا تقصدين بأنتم؟
- لا شيء، لا طاقة لدي للجدال الآن، على كل حال من الجيِّد أنَّك ذكَّرتني بموعدي مع دكتور توماس في نهاية هذا الأسبوع.
- سلام، هل تودِّين أن أرافقك؟
- لا، ابق مع محمَّد وهذا يكفي.

تركته وخرجت من الغرفة، فقد بات يزعجني بأحاديثه كلّها، فلا الوقت مناسب لمزاحه ولا هو لطيفٌ حين يكون جادَّاً. مضت أيَّامٌ وفعلاً ذهبت إلى موعدي مع الدكتور توماس، كان الموعد الأوَّل لي بعد وفاة والدي وبعد زواجي أيضاً، كان لديّ كثير من الكلام لقوله، وبعد ساعة من الكلام، صمت الدكتور توماس قليلاً، ثمَّ بدأ بمحادثتي محاولاً استكشاف حالتي الجديدة، التي بدا وأنَّه متفاجئ منها.

لم يتوقَّع الدكتور توماس أنِّي تركت كندا وسعيت وراء حبٍّ بهذه الظروف غير الجذّابة، وخلال نقاشنا وجدت نفسي انحرفت عن حديثي حول فاجعتي بوفاة أبي، إلى حديثي عن آدم ومشاعري تجاهه، وكيف أنَّها تغيَّرت تماماً منذ أشهر.

انتهى موعدي مع الدكتور توماس بنصيحته بأن أتحدَّث إلى آدم أكثر حول ما أشعر به، أعطاني قليلاً من المهدِّئات التي وصفها لي بدقَّةٍ كي تتوافق مع كوني مرضعة لتساعدني على تمالك نفسي حين تجتاحني نوبات الغضب.

في طريق عودتي إلى المنزل كنت متفائلةً بعض الشيء، لكن حين وصلت وألقيت السلام، ردَّ آدم السلام من غير أن ينظر إليّ أو يسألني عمَّا جرى معي، كان ينظر إلى جهازه الحاسب، ويدخل معلومات بطاقته الائتمانية، كأنَّما كان يشتري شيئاً، وما إن أنهى ما يفعله، حتى قال لوالدتي:

- لقد تمَّ الأمر، بعد أسبوع سيكون موعد سفري.

أومأت له أمي بالإيجاب، فبدا لي كأنَّها تعلم بالأمر، أقفل حاسبه ونهض ليمضي خارج الغرفة، حينها أوقعت كوب الماء من يدي متعمِّدةً حتَّى ينظر إليّ. وبالفعل، هرع نحوي، وقال:

- هل أنتِ بخيرٍ؟

نظرت إليه وأنا لا أفهم ماذا يفعل، لم أجبه لكن امتلأت عيناي بالدموع، تجاهلني، وجلس على الأرض يلمّ الزجاج، حين رأيته في هذا الوضع، لاح إليّ طيف ذلك اليوم، حين كسرت عدسة الكاميرا، وجلس آدم على أرضية الاستيديو يلمّ زجاج العدسة. الموقف هو ذاته،

لكن ويلاه كم كنت معجبةً به في تلك الأيام. نظرت إليه وأنا أتساءل: أين ذهب كلُّ هذا الإعجاب!

آدم

أغسطس 2014

أزعجتني إلى آخر حدٍّ، ما الذي تتوقَّعه منِّي بعد كل هذا التجاهل؟ هي لم تكتفِ بإذلالي بل تعمَّدت إقصائي أيضاً، كما لو أنَّ لا وجود لي، أو أنِّي لا أهتم بها.

ما الذي دهاها بالضبط؟

في تلك الليلة، لم أستطع حتَّى النظر إلى وجهها، لكنَّها لم تنتبه لانزعاجي أصلاً. استلقيت في سريري، ورحت أحاول استرجاع ذكرياتي مع جُمان، أريد أن أنتقم من سلام حتَّى لو لم تعرف بما أفكِّر به. لكن كان كلّ شيء ضدي، حتَّى مشاعري تجاه جُمان كانت جامدةً، باردةً، ومتلاشيةً. منذ متى وأنا لا أستطيع استجلاب حبِّي لجُمان؟ منذ متى وأصبح قلبي في مكانٍ بعيدٍ عن جُمان؟!

أين طيفك يا جُمان! لِمَ يغادرني حين أحتاج إليه؟ نعم أحتاج إليه لأخون هذه الحمقاء التي بجانبي الآن، الحمقاء التي حاولت عبثاً أن تجعلني أتعلَّق بها، وحين حصل ما تمنَّت، تخلَّت عنِّي، وها هو طيفها يلوح أمامي بينما هي بقربي وتتجاهلني.

تبّاً لكما أنتما الاثنتان! بل تبّاً لي بالدرجة الأولى!

شعرت بالسوء الشديد حيال ما يحدث معي، فنهضت في منتصف الليل وذهبت إلى غرفة الجلوس كي أفكِّر بما عليّ فعله. هل أرمي جام غضبي عليها، وأصارحها بما يختلج صدري؟ أأقول لها أنَّها تمادت وأنَّ صبري بدأ بالنفاد؟

لكنَّها ستنهال عليّ وتخبرني بأنِّي لا أحتويها ولا أفهم ما تشعر به، وأنَّه ليس الوقت المناسب لمشاعري أنا. لقد سئمت من منطقها الأعوج ذاك.

ظللت مستيقظاً إلى أن اقترب موعد الفجر، صلَّيت ركعتي تهجُّد، دعوت الله أن يلهمني رشدي، وبعد الفجر استسلمت للنوم، لأستيقظ بحالٍ أفضل، فصبرت لأيام من غير أن أتحدَّث أو أتذمَّر ممَّا تفعله سلام، لكن بنفس الوقت صارحت حماتي بنيتي بالسفر والعودة إلى الوطن، فلم تعد هنالك ضرورة لوجودي هنا، ومدَّة إقامتي المسموح بها على وشك النفاد، شرحت لها أسبابي فتفهَّمت موقفي، وحينها أكَّدت لي أنَّ مكوثهما هنا لن يطول، فهي لن تبقى في كندا، بل تنوي العودة إلى الوطن حالما تنتهي العدَّة، وستزور كندا في شهري الصيف من كلِّ سنةٍ.

أبدت حماتي موافقتها بشأن سفري، وفي يوم موعد سلام مع طبيبها النفسي، عادت من موعدها، فتقصَّدتُ أن أحجز بطاقتي أمامها حين دخلت إلى الغرفة، وكما توقَّعتُ، صُدِمت سلام لقرار سفري، ورمت ما بيدها حين سمعت كلمة "سفر".

هرعت لألمّ الزجاج، فقد خشيت أن تؤذي نفسها بطيشها، فوقفت أمامي لا حول لها ولا قوَّة، كأنَّها شخص آخر غير الذي كنت أراه منذ أشهر، وقالت سلام وهي تكزُّ على أسنانها:

- ستسافر؟

أجابتها والدتها:

- نعم، سيسافر، ستنتهي صلاحية التأشيرة التي معه قريباً.
- يستطيع تمديدها، ثمَّ إنَّ الدكتور توماس نصحني بأن نتحدَّث أنا وآدم معاً.

أجبتها:

- ما يزال لديّ وقت، لن أسافر الآن، سنتحدَّث إن كنت تريدين ذلك.

لم ترد، ومضت إلى غرفة النوم وهي تتمتم بالفرنسية والإنكليزية وكلّ لغات العالم من شدَّة غضبها. انتظرتها لتهدأ وعندما رأيتها في حديقة المنزل، لحقت بها ومعي بطانيَّة صغيرة. كانت واقفةً تتأمَّل الأشجار، ألقيت البطانية بهدوء على كتفيها، وقلت لها:

- اعتني بنفسكِ أكثر.

- أأنت مهتمٌّ بالفعل؟
- بالتأكيد
- ولماذا ستسافر؟
- سأسافر لأنَّ عليّ أن أسافر.
- تستطيع تمديد الإقامة، ليس الأمر بهذه الصعوبة.
- أعلم ذلك، لكن عليّ أن أبحث عن عمل ريثما تعودون أنت ومحمَّد ووالدتك.
- لِمَ أنت قلق؟ لدينا ما يكفينا من المال، ولن تحدث مجاعة في هذين الشهرين.
- ليس الأمر كذلك، ذلك المال هو مالكِ، أمَّا أنا فقد أنفقت كلَّ مدَّخراتي.
- وما الفرق بيني وبينك؟
- أنا المسؤول عنك وليس العكس يا حلوتي، تذكَّري هذا دوماً.

ووضعت يدي على رأسها كما لو أنِّي أؤنِّبها، فابتسمت وحاولت إخفاء ابتسامتها، فقلت لها:

- والآن أخبريني، بِمَ نبدأ؟

صمتت قليلاً، ثمَّ أجابت:

- لقد تفاجأ الدكتور من أخباري الجديدة، وأوصاني بأن أتحدَّث معك بصراحةٍ عمَّا يجول في خاطري.
- تفضَّلي
- أخبرته عن كلِّ شيءٍ.
- كلّ شيء؟
- نعم، كلّ شيءٍ.
- وماذا قال لك؟
- توجَّب عليّ في بادئ الأمر أن أخرجه من حالة الذهول التي أصابته.

ضحكت ضحكةً طويلةً ومن ثمَّ أردفت:

- هل ذهبتِ ليعالجك أم لتعالجيه؟! ولماذا أصابه الذهول؟
- بالطبع ليعالجني أيُّها الظريف، ولكن ارتباطي بك وكوني أصبحت أمَّاً، ووفاة والدي وكلّ هذه التغيرات أصابته بحالةٍ من الذهول.
- ولِمَ الذهول؟ أليس من الطبيعيّ أن ترتبط الفتيات بعمرك؟
- لا ليس عاديَّاً، ليس عاديَّاً أن تتزوج الفتيات في عمري هنا، وليس عاديَّاً أن ينجبن طفلاً، وزاد ذهوله أيضاً أنَّك لستَ كنديَّاً وأنِّي تركت كندا لأجلك.

- هذا لأنَّه لم يرني، حين يراني ويتكلّم معي سيتفهَّم تماماً كل تلك الأمور.
- ليتني أملك ربع هذه الثقة بالنفس، من أين تأتي بها؟ أخبرني.
- هذه الحقيقة. بالمناسبة، ألم تخبريه أيضاً عن أرنبي السخيف؟ لا يجب أن تفوته هذه التفصيلة المهمَّة.

ضحكت سلام ضحكةً لم أسمعها منذ أشهر، ثمَّ تظاهرت بالجديَّة وقالت:

- لا بل أخبرته عن حبِّك السخيف!

أخذتُ نفساً عميقاً، وحاولت ألا أزعجها، لكنَّها تصرُّ على إزعاجي، وقلت:

- بعدما نسيتها، أيتحتَّم عليّ الآن مساعدتك في نسيانها أنت؟
- أنسيتها فعلاً؟
- نعم، ولِمَ أكذب؟ هل كذبت يوماً عليك؟
- لا، لم تكذب.
- إذن فانتزعيها من تفكيرك، أرجوك سلام.
- لكن لم يعد الأمر بيدي، لقد آذيتني جدَّاً.
- لكنَّك كنت تعلمين بكل شيءٍ.

صمتنا مجدَّداً، ثمَّ قلت لها:

- سلام اسمعيني، دعينا نتوقَّف عن لوم بعضنا البعض الآن، ولنكمل فيما بعد، فالنقاش في هذا الموضوع لن يوصلنا إلا إلى طريقٍ مسدودٍ، فكِّري بما تودِّين الحديث معي به، ولنحاول النقاش غداً.

أمسكت يدها ودخلنا معاً إلى غرفة الجلوس، ونحن صامتان.

سلام سبتمبر 2014

في موعدي الثاني مع الدكتور توماس، أصرَّ آدم على الذهاب معي، وبالفعل ذهبنا معاً إلى الموعد. بعد الترحيب والمقدِّمات، دخل الدكتور مباشرةً في صلب الموضوع، وقال:

- آمل أنَّكما تحدَّثتما بشكلٍ كافٍ.

نظرنا إلى بعضنا البعض، مثل تلاميذ لم يحلّوا الواجب المدرسي، ثمَّ قلنا له بصوتٍ واحدٍ:

- لا، لم نفعل.

ضحك الدكتور ثمَّ قال:

- إذن ماذا تريدان اليوم؟

نظر إليّ آدم بأنَّه هو من سيتكلم وقال:

- في الواقع لقد حاولنا أن نتحدَّث لكن فشلت المحاولة الأولى، واليوم أنا هنا كي أساعدك على فهم بعض الأمور.
- أمور، مثل ماذا؟

سأله الدكتور، فأجاب آدم:

- أسباب زواج سلام المبكر على حدِّ تعبيرك، أسباب الإنجاب المبكر، على حدِّ تعبيرك أيضاً، أسباب تركها لكندا، وتورُّطها بحبٍّ من طرفٍ واحدٍ، وما إلى ذلك.
- أفهم أنَّكما تتحدَّثان بصراحةٍ تامَّةٍ، هذا شيءٌ مبشِّر.
- في الحقيقة هذا الأمر جديدٌ علينا، فمنذ ارتباطنا ونحن نتظاهر بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام.

نظر إلي الدكتور توماس كي أعطي رأيي، فقلت له:

- نعم، صحيح.

سألني الدكتور:

- وهل ما يشرحه الآن قد سمعتيه منه، أم أنَّك ستسمعيه للمرَّة الأولى؟

أجبته:

- أعتقد أنِّي سأسمعه للمرَّة الأولى، وأنا متحمِّسة لسماع تفسيراته.
- إذن ابدأ يا سيد آدم.

عدّل آدم من جلسته كما لو أنَّه سيلقي خطبةً، ثمَّ بدأ بالكلام:

- ببساطة، هذه الفتاة الجميلة التي بجواري، لسببٍ غريب، أحبَّت شخصاً غريب الأطوار، في مكانٍ غريبٍ عنها وفي توقيتٍ غريبٍ للارتباط، وفي ظروفٍ غريبةٍ وعجيبةٍ، فيا حضرة الطبيب، لو جمعنا كلَّ اختصاصيي العالم لا أعتقد أنَّهم سيجدون لها أيَّ تفسيرٍ لسبب اختيارها لي، ولماذا فضَّلت اللحاق بي عن آلاف الاحتمالات الأخرى، ولماذا تحمَّلت البقاء معي بالرغم من صعوبة مزاجي في بداية ارتباطنا. أنا نفسي كنت مستغرباً ممَّا حدث، فدعنا لا نركِّز على الأسباب، ونهتمّ بالنتائج والتبعات. هل تجد أنَّ كلامي منطقيٌّ؟

أجابه الدكتور توماس:

- لحدٍّ ما، أكمل ما عندك من فضلك.

استدار آدم ووجَّه السؤال إلي:

- الآن، السؤال المجدي برأيي، هل تودِّين يا مدام سلام البقاء مع هذا الشخص؟ هل تودِّين إكمال حياتك معه؟

ونظر إليّ بعينيه اللامعتين، فأجبته وقلبي يخفق:

- بالتأكيد.
- وما مشكلتك معه؟

لم ينتظرني لأجيب بل أردف:

- من هذه النقطة تستطيعين إكمال حديثك مع الدكتور توماس، لا مانع لديّ أن أخرج من الغرفة، لتشعري براحةٍ أكبر، وتتحدَّثي بكلِّ ما لديك، دكتور نادِني حينما تحتاجان إلي.

وخرج فعلاً، وحينها قال لي الدكتور:

- هل لديك فعلاً ما تقوليه لي؟ أم أنَّك تودِّين إكمال حديثك مع زوجك؟
- أودُّ إكمال الحديث معه.
- لقد تعمَّد زوجك إجراء الحديث هنا ليجبرك على سماعه، لا بدَّ وأنَّك لا تجيدين الإنصات، أليس كذلك؟
- نعم هذا صحيح.
- حسناً، تستطيعين اللحاق به، ولنا موعدٌ حينما تحتاجين.

وفعلاً، خرجت لأراه ينتظرني، ومضينا. في الطريق، توقَّف أمام محل لاستئجار الدرجات الناريَّة، نزل وطلب دراجةً ناريّةً وخوذتين. إنَّه يتعمَّد أن يعيد ذكرياتي الجميلة معه، طوَّقته بذراعيّ وانطلقنا، وبعد أكثر من نصف ساعة، توقَّف في وسط الطريق على ضفَّة نهر، فنزلنا وقال:

- والآن، أخبريني، ما مشكلتك معي؟

- لا تتظاهر بأنَّك لا تعلمها.

- هل سنعود إلى الموضوع ذاته؟

صمتنا قليلاً ثمَّ طوَّقته بذارعيّ وملت رأسي على كتفه، فقال لي:

- ليس لديّ حبيبة سواكِ، هل تفهمين؟ أم أكرِّرها بلغاتٍ أخرى؟

خفق قلبي بشدَّةٍ، وشعرت بكلماته تلك تخرج من قلبه ووجدانه، فوقفت ونظرت إليه كما لو أنِّي لم أفهم ما قاله، نظر إليّ نظرته الجميلة التي أحبُّها وابتسم نصف ابتسامةٍ، فقلت له:

- هل هذه التطوُّرات بسبب محمَّد؟

أجابني من غير أن يرتبك وبثقةٍ وحزمٍ:

- لا!

- إذن فما الذي اختلف؟

- لا شيء، إنَّه الوقت، وقد نجحنا بتجاوزه. ألا ترينه انتصاراً؟ نحن أقوياء بالفعل.

- أتعتقد ذلك؟

- بالتأكيد، رغم أنَّه ينقصنا النضج، إلا أنَّنا استطعنا اجتياز الحالة السلبية التي بدأنا بها حياتنا.

- تكلَّم عن نفسك، أنا ناضجة.

ضحك وهو يجيبني:

- أعلم، أعلم.

أمسك بيدي ولم نتحدَّث أكثر. شعرت باطمئنانٍ شديدٍ، لا سيَّما أنَّ سفره بعد يومين، كنَّا في حالة صفاء ورضا وسلام بالفعل. تساءلت ونحن في طريق العودة: هل حقّاً انتهى الكابوس الذي يُدعى "جُمان"!

سلام	ديسمبر 2014

سافر آدم في نهاية شهر سبتمبر، ولم أصرّ عليه بالبقاء أكثر، واقتنعت بوجهة نظره بالسفر، وللأسف لم تتح لنا الفرصة للحديث أكثر، لكن كنَّا نتحدَّث يوميَّاً عبر الإنترنت، كان آدم يكلِّمني بأمور لم أكن ألقي لها بالاً من قبل. علَّمني آدم كيف أتحدَّث مع الله، أشكو له همِّي، أفرِّغ كلَّ ما في قلبي، أحكي له عمَّا يؤلمني. لطالما كرَّرت كثيراً من الأدعية، لكنِّي لم أبح يوماً بها في نفسي إلى الله، كنت أعتقد أنَّ الدعاء يجب أن يكون منمَّقاً، وبلغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ، وبكلماتٍ موزونةٍ لها نفس القافية، تماماً كما كنت أسمع الدعاة والأئمة يدعون، في حين علَّمني آدم، أنَّه بإمكاني قول ما أريد، وقت ما أريد، وبالطريقة التي أريد.

كنت أحبُّ التحدُّث مع آدم، لكنَّه كان يزعجني حين يلمِّح لضرورة إيقاف تناول الحبوب المهدِّئة، فأتوتَّر وأغيِّر الموضوع، أو حتَّى أنهي الحديث معه، لكن في الوقت ذاته أكملت جلساتي مع الدكتور توماس. أعاد الدكتور تلخيص الأفكار التي كان يستنتجها، وسردها لي، فصارحني في البداية أنَّ لديّ أزمة علاقاتٍ بشكلٍ عام، تعلُّقي بوالدي -رحمه الله- وانهياري بعد وفاته، وارتباطي السريع بآدم وتلك العاطفة التي تولَّدت نحوه في غضون أشهر، واختفاء ذاك الإعجاب وتلك

العاطفة عند أوَّل مطبٍّ لي، ابتعادي الدائم عن والدتي واعتبارها الشمَّاعة التي أعلِّق عليها أخطائي، وقلَّة الأصدقاء أو بالأحرى عدم وجودهم، كلّها إشارات واضحة بأنِّي لا أجيد التعامل مع المجتمع ويجب عليّ العمل على تحسين علاقاتي الاجتماعية.

حاولت استجماع أفكاري، وفي آخر موعدٍ لي قبل سفري بأسبوعين، شعرت بأنَّ لدى الدكتور توماس ما يودُّ قوله، فسألني:

- هل أنتِ متأكِّدة من عودتك؟ وتركك لكندا؟
- نعم بالطبع.

لم يجبني، فسألته:

- دكتور، لماذا ما تزال الشكوك تساورك حول علاقتي بآدم، لقد أخبرتك أنَّ الأمور تحسَّنت بيننا قبل سفره، أخبرني بصدقٍ، ما مشكلة زواجي من منظورك؟ ولِمَ أبديت وما تزال تبدي استغرابك نحوه؟
- بصراحةٍ يا سلام، يتعارض هذا الزواج مع شخصيَّتك السابقة ومع طموحاتك وأحلامك، ألم يكن حلمك أن تجوبي العالم وتوثِّقي رحلاتك بالصور؟ ألم ترغبي في أن تطلَّعي على

الثقافات والحضارات المختلفة؟! وبدأتِ بذلك بالفعل في أيام دراستك.

قاطعته قائلةً:

- دكتور أنت تذكِّرني بأشياء أحاول دوماً ألا أذكرها.
- وهنا المشكلة، يجب عليك تذكُّرها والحديث عنها، هل تعلمين أنَّ أزمتك الحقيقة مع آدم لم تكن بسبب تلك الفتاة، إنَّما بسببك أنتِ، بسبب محاولتك قمع سلام الماضية. حين قمعتِ نفسك من جموحها نحو أحلامك وغرقتِ في دوَّامة الحزن والأسى على والدك ودوَّامة المسؤوليَّة الجديدة لطفلك، بدأت تشعرين أنَّك ضحَّيتِ بأحلامك وبنفسك من أجل حبٍّ بلا مقابل! لذا بدأت باختلاق المشكلات مع آدم.

صمت قليلاً، فتنهَّدت وأنا أفكِّر بما يقول، ثمَّ سألته:

- وما الحلُّ إذن؟! هل توجد مهدِّئات لأخفِّف من حدَّة توتُّري حين أسترجع نفسي القديمة وأتذكَّر أحلامي؟
- سلام هذا ليس حلّاً بالأصل. الحلُّ أن تدركي أنَّ آدم هو خيارك أنت، ولم يجبرك أحد على تركك لأحلامك، إن أردت الاستمرار مع آدم فهذا عظيم وإن لم ترغبي فتلك حريتك أيضاً،

لكن لا تكملي حياتك وأنت بهذه الحالة، لا تمنِّين على زوجك بالحبِّ. حاولي أن تجدي وقتاً لنفسك تحقِّقين فيه شيئاً من ذاتك، سافري ووثِّقي وافعلي ما تتمنِّيه، ولا تجعلي طفلك عائقاً أمامك، عودي إلى الاهتمام بنفسك لأجل نفسك لا لأجل أحد آخر، اعتمدي بسعادتك على نفسك فقط وليس على آدم، لا تجعلي علاقتك بآدم هي مصدر سعادتك وإلا لن تستطيعي الاستمرار معه. سلام! تذكَّري دائماً، حين تجعلين مصدر سعادتك شخصاً ما، ستخسرين نفسك وذلك الشخص أيضاً، لا تحمِّلي آدم فوق طاقته.

أنهينا الحديث وعدت إلى المنزل وأنا مذهولة ممَّا قاله لي الدكتور توماس، إنَّه محقٌّ بالفعل. لم تتسنَّ لي الفرصة لأتحدَّث بما يجول في خاطري مع آدم، فأنا لا أستطيع إخباره بما قال الدكتور بشكلٍ مباشر، ولم يكن لديّ أي وقت لتنسيق أفكاري.

مضى الأسبوع الأخير لي في كندا وأنا في قمَّة انشغالي في توضيب وتحضير وإنهاء كثير من الأشياء، وفي يوم السفر، زرتُ قبر والدي، وانطلقنا إلى المطار أنا ووالدتي ومحمَّد، عائدون للمرَّة الأولى وحدنا دون والدي. ذرفت دموعاً كثيرةً، واستسلمت للنوم منذ بداية الرحلة، فهذه المرَّة والدتي معي، ولست المسؤولة الوحيدة عن محمَّد.

سلام
مارس 2015

حين اقترب يوم ميلاد محمَّد، لم أكن أخطِّط لإقامة حفل عيد ميلاد، فأنا ما أزال أرتدي ثوب الحزن. الشيء الوحيد الذي فعلته أنِّي ذهبت إلى السجلِّ المدني وأضفت اسم والدي لاسمه ليصبح اسمه مركَّباً "محمّد حِسان".

للأسف لم أقضِ معه عامه الأوَّل كما كنت أحلم، لم أنتبه إلى ضحكته الأولى، ولا لأوَّل مرَّةٍ حبا فيها، لم أعر اهتمامي لظهور سنِّه الأول، ولم ألحظ متى ناداني لأوَّل مرَّة "ماما"، لم أشارك باختيار ملابسه حتّى، لم أوثِّق عامه الأول بالصور، وأنا أولى الناس بذلك، كان كلُّ همِّي أن يمرَّ اليوم بخيرٍ معه وأن أحافظ على سلامته.

حين سمعت حماتي أنِّي لن أحتفل بعيد ميلاد محمَّد، لم يعجبها هذا الكلام قط، وأتت الأوامر صارمةً من قبلها أنَّها ستقيم حفل عيد ميلاد محمَّد في منزلها، ويجب أن نحضره جميعاً.

تذمَّرتُ كثيراً، وحين شكوت ما بي لوالدتي، نهرتني، وأخبرتني بأنَّها أوَّل من سيحضر عيد الميلاد، وكفانا أحزاناً، وبالفعل في يوم ميلاده، السابع من مارس، حاولت أن أختار ملابسه وهديَّته بعناية، وتكفَّلت

حماتي ببقيَّة الأمور من تحضير طعام الحفل، وقالب الحلوى، وتزيين المنزل.

اجتمعنا للمرَّة الأولى بعد مضي أشهر، في اللحظة الأولى، لم أستطع أن أتمالك دموعي، فمكان والدي فارغٌ، حاول آدم أن يحتوي حزني، فتداركت الأمر واحتفلنا بمحمَّدٍ الصغير بوجود عمر وجود وربيع. جلسنا نحن النسوة بعد الطعام في غرفة الجلوس وحدنا نتبادل الأحاديث، كانت جود تتحدَّث مع حماتي، وتشكو همَّها، فهي مرهقةٌ من أعباء الاعتناء بربيع وحملها الجديد في الآنِ ذاته، لا سيَّما أنَّها في شهورها المتقدِّمة وعلى وشك الولادة، وقالت لها:

- أشعر يا خالة هناء أنَّ جسدي ينهار من التعب.

أجابتها حماتي:

- هوّنِي عليك، بضعة أسابيع وتمضي!
- وبعدها يبدأ عناءٌ من نوعٍ آخر.

استدركت جود كلامها قائلةً:

- لم أكن بهذه الحال حين ولدت ربيع، أمَّا الآن فأنا قبل الولادة أعاني من أوجاعٍ في الظهر، وآلام في الرُّكب، بالإضافة إلى مشكلات اللثة والأسنان التي لا تنتهي.

قالت لها حماتي:

- ألا تذهبين إلى عيادة كرم لتعالجيها أوَّلاً بأوَّل؟
- لم يعد لديّ أي وقتٍ للاعتناء بنفسي، قال لي كرم إنَّه سيجري لي تنظيفاً كاملاً للأسنان واللثة بعد الولادة، واكتفيت الآن بغسول الفم. لو يعلم كرم بأنِّي بالكاد أنظِّف أسناني قبل أن أنام، لَمَا كرَّر نصائحه حول استعمال الخيط.

حينها قالت لها حماتي:

- من الجيِّد أنِّي تذكَّرت، رجاءً أعطيني رقم هاتف عيادته الجديدة، يجب أن آخذ موعداً، أشعر أنَّ لديّ مشكلة في أحد الأضراس، اتَّصلت بالعيادة مرَّات عديدةٍ، ولم يجب أحد.
- لم ينقل الرقم القديم بعد، أنتِ على حقٍّ، سأعطيك الرقم الجديد.

أعطتها جود الرقم ومن ثمَّ سألتني:

- أودُّ التسجيل في نادٍ رياضيٍّ بعد الولادة. سلام، هل سجَّلتِ في نادٍ رياضيٍّ أم ليس بعد؟
- نعم، النادي القريب من منزل والدتي، سأعطيك العنوان.

- من الجيد أن نُشجِّع بعضنا البعض، فأنا أعاني من الذهاب وحدي إلى النادي. بالمناسبة، هل تفكِّرين بالعودة إلى فتح استديو التصوير؟
- في الحقيقة نعم، ربَّما خلال الشهر القادم، تُصرُّ والدتي على ذلك، ووعدتني بالتكفُّل بأمور محمَّد، وستساعدني الخالة هناء أيضاً في ذلك. هنالك كثير من التصليحات والترتيبات التي يتوجَّب عليّ القيام بها في الاستيديو أولاً، كما أخطط لطلب بعض التجهيزات الحديثة، كما تعرفين التكنولوجيا تتطوَّر بسرعةٍ هذه الأيام.
- سعيدةٌ لأجلك، أتمنَّى لك التوفيق، أنتِ فتاةٌ طموحةٌ وقويَّةٌ.

ابتسمت لها ابتسامةً عريضة، فقد أشعرتني كلماتها بالغبطة والثقة.

آدم أغسطس 2015

لم أكن أتوقَّع أن يتَّصل بي مديري بعد مرور تلك الأشهر، حين رأيت اسمه من بين المتصلين، ساورني الشكّ بأنَّه اتصل بالخطأ.

- أهلاً آدم، كيف حالك؟
- أنا بخيرٍ.
- هل ما تزال تبحث عن عمل؟
- في الواقع نعم، أعمل حالياً في شركةٍ صغيرةٍ بشكلٍ مؤقَّتٍ.
- هل تعود؟

حين سألني عن رغبتي في العودة، لم أجبه في الحال، بل طلبت مقابلته لنتحدَّث برويَّةٍ، وحين قابلته قالها لي صراحةً بأنَّهم لم يجدوا بديلاً عنِّي، وما يزالون بحاجةٍ إليِّ. وضعت لهم شروطاً جديدةً في العقد، وتسنَّى لي تحسين راتبي، ووقَّعت العقد وعدت إلى العمل بتيسير من الله تعالى، لذا عندما قرَّرت سلام أنَّه حان الوقت لإعادة افتتاح الاستيديو دعمتها بشتَّى الطرائق، فالمردود الماديّ الحالي يتيح لنا أن نسجِّل محمَّداً في حضانةٍ، وأن نشتري سيَّارةً لسلام تعينها على التنقُّل.

وبالفعل، لم تمرّ سوى بضعة أسابيع بعد قرارها ذلك، حتَّى بدأتْ بتهيئة الاستيديو لاستئناف العمل. في ذلك الوقت كان الصيف قد بدأ، فسافرت سلام أسبوعين إلى كندا، زارت قبر والدها وأحضرت معها بعض العدسات والتجهيزات الحديثة، وافتتحت الاستيديو مجدَّداً حين أتمَّ محمَّدٌ السنة والنصف تقريباً وبعد أن فُطِم، لكنّ حماتي لم تقبل بأن نسجِّل محمَّداً في حضانة، بل تطوَّعت للتفرُّغ له في أوقات دوام سلام، الأمر الذي أراح الجميع، وطمأن سلام في المقام الأول. لكن لم تكن العودة إلى العمل بتلك السهولة لسلام، فها هي ستتعامل مجدَّداً مع الزبائن، ومع الناس، بعد انقطاع دام لأكثر من سنةٍ ونصف، لكنَّها كانت تحاول جاهدةً أن تكون قويَّةً، الأمر الذي أسعدني، فها نحن نستقرُّ بعد تلك العاصفة التي هبَّت على حياتنا السنة الماضية. الجميل في الأمر أنَّ سلام بدأت تتعلَّم الطبخ أيضاً، وتطوَّرت مهاراتها في تحضير الأطعمة، وترتيب المنزل، والاعتماد على نفسها أكثر من ذي قبل.

حقَّاً، ثمَّة تفاصيل لا تكتمل إلا مع الوقت.

الفصل الخامس

آدم فبراير 2016

أخبرتني سلام بأنَّها متواعدة مع والدتي، لم يخطر ببالي أن أسألها أين الموعد، وسألتها:

- هل تحتاجين إلى شيءٍ ما؟
- لا، سأمرُّ على والدتي وأعطيها حِسان، وبعدها سأمرُّ على الخالة هناء.
- هل نلتقي عند أهلي بعد موعدكما؟
- فكرة جيِّدة

وبعد ساعات اتَّصلت سلام وقالت إنَّها في طريقها إلى منزل أهلي، فانطلقت لأحضر حِسان من عند حماتي، حيث كان لديها بعض الأمور لإنهائها ولم تستطع الانضمام إلينا.

حين وصلت إلى منزل أهلي، لاحظت أنَّ وجه أمِّي منتفخٌ بعض الشيء، فسألتها وأنا أمازحها:

- هل كنتما في عيادة تجميلٍ، أم ماذا بالضبط؟

مرَّت سلام فقالت لي:

- كفاك مزاحاً، الخالة هناء متعبة حقّاً.

لحقت بوالدتي، فسألتها:

- ما بكِ؟
- لا شيء، إنَّه ضرس العقل، يؤلمني منذ أشهر، وأخيراً، حُلَّت المشكلة.
- آه كنتما عند طبيب الأسنان!

واستدرت بعد أن فهمت سبب انتفاخ وجه أمِّي، لكن خطر لي سؤالٌ مهمٌّ في تلك اللحظة، فعدت أدراجي إلى المطبخ حين كانت والدتي هناك وسألتها:

- إلى أيِّ عيادةٍ ذهبتِ؟

أجابتني والدتي بثقة وهي تمسك بطرف خدها:

- ومن غيره؟ عيادة الدكتور كرم.

لم أشأ أن أصبَّ جام غضبي على والدتي التي ذهبت إلى عيادة ذلك الطبيب المشؤوم، فتوجَّهت مباشرةً إلى سلام التي كانت في غرفتي تعتني بحِسان وصرخت بأعلى صوتي:

- سلام!

أجابتني:

- ما بك؟ لقد أخفتني!
- أين كنتِ اليوم؟
- ذهبت مع خالة هناء إلى عيادة الدكتور كرم.
- وتقوليها بملء فيكِ، عيادة كرم؟!
- آدم ما بك؟!

أغلقتُ باب الغرفة بكلِّ قوتي، ففزع الصغير وبدأ بالبكاء، حملتُه وأخرجته من الغرفة، وعاودت غلق الباب بقوَّةٍ، ثمّ انفجرتُ بالصراخ في وجه سلام:

- ماذا تنوين بالضبط؟ أخبرتكِ ألا تتعاملي مع هذا الشخص، أوضحت لكِ مرَّات عديدة مدى انزعاجي من هذا الأمر، لِمَ لا تحترمين كلامي؟
- آدم ما بك؟ أنا لا أفهم ما مشكلتك؟
- أعلم بأنَّك لا تفهمين، لو أنَّك تفهمين لَمَا ذهبت اليوم إلى عيادته!
- ماذا قلت، أنا لا أفهم؟!

- منذ أسابيع وأنتِ تكررين لي، لقد قابلت كرم، عيادته الجديدة قريبة من الاستيديو، سلَّمت على كرم، ألهذه الدرجة يعجبك السيد كرم؟

كنت في أعلى درجات الغضب ولم أنتبه إلى بشاعة كلماتي، أجابتني وهي ترتجف من الغضب:

- هل تسمع ما تقوله؟ أم أنَّك جننت بالفعل؟
- لا لم أجنّ، أنتِ التي لا تستوعبين الكلام، ما الذي يصيبك حين يتعلَّق الأمر به؟ ألن ننتهي من هذا الشخص، لِمَ لم تخبريني بأنَّك ذاهبة، هل الأمر صدفة لتخفي عنِّي هذا الموعد؟
- لم أخفِ شيئاً، لم تشأ والدتك الذهاب وحدها، ومن هو كرم، ولِمَ سأهتمُّ به؟ لا أفهمك آدم!
- أنا الذي لا أفهم، لِمَ لم يتزوَّج بعد؟ ما الآمال التي ما يزال يعلِّقها عليكِ؟

هنا تدخَّلت والدتي، وراحت تطرق الباب بقوَّةٍ وهي تقول:

- آدم! افتح الباب حالاً، آدم.

فتحت الباب، وحين رأتنا والدتي على هذه الحالة انهالت عليّ بالتوبيخ أمام سلام، فاعتذرت منها بأنِّي سأنصرف وقلت لسلام:

- أنا في السيارة أنتظرك، سنذهب إلى المنزل حالاً.

وذهبتُ إلى السيارة وشياطين الدنيا كلّها تقفز أمامي، وبالفعل لم تتأخَّر سلام، نزلتْ وهي غاضبة أشدّ الغضب، ووضعتْ حِسان في كرسيِّه الخاصّ، وجلستْ بجواره وانطلقنا. لم نتحدَّث في الطريق وحين وصلنا انشغلت سلام بحِسان إلى أن غفا ونام. بعدها جاءت إلى غرفة الجلوس وهي تتمتم:

- هل أنا مرتبطةٌ بمجنون، أم بمريضٍ نفسيٍّ؟

حينها أجبتها بكلِّ لؤمٍ:

- بل أنا المرتبط بالمريضة النفسيَّة، التي لا تستطيع استيعاب الكلام حتَّى بعد تكراره آلاف المرَّات!

هنا وقفتْ لبرهة أمامي، امتلأت عيناها بالدموع، ثمَّ قالت لي:

- نعم لا أفهم، ولمعلوماتك، لديّ موعدٌ بعد أسبوع في عيادة الدكتور كرم، وسأذهب لأثبت لكَ أنِّي لا أفهم، وافعل ما شئت أن تفعل، أيُّها العاقل المتَّزن.

إنَّها تتحدَّاني! ما هذه الوقاحة التي لم أرَ لها مثيلاً، خطر ببالي في هذه اللحظة أنَّ هذا هو عصيان الزوج، وعليها أن تفهم أنَّ كلامي هو الذي سيُطاع، أخذت نفساً عميقاً وقلت لها وأنا بكامل تركيزي:

- اسمعي يا هذه وأصغي جيِّداً لِما سأقوله، عليّ الطلاق إن ذهبت إلى ذلك الموعد!

أنهيت جملتي تلك وتركتها لنفسها، وعاهدت نفسي ألا أتحدَّث إليها حتَّى يحين يوم ذلك الموعد، وبما أنَّها لن تذهب من كلِّ بدٍّ، فسأقوم حينها بإصلاح ما أفسدته اليوم.

سلام مارس 2016

ما الذي دهاه؟ كيف يجرؤ على الحديث معي بهذه الطريقة؟ أين آدم الذي كان متعاوناً معي إلى أبعد حدٍّ قبل أشهر؟ أين مصارحته وحبّه لي الذي تحدَّث عنه؟ أين كلّ وعوده بأنَّ حياتنا ستغدو أفضل، وأنَّنا وأخيراً اجتزنا صعوبات البداية؟

أيّ حياة، وأيّ اجتياز! لقد عدنا إلى المربع الأوّل، أكاد لا أصدق أنَّه الشخص ذاته الذي أغدق عليّ بالحبِّ والحنان، حتَّى كلامه لم أعد أفهمه. لم أفهم ماذا كان يعني بهذه الجملة "عليّ الطلاق"!

كيف يكون الطلاق عليه؟

أنهى جملته تلك ولم يتحدَّث بعدها معي مطلقاً، إلى أن جاء يوم الموعد، لم أجد بذهابي أي مشكلة، لا سيَّما أنَّ من سيهتم بأمر تنظيف الأسنان هي فنيَّة الأسنان بالتأكيد، فطبيب الأسنان لا يتولى تلك المهمَّة. فكَّرت طويلاً قبل أن أذهب، وتوصَّلت إلى نتيجة أن عليّ إجباره ليخرج من أفكاره تلك، ولعلَّ هذه الطريقة هي الأفضل. تركت حِسان عند والدتي وذهبت فعلاً إلى الموعد، وحين عدت فتح لي آدم الباب وسألني وهو يتصنَّع الهدوء:

- لا تقولي لي أنَّك ذهبتِ إلى موعدك!
- نعم، ذهبت.

وما إن قلت ذلك حتَّى تسمَّر في مكانه، ولم ينطق بحرفٍ، بقي على هذه الحال عشر دقائق، ثمَّ بدأ بالصراخ بأعلى صوته:

- أتظنِّين أنِّي كنت أمزح؟ ألا تعلمين ألّا مزح في هذه الأمور؟
- عمَّ تتحدَّث؟
- اعترفي بأنَّ هذا ما كنتِ تسعين خلفه، يبدو أنَّ الدكتور كرم أهمّ من ابنك ومنِّي ومن كلِّ شيءٍ، لذا لم يكن التخلِّي عنَّا بهذه الصعوبة، وأتى الأمر كما لو أنَّه الخلاص.

خرجت من أمامه إلى المطبخ، لكنَّه بقي يكرر نفس الكلمات، وهو يصرخ ويشتم إلى أن رجعتُ إلى الغرفة وسألته:

- ماذا تقول؟ ما الذي دهاك بالضبط؟ أنا لا أفهمك!

نظر إليّ نظرة ازدراء وقال:

- لقد تطلَّقتِ يا مدام! هل فهمتِ أم ليس بعد؟

بقيت صامتةً لبرهة كي أستوعب كلماته، ثمَّ سألته:

- كيف؟ عن أي طلاقٍ تتحدَّث؟

لم يرد، ارتدى ملابسه ومضى وهو يرتعد من الغضب وتركني في حيرتي، شعرت بفزعٍ وخوفٍ لم أشعر به في حياتي. ماذا يقصد بأنِّي تطلَّقت؟ كيف ومتى ولماذا؟!

بقيت أدور في المنزل، من غرفةٍ إلى غرفة، إلى أن مضت أربع ساعات، عاد بعدها آدم حوالي الساعة العاشرة مساءً وهو هادئ وحزين، سألته على الفور:

- آدم، اشرح لي، ما الذي يجري؟

لكنَّه لم يرد، أخذ بطَّانيته ووسادته، ونام على أريكةٍ في غرفة الجلوس.

آدم

مارس 2016

حين صدمتني بذهابها وعدم اكتراثها بما قلت، ثار جنوني، خرجت من المنزل، وكالعادة رحت أجوب الشوارع، وأتساءل: لماذا تتكرَّر معي هذه الأزمات كلّ فترة، لم لا أستقرُّ عاطفيَّاً وعائليَّاً كباقي البشر!

بعد مرور ساعة، قرَّرت الذهاب لأسأل إمام الجامع عمَّا فعلته وماذا يترتَّب عليه، فهي المرَّة الأولى التي أواجه فيها هذا الموقف، لم أعايشه ولم أتعرّض له سابقاً، وبعد كثيرٍ من الأسئلة التي طرحها عليّ إمام الجامع، تبيَّن لي أنَّ الطلاق قد وقع فعلاً، فأنا لم أكن أهدِّد، بل عنيت ما قلته بالحرف الواحد. شرح لي عن العدَّة وكيف تُحسب وما لنا وما علينا خلال العدَّة.

حين عدت إلى المنزل، لم أستطع الحديث مع سلام، واستمرَّ وضع صمتنا لأيَّامٍ، إلى أن استيقظتُ ذات صباح وقرَّرتُ أن أمرِّر لها المعلومات التي تلقَّيتها من إمام الجامع، فمن غير شكٍّ هي لا تعلم أيَّاً منها. في ذلك اليوم كنت في المطبخ أحضِّر قهوتي، فدخلت تحضِّر

الحليب لِحسان، كنت واقفاً في الجهة المعاكسة، فتجرَّأت على بدء الحديث، وقلت:

- لقد وقع الطلاق فعلاً، عليك أن تحتسبي العدَّة بدقَّةٍ.

ورحت أشرح لها كيف تحسبها، أمَّا سلام فقد بقيت تصغي إليّ من غير أن تقاطعني، ثمَّ قلت لها:

- يتوجَّب علينا المكوث معاً في منزلنا أثناء العدَّة، خروجك مسموحٌ لكن بإذني، أعلم أنَّك بذلتِ جهداً في إعادة افتتاح الاستيديو، تستطيعين الذهاب وليس عليك سؤالي كلّ يوم حول هذا الأمر، إضافةً إلى المشاوير المعتادة من تأمين أغراض حِسان أو أخذه إلى مكانٍ ما، أسمح لكِ بذلك.

توقَّعتها أن تقاطعني، لكنَّها لم تفعل، حينها انتقلتُ إلى النقطة الأخيرة وقلت لها:

- أستطيع بأيّ لحظةٍ إرجاعك إلى ذمَّتي، حتَّى من غير أخذ موافقتك، لكنِّي لن أفعل ذلك، فلديّ شروط.
- شروط!

قالتها وهي تنظر إليّ بغضبٍ شديد، فأجبتها:

- طبعاً، وهل تظنِّين أنَّ الأمر سيمرُّ بهذه السهولة من غير أن نجد له حلَّاً؟ إن أردنا الاستمرار في زواجنا، هذا يعني أن نوضِّح بعض القواعد والأمور كي لا تتكرَّر هذه المشكلات.
- لن نوضِّح ولن نقرِّر ولن نفعل شيئاً، هدمتَ عائلتنا من أجل أفكارٍ سخيفةٍ تدور في رأسك الفارغ، مع كامل احترامي، فأنا التي لن تقبل الرجوع قبل وضع شروط وليس العكس يا أستاذ.
- إذن؟
- إذن دعني أحتسب فترة عدَّتي، فلتمضِ تلك الأيام بالسرعة القصوى، فأنا لم أعد أطيق رؤيتك!
- صدقتِ فعلاً، أبادلك الشعور ذاته يا مدام!

أخذتْ زجاجة الحليب وخرجتْ من المطبخ غاضبةً.

سلام أبريل 2016

مضى شهرٌ على طلاقنا، ورغم أنّنا اتَّفقنا ألا نخبر أحداً بالأمر، لكن للأسف انتشر الخبر رغماً عنّا منذ الأسبوع الأول للطلاق، فوالدة آدم شعرت بخطبٍ ما، ولم يكن من الصعب أن تستدرج آدم ليبوح لها بما حصل. لكن من الجيِّد ألّا أحد إلى الآن يعلم السبب الرئيس وراء الطلاق، وإلا أصبحنا أضحوكة الجميع.

تحدّثت معي والدتي وحماتي عشرات المرّات، وكنتُ في كلّ مرّة أردّ بالجملة ذاتها: هذا أفضل لنا.

تزامنت فترة العدّة مع زفاف ابن عمّ آدم، في ذلك اليوم قرَّرت أن أبيت عند والدتي، لم أكن أشعر بالارتياح في أن أحاط بأجوائهم التي لم تعد تعنيني بالفعل، آدم وعائلته سيغدون غرباء عنِّي بعد أسابيع، وقبل أن أنطلق قال لي آدم وهو على وشك أن يحضِّر نفسه للذهاب:

- سأصطحب حِسان معي بضع ساعات ثمَّ أعيده.

لم أشأ أن أعانده، فهو الحفيد الوحيد للعائلة، فأجبته:

- حينما تعيده، أعِده إلى منزل والدتي، سأكون هناك بانتظاره، وسنبيت معاً عندها.

حين رآني لم أعارضه، لم يعارضني هو الآخر وأومأ بالإيجاب. بعدها حضَّرت ملابس حِسان ورتَّبت شعره، وحين أصبح الصغير جاهزاً اصطحبته إلى غرفة النوم هناك حيث آدم كان ينتهي من ارتداء ملابسه، وقبل أن أدخل إلى الغرفة طرقت الباب، لكنَّه لم يردّ، سمعت صوته وهو يشتم ربطات العنق، علمت حينها أنَّه مرتبك كعادته ولا يستطيع ربطها بمفرده، فدخلت وكما توَّقعت، كان يقف أمام المرآة يحرِّك ربطة عنقه يميناً ويساراً ويكاد يخنق نفسه. تسلَّلت بهدوءٍ أمامه، وأمسكتها من بين يديه، فتجمَّد في مكانه وأرخى يديه ليعطيني زمام التحكُّم، رفعت قدميّ إلى أبعد حدٍّ كي يتسنَّى لي الوصول إليه، فانحنى قليلاً ليسهِّل عليّ المهمَّة. كان آدم في منتهى أناقته، بينما كنتُ في منتهى الفوضى. رحت أفكِّر للمرّةَ الأولى: ترى هل يتزوَّج آدم مجدَّداً؟ وحينها ولأوَّل مرَّة لاحت لي جُمان. يا إلهي، لا بدَّ أن يعودا إلى بعضهما البعض، فهي لم تتزوَّج بعد.

أكانت كلّ هذه المسرحيَّة كي يعود إليها؟ ألم يخبرني أنَّه نسيها؟ أيعقل أنَّه أراد التخلُّص منِّي حقّاً وجعل كرم ذريعةً لذلك؟

انتهيت من ربطها وكلانا ينظر إلى الآخر بعينين لامعتين، كان قلبي يخفق بشدَّةٍ وتساءلت: هل أخطأتُ؟ هل كان عليّ أن أكون أكثر طواعية؟ لماذا لم أستجب لرغبته؟ ما الذي كنتُ سأخسره لو ألغيت موعدي؟ هل أخبره بأنِّي لم أكن أعرف بعواقب فعلتي؟ وأنِّي لم أفهم أنَّها صيغة طلاق! هل أخبره أنِّي لم أقابل كرم في ذلك اليوم؟ وأنَّ فنيَّة العيّادة هي التي تقوم بعمليَّة التنظيف، هل أخبره أنِّي لم أكن لأجرح شعوره! هل أخبره بكلِّ ذلك أم أكتمه في قلبي؟

آدم أبريل 2016

وددت لو أخبرها بما يجول في خاطري، لكنِّي لم أستطع، هل أخبرها أنِّي نادمٌ على ما فعلت؟ أم أخبرها أنَّ ما حدث بسبب غيرتي عليها وحبِّي لها؟ أم أعترف لها بأنِّي تافه، طلَّقتها لأجل سوء تفاهم، وأنا بقرارة نفسي أعلم أنَّها عاندتني من طيشها وقلَّة خبرتها في الحياة لا أكثر. عاندتني لأنَّ حالتها النفسيَّة ليست سويَّةً هذه الفترة، وبدلاً من أن أحتويها، طلَّقتها، يا لغبائي!

نظرت إلى عينيها، أردت أن أقول لها، دعينا نعود إلى بعضنا، لكن خشيت أن تكرِّر لي كلماتها القاسية. كنت على وشك أن أحضنها، لكن في لحظاتٍ تغيَّر الموقف بسبب حِسان الذي أوقع على نفسه علبةً كانت على الكرسيِّ، ممَّا جعلنا نهرع إليه، بعدها غادرت سلام الغرفة مباشرة، لعلَّها لا تريد أن يتكرَّر الموقف، فجعلت تتحاشاني إلى أن أخذت الصغير وانطلقت. وبعد عدّة ساعات قرَّرت أن أعيده إلى أمِّه قبل أن تبدأ زحمة حفل الزفاف وقبل أن يتأخّر الوقت. كانت الساعة نحو التاسعة مساءً، وحسب الاتِّفاق توجَّب عليّ أن أعيد محمَّداً إلى منزل حماتي، وستكون سلام بانتظاره. وصلت إلى هناك، ففتحت سلام لي الباب وعيناها منتفختان، من الواضح أنَّها كانت تبكي، ولا عجب،

فاليوم فرحة كبيرة، والكلّ مجتمع، لكنَّنا أنا وهي لا نستطيع مشاركتهم الفرحة بسبب مشكلاتنا ومصائبنا.

استلمت حِسان من يدي، وكانت على وشك أن تغلق الباب، لكنِّي لم أسمح لها، فأمسكت الباب بيدي. نظرت إليّ باستغرابٍ فدخلت إلى المنزل وقلت لها:

- لديّ طلبٌ واحد أخير، هلَّا سمعتيه!
- تفضَّل!
- ارتدي ملابسك ورافقيني اليوم في الحفل.
- لا أستطيع
- أرجوك، دعينا نترافق للمرَّة الأخيرة.

وأمسكت بيدها، لم تفلتها منِّي، فضغطتُ عليها بحنان، هنا شعرت أنَّها على وشك الاستسلام لطلبي، أمسكت بحافَّة ذقنها وجعلتها تنظر بشكلٍ مباشرٍ إليّ، لكنَّها أبعدتني وهي تقول لي بحزنٍ:

- لا أستطيع، أنا في العدّة كما تعلم!

لم أضغط عليها أكثر وعدت وحيداً إلى حفل الزفاف، لم أكن على درايةٍ بما يحدث حولي، فقد كنت أفتقدها في كلِّ ثانيةٍ، وفي كلِّ لحظة.

لم أرَ في حياتي أعند منها، ولا من هو أشدّ غباءً منِّي!

سلام أبريل 2016

كادت الغيرة أن تقتلني في ذلك اليوم، ترى من صعدت معه في السيارة؟ ماذا فعل في الحفل؟ هل كان سعيداً بالصبايا والجميلات اللواتي كنَّ حوله؟ هل شارك في الدبكة، وربَّما كانت بجانبه فتاة؟! هل تغزَلّت إحداهنَّ به وبظرافته ووسامته؟

لكن ما لفت انتباهي هو أنَّ خاتمه ما يزال بيده، فأنا منذ أن تطلَّقنا لم أعد ألبس خاتمي، أمَّا هو فقد ذهب إلى حفل الزفاف وهو يرتديه. بكيت طيلة الليل، وبقيت بمزاجٍ سيءٍ طيلة الأسبوع. لكن بعد ذلك بأيام بدأت أشعر باقتراب الانفصال، فرحت أخطِّط لحياتي بعد آدم. خطَّطت في بادئ الأمر بأنِّي قد أعود إلى كندا، لكن حين فكَّرت مليَّاً فضَّلت البقاء في الوطن هذه الفترة، لأنَّ حِسان ما يزال صغيراً جدَّاً، ومن الجيِّد أن يكون أباه متواجداً معه، فمسؤوليَّته ليست بالأمر الهيِّن.

آدم

مايو 2016

فتحت بريدي الإلكتروني لأتفاجأ بردٍّ السفارة الفرنسيَّة، وموافقتهم على منحي التأشيرة لحضور معرض المعدَّات الطبيَّة ودورته التدريبيَّة المقامة في باريس لهذا العام. أعلم في داخلي أنَّ دعوتي من قبل الشركة بهذه الطريقة لم تكن عفويَّةً، أحدٌّ ما وراء ذلك، وربَّما تكون جُمان بالفعل. حين رأى المدير اسمي لم يقبل اعتذاري وأصرَّ على إرسالي، تعذَّرت بأنَّ تحصيل التأشيرة ربَّما لا يكون بهذه السهولة، فما كان جوابه إلا أن قال: جرِّب حظّك!

حين أرسلت أوراقي لم أتوقَّع أن أحصل على التأشيرة في الوقت المناسب، لكن يبدو أنَّ الأمر قد تمَّ بالفعل. أرسلت إلى مديري وأعلمته، فطلب منِّي أن أحضِّر نفسي للسفر بسرعةٍ.

سينعقد المعرض في الأسبوع القادم، وأنا حصلت على التأشيرة للتو، كان عليّ شرح تلك الأمور لسلام. عدَّتها على وشك الانتهاء، ولم يحدث أي جديدٍ، تتحاشاني في كلِّ مرَّةٍ أحاول فيها الحديث معها، أيقنت أنَّها أيامنا الأخيرة معاً، لكن كان لا بدَّ لي من المحاولة الأخيرة قبل سفري.

انتظرتها في ذلك اليوم إلى حين عودتها من الاستيديو، وعندما انتهت من واجباتها في المنزل، ناديتها كي نتحدَّث:

- سلام! لديّ سؤال.
- تفضَّل
- العدَّة على وشك الانتهاء على ما أظن، بقي أسبوعان تقريباً، هل هذا صحيح؟
- نعم صحيح.
- لا بدَّ أن نتحدَّث ولو للمرَّة الأخيرة، هل لديك أي مانع؟
- ليس لديّ أي مانع، ولكن أشعر بالتعب اليوم ولا طاقة لي لسماع أي شيءٍ ولدينا أسبوعان نستطيع التحدُّث متى شئنا.
- في الحقيقة لن يكون ذلك متاحاً، فأنا مسافر إلى فرنسا الأسبوع المقبل لحضور معرض ودورة تدريبيَّة مهمَّة.

نظرتْ إليّ نظرةً واضحةً ومفهومةً، لم أبرِّر ولم أدافع عن نفسي ولم أشرح، بل أكملتُ كلامي:

- ما تزال لدينا فرصة لنفكِّر بالعودة، يستحق هذا الطفل أن نضحِّي لأجله، ألا تظنِّين ذلك؟
- ليس من الجيِّد أن يرى نموذجاً سيِّئاً لعائلةٍ متفكِّكةٍ، وليس من الجيِّد أن يعيش مع أمٍّ تعيسةٍ، هذا رأيي.

- إذن لا ترغبين بأن نعطي لأنفسنا فرصةً أخيرةً.

- لا!

- حسناً، دعيني أقول لك هذه الجملة، لعلَّها تكون شفيعة لي يوم القيامة، سلام، أنا أرغب في إرجاعك لكن بعد أن نحلَّ أزمتنا ونعتذر لبعضنا البعض، تستطيعين إعطائي الجواب في اللحظة التي ترغبين فيها، وحتَّى بعد انتهاء العدَّة، فسيبقى العرض موجوداً.

صمتُ قليلاً ثمّ عقَّبت:

- تهمُّني مصلحة حِسان في المقام الأوَّل.

لم ترد سلام، ولم تقل شيئاً، كانت سارحةً تماماً ويبدو أنَّ خيالاتها قد أخذتها إلى عالمٍ آخر.

هل تظنَّني ذاهباً إلى جُمان! يا للسخافة!

سلام　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　مايو 2016

ضربت كفَّاً بكفٍّ ولم أصدِّق ما سمعته أذناي! أينوي الذهاب إلى جُمان؟ هل إلى هذا الحدّ أنا رخيصةٌ بالنسبة إليه؟

شعرت بالقهر والألم الشديدين، لكنِّي عزمت ألا أسأله أو أعاتبه أو أستفسر منه، فمن المفروض أنَّ شأنه لم يعد يعنيني بعد الآن، لكن ما لا أفهمه، لِمَ يودّ إرجاعي إلى ذمَّته إن كان يخطِّط للذهاب إليها في الوقت ذاته؟ أكلّ ذلك فقط لأجل حِسان، كما كان يكرِّر!

ألم يستطع ولو لمرَّةٍ أن يقول كيف سنعيش بعيدين عن بعضنا؟ كيف ستكون الحياة من دونك يا سلام، أن يقول شيئاً من هذا القبيل، كم هو مغرورٌ وأنانيٌّ، ألا يكفيني ضغط والدتي ووالدة آدم؟

عليهما أن تسمعا كلامه وطريقته وأسلوبه الجافّ السخيف، ناهيك عن سفره المفاجئ إلى باريس. أشكُّ بوجود معرض، كيف سأصدِّقه وهو لم يذكر شيئاً عن الموضوع إلا الآن؟ أيلعب على الحبلين في آنٍ معاً؟ وحين وجدني مصرَّةً على الطلاق، استأنف محاولاته مع جُمان؟ فليعد إليها، وليهنئا ببعضهما، وأخيراً سأتحرَّر منهما على حدٍّ سواء.

في صباح اليوم التالي، بدأت بجمع أغراضي من المنزل، كانت يداي ترتجفان، ومشاعري متضاربةً بين الألم والحزن والغضب والندم، الندم على أحلامي، ومشاعري التي بذلتها في المكان الخاطئ. لم أستطع أن أكتم دموعي حين أمسكت بلعبة آدم القديمة "الأرنب الصغير"، يا إلهي! كم تبدو الأشياء سخيفةً حين ينتهي الأمر بهذه الطريقة، كلُّ شيءٍ سخيف، بما فيه أنا!

آدم يونيو 2016

يوم السفر كان مؤلماً، ودَّعت حِسان، ورغم أنَّ مدَّة إقامتي في باريس لن تتجاوز الأسبوع، إلا أنِّي حين سأعود سننفصل رسميَّاً أنا وسلام، بمعنى أنَّ حِسان لن يبقى أمامي طيلة الوقت كما هو الحال الآن، قلت لسلام بينما كنت خارجاً من المنزل:

- أرسلتُ إليك أجندة المعرض، ربَّما تلزمك.

لم تعلّق على الأمر، لكنّها قالتْ:

- حينما ستعود، تستطيع الرجوع إلى منزلك، سأكون قد حزمت حاجياتي وانتقلت إلى منزل أهلي.
- لا عليكِ، خذي وقتك.

نظرتْ إليّ نظرةً يشوبها الحزن والغضب، ثمَّ تنبَّهتْ إلى خاتمي الذي ما أزال أرتديه في يدي اليسرى، أطالت النظر إليه كما لو أنَّها تحتاج إلى تفسيرٍ، لكنَّها لم تسأل، وبناءً على ذلك لم أجب. انطلقتُ إلى المطار وحيداً، كان رأسي مليئاً بالأفكار المتناقضة، بدأت أفكّر هل حقّاً إن أتيحت لي الفرصة، قد أعود إلى جُمان؟! هل إن رأيتها سأسترجع حنين

الماضي؟ وإن كانت هي من وضعت اسمي في القائمة، ماذا تريد بالضبط؟!

أغمضت عينيّ ولم أفتحهما إلا حين حطَّت الطائرة في باريس، ومنذ اللحظة الأولى هناك وأنا أفكِّر بسلام، وكلامها الدائم عن باريس، فقد زارتها كثيراً أيام دراستها، وحدَّثتني عن كلِّ المعالم والأماكن المميَّزة فيها، كنت أبتسم وأنا أجوب الشوارع في اليوم الأوَّل. عدت إلى الفندق بعد تناول طعام العشاء في أحد المطاعم القريبة، فتحت جهازي كي أتحدَّث إلى حِسان قبل أن ينام، وللأسف كان قد نام بالفعل، كتبت لي سلام:

- سأتَّصل بك غداً حين يكون حِسان مستيقظاً.
- حسناً لا بأس.
- تصبح على خير.
- ثوانٍ، انتظري قليلاً أودُّ أن أقول لك شيئاً.
- تفضَّل
- لكنتك الفرنسية أجمل من لكنة الفرنسيين أنفسهم، اليوم وبينما كنت أسمع كلامهم، لاحت صورتك أمامي طيلة الوقت، أحبُّ طريقتك في نطق الحروف.

لم تردّ، واكتفت بإرسال وجهٍ باسمٍ، وأغلقت المحادثة.

آدم

يونيو 2016

في صباحي الأوَّل في باريس، استيقظت وانطلقت إلى المطعم الخاصِّ بالفندق لتناول طعام الفطور، نظرت إلى المائدة والأطباق وتساءلت: ربَّاه كم يحبُّ الفرنسيون الحلويات! هل آكل هذا في الصباح؟

أخذت قطعة جبنٍ مع خبزٍ فرنسيٍّ، وكأساً من الشاي، وأكلت وأنا أفكِّر بقلقٍ، فأنا إلى هذه اللحظة ما أزال أشكُّ في نفسي، هل يا ترى ما أزال أحمل لها المشاعر!

انطلقتُ إلى المعرض، وقلت في نفسي هي دقائق معدودة وسأراها، وسأكتشف حقيقتي، وبعد وصولي بعشر دقائق لاحت لي من بعيد، كنت جالساً أتحدَّث مع بعض المهندسين، لم يكن من الصعب تمييزها، فهي المحجَّبة الوحيدة في الأرجاء. نظرتْ إليّ وهي مرتبكةٌ، ثمَّ أقبلتْ إلى حيث كنتُ جالساً، وقالت:

- آدم، الحمد لله على سلامتك!
- أهلا جُمان، شكراً لكِ!

لم تتظاهر بأنَّها تفاجأت برؤيتي لكنَّها لم تستطع إخفاء اختلاج مشاعرها، سألتني:

- كيف حالك؟ هل ارتحت من السفر؟
- أنا بخيرٍ والحمد لله، كيف حالكِ؟
- بخيرٍ

وفي تلك الأثناء، كان علينا التوجُّه إلى افتتاحيَّة المعرض، ابتسمتُ لها وانطلقتُ بين الجموع مبتعداً عنها كي لا أجدها قريبةً منِّي حيث أجلس. جلستُ بهدوء، وبدأت فعاليات المعرض، ورحتُ أفكِّر: ها قد رأيتها يا آدم، وتحدَّثتَ إليها، ولم يخفق قلبك بشدَّةٍ، وكان نبضك بسرعته العادية، ويداك لم تتعرَّقا.

ابتسمتُ نصف ابتسامة، وشعرتُ فجأة بغربةٍ شديدةٍ تجاه كلّ من حولي، وأولهم جُمان! فتيقَّنتُ أنَّ جُمان هي الآن مجرَّد ذكرى جميلة، حتى أنَّ تلك الذكرى الجميلة لم تعد مرتبطةً بذاتها الحالية، هما كيانان منفصلان تماماً.

أمّا هي فقد شعرتُ بأنّ نظرتها وسلامها تحملان كثيراً من الآمال، ترى هل علمت جُمان بأمر طلاقي! ماذا تعتقد أنِّي فاعل؟ أتنتظر منِّي خطوةً تجاهها؟ أم أنَّها هي من ستُقدم على تلك الخطوة؟

كنت أتساءل خلال أيام المعرض الثلاثة الأولى، فرجَّحت الاحتمال الثاني، إذ كانت جُمان تحاول التحدُّث إليّ بين الفعاليات، وكنت أتحاشاها في كلِّ مرَّةٍ نتواجد فيها على طاولةٍ واحدةٍ أو ركنٍ واحدٍ. لا أنكر أنِّي ما أزال أكنّ لها الإعجاب، فحين ألقت محاضرتها، كانت كعادتها متألِّقةً وقويَّةً، لست وحدي من انبهر بها، بل جميع الحضور، لا سيَّما أنَّها محجَّبة، ونظرة الأجانب إلى المحجَّبات يكسوها دوماً بعض الشكِّ حول قدرتها على مواكبة العلم والتطوُّر، كما لو أنَّ الفتاة المحجَّبة تغطِّي عقلها لا رأسها!

وفي اليوم الرابع، وبينما كنت واقفاً أتأمَّل الإطلالة الجميلة من نوافذ المعرض، نادتني جُمان، ومجدَّداً لم يخفق قلبي لسماع صوتها وهي تنادي باسمي، كنت أدرك مع كلِّ مرَّةٍ ألتقي بها خلال المعرض، أنَّها لم تعد

تسكن قلبي إطلاقاً، لا أعلم متى خرجت خروجاً نهائيّاً منه، كما لا أذكر كيف، فأجبتها:

- أهلاً جُمان.
- أأنتَ بخيرٍ؟
- نعم

صمتُّ ولم أتحدَّث أكثر، ففهمتْ أنِّي لا أودُّ الكلام الآن، وقبل أن تمضي، قالت:

- اليوم، وخلال المأدبة المخصصة للمعرض، لديّ ما أقوله لك.

أنهت جملتها وانطلقت.

ماذا تريد أن تقول؟! لا يا جُمان، لقد فات وقت الكلام. اعذريني، فليس لديّ آذان لتصغي إليكِ!

سلام يونيو 2016

مضت خمسة أيامٍ على سفر آدم، وكي يحادث حِسان كنت أتقصَّد الاتِّصال به في أوقات الفعاليات الترفيهيَّة منتصف النهار وآخره. توقَّعت ألا يكون متاحاً في تلك الأوقات، فهي المناسبات الأفضل كي يجتمع بحبيبة القلب.

ترى هل رآها؟ وهل اتَّفقا على الارتباط؟

كانت تلك الأسئلة تحيّرني، خاصَّة أنَّ لجُمان محاضرة ستلقيها، أو ألقتها بالفعل. كنت أفكِّر باحتمالين لا ثالث لهما، إمَّا أنَّ آدم ممثِّلٌ بارعٌ، أو أنَّه صادقٌ تماماً، وذلك نظراً لكلماته الرقيقة ونظراته إليّ أثناء الحديث معه، والتي توحي باشتياقه ورغبته في إطالة الحديث معنا كي يتسنَّى له رمي كلماتٍ لي، فإن كان على تواصلٍ مع جُمان، ويسعى إليها، فهذا يعني أنَّه ممثِّلٌ بارع، أمَّا إن كان لا يهتم بها كما يتهيَّأ لي، فهو صادق أشدّ الصدق حيال كلامه معي.

كنتُ في حيرةٍ من أمري، قطعتُ سلسلة أفكاري تلك وفتحتُ جدوله، لأجد أنَّ لديه بعد ساعة مأدبة العشاء الخاصَّة بالمعرض في أفخم وأرقى مطاعم باريس. قرَّرت إكمال الخطَّة ذاتها، وعزمت أن أتَّصل به حالما

يحين موعد المأدبة. لكن للأسف حين اقترب الموعد كان حِسان قد غفا بالفعل، حاولت إيقاظه، لكن دون جدوى. فكَّرت بما يمكنني فعله، ثمّ استسلمت وقلت في نفسي: في كلِّ الأحوال لا يوجد صاحب عقلٍ يضيع فرصة الذهاب إلى مأدبةٍ كهذه ليجرِّب المأكولات الفرنسيَّة في مكانٍ فاخرٍ وراقٍ كهذا، بالتأكيد سوف يذهب!

أمسكتُ بهاتفي، وفتحت التقويم: ثلاثة أيام وسننفصل رسميّاً، لا أصدِّق! هل أبكي أم أفرح؟

بالطبع سأبكي، إن لم يكن عليّ فعلى طفلي الصغير الذي سيعيش مع أبوين منفصلين. لقد كرَّر لي عمر محاضرات عديدة عن أثر هذا القرار على الأطفال، فقد عانى من انفصال أبويه، لكنَّه لم يحاول أن يثنيني عن قراري، نصحني فقط، وبينما كنت ممسكةً بهاتفي وأفكِّر في كلام عمر حول الطلاق، وصلتني رسالة من آدم، كتب فيها:

- أأستطيع الاتِّصال بكما الآن؟

أجبته:

- حِسان قد نام بالفعل، سأتَّصل بك غداً.

لكنَّه أجاب:

- أأستطيع الاتِّصال بكِ الآن؟
- حسناً

تأكَّدت من ترتيب مظهري ورددت على اتِّصاله، وقلت له باستغرابٍ:

- أهلاً آدم! ظننتك خارج الفندق.

كان وجهه شاحباً، لم يردّ مباشرة، راح يتأمَّلني ثمَّ قال:

- ليس لديّ أي فعاليَّة الآن.
- المأدبة! ألم تحبّ الطعام الفرنسيّ؟
- لا أودُّ الذهاب، ليس لديّ شهيَّة للطعام.

وصمتَ مجدَّداً، بدا حزيناً للغاية، فاضطَّرب قلبي وسألته:

- هل أنت بخيرٍ حقَّاً؟

ابتسم نصف ابتسامة، ثمَّ قال لي:

- نعم بخيرٍ، لا تقلقي!

وبعد صمتٍ قصيرٍ سألني فجأة:

- متى ستنتهي؟
- ما هي؟
- العدَّة؟
- بعد ثلاثة أيام.
- يعني قبل عودتي.
- نعم!
- هل سترتدين الحجاب بالفعل حينما سأتحدَّث مع حِسان؟ يبدو الأمر غريباً ومؤلماً.

رأيت لمعة حزنٍ في عينيه لم أرها في حياتي، هل هو حقَّاً نادمٌ على ما فعله بنا؟! أشفق قلبي عليه، وشعرت بالألم فقلت له:

- إنَّه النصيب آدم، النصيب الذي جمعنا، ها هو يفرُّقنا الآن.
- بل هي حماقتي.

قالها بصوتٍ منخفضٍ وأدار وجهه عن الكاميرا. لا أعرف ماذا كان يخفي بالضبط؟! أيخفي دموعه أم ندمه أم اعترافه بخطئه؟

سألته:

- آدم، سنكون بخير، وسنعتاد الأمر، الحمد لله أنَّ زواجنا لم يكن مبنيَّاً على الحبِّ، حينها سنتألّم أكثر، أليس كذلك؟
- أهذا ما تعتقديه بالفعل؟

أومأتُ برأسي كما لو أنِّي أؤكِّد له الجواب، فقال لي:

- كما تشائين.

وصمتنا مجدَّداً، كسرت الصمت وقلت له:

- حسناً، سأحادثك غداً.
- سلام انتظري.
- تفضَّل

لكنَّه صمت، سألت نفسي: ما به؟ يبدو بحالةٍ سيِّئةٍ للغاية، ماذا يريد أن يقول؟

- آدم، ما بك؟
- اسمعيني سلام، مهما كانت النتيجة، ومهما حصل معنا، أتمنَّى أن تقبلي اعتذاري، لقد أخطأت. أمَّا عن زواجنا الذي سينتهي بعد أيَّام، لا تقرَّري وحدك على ماذا كان مبنيَّاً، أرجوك!

لم أجبه، ولم أطل الحديث أكثر، أغلقت الهاتف وأنا مشوِّشة التفكير، ونتيجةً لذلك لم أنم طيلة الليل وأنا أفكِّر بكلام آدم، وهيئة آدم، ونظرة آدم!

آدم يونيو 2016

لم أرغب بإحراجها ووضعها في موقفٍ ضعيفٍ كهذا، لذا لم أذهب إلى المأدبة، ولم أسمع ما ستقوله لي، فلا شأن لي بها، ولا شأن لها بي، وبدلاً من الذهاب إلى هناك، تحدَّثت مع سلام لكن من غير جدوى، بدت لي أنَّها في عالمٍ آخر، لا بدَّ أنَّها تعدُّ الأيام عدّاً للتخلُّص منِّي.

نعم لقد خسرت الجميع، فلا أنا بقادرٍ على استرجاع قلب سلام، ولا أنا براغبٍ باسترجاع جُمان إلى حياتي. ما هذا البؤس الذي أنا به؟!

نمت وأنا بأسوأ حالاتي، وشاهدت عشرات الكوابيس في تلك الليلة، لذا حينما استيقظت بادرت بالاطمئنان على حِسان وسلام، فلم أكن أشعر بالارتياح إطلاقاً. اتَّصلتُ بسلام عشرات المرَّات، لكنَّها لم تجب، شعرت بالقلق الشديد، فاتَّصلتُ بوالدتها ووالدتي، كلتاهما أكَّدتا أنَّ سلام والصغير بحالةٍ جيِّدةٍ، وهما بخيرٍ.

لا بدّ بأنّ سلام تتهرب منّي كي لا تسمع صوتي، ولعلَّها تضايقت من كلامي معها ليلة البارحة، ولا تودُّ سماع كلماتٍ مشابهة. استسلمتُ للفكرة، وفتحتُ الأجندة، وجدتُ بعض المحاضرات التي لا تهمّني،

فبعد أن انتهيت من الدورة التدريبية خلال الأيام الأولى لم تعد تهمّني الفعاليات الأخرى لأنَّها تعتبر ثانويةً بالنسبة لي.

قلت في نفسي: أأذهب أم لا؟

كان وضعي مثيراً للشفقة، نظرت إلى وجهي في المرآة، كان شاحباً لدرجةٍ مخيفةٍ، فآثرت البقاء في الفندق لأرتاح في هذا اليوم، فلا طاقة لي لمجاملة الناس ولا طاقة لي لأرى جُمان، أريدها أن تبقى بعيدةً عنِّي قدر الإمكان، بعيدةً عنِّي كما اختارت هي منذ سنوات. لماذا تذكَّرت حبَّها لي الآن؟ أنا آسف يا جُمان، لم أعد صالحاً للحبِّ حتَّى وإن انفصلت عن زوجتي.

أغلقت الستائر والأنوار، وضعت لافتة "رجاءً عدم الإزعاج" على باب الغرفة والتحفت بغطائي، وعبثاً رحت أحاول النوم.

كلاهما تسألانني: آدم ما بك؟

ما بي! لم أظن أن تأخذ حياتي هذا المنحى الفاشل. كنت أحلم بحياةٍ أكثر تنظيماً، مليئة بالأيام الجميلة، وتنساب بالحبِّ والفرح والسعادة، أو على الأقل كنت أتخيَّل أيَّاماً طبيعيَّةً مثل بقية البشر، مع عائلةٍ طبيعيَّةٍ.

أغمضتُ عينيّ وأوقفت عملية التفكير، لقد اكتسبت هذه المهارة في الآونة الأخير، ألا أفكر بشيء، يبدو أنَّ عليّ احترافها من الآن فصاعداً.

لا أدري كم ساعة مرَّت وأنا بين النوم والصحو، وفجأة سمعت أحداً يطرق باب غرفتي، استغربت كثيراً، ألم أضع لهم لافتة "رجاءً عدم الإزعاج"؟ ما هذا الإزعاج؟!

لم أرد، لعلَّ الطارق ينتبه إلى اللافتة، لكنّه لم ييأس، وظلَّ ينقر الباب بهدوء كما لو أنَّه قطَّة.

نهضت من فراشي، وحالتي مزرية، وقرَّرت أن أفتح الباب لهذا المزعج وأنا بهذا الشكل، كي يدرك أنَّه أتى في وقتٍ غير مناسب، وبالفعل فتحت الباب بشعري الأشعث وملابس النوم ووجهي المنتفخ من الكسل، وإذ بي أرى ما لم أكن أتوقَّعه في حياتي، نظرت إليها ولم أستطع أن أتكلَّم بحرفٍ واحدٍ، ابتسمتْ ثمَّ قالتْ:

- ألا أستطيع الدخول؟ هل سأبقى طويلاً على الباب؟

لم أجبها، ولم أتحرّك، بل بقيت مذهولاً لا أفهم ماذا يجري!

لم أكن متأكِّداً إن كنتُ في حلمٍ أو حقيقةٍ!

نظرتُ إلى حِسان فرأيته وهو مبتهجٌ جدّاً لرؤيتي وراح يناديني "بابا بابا"، فحملتُه وعانقته بقوَّةٍ. ثمّ ابتعدتُ قليلاً عن الباب لأفسح لها المجال.

أمّا هي فحين دخلتْ توجَّهتْ نحو الستائر ففتحتها وهي تقول:

- أهذهِ إطلالةٌ تُحجب بهذه الطريقة؟!

ثمّ وقفتْ تتأمَّل برج إيفل وباريس من النافذة، وهي تقول:

- لستُ من عشَّاق باريس، لكنَّها مدينةٌ جميلةٌ، ألا توافقني الرأي؟!

لم أجبها، فاستدارت وأقبلت نحوي، تركتُ حِسان ليستكشف المكان فقد كان متحمِّساً لوجوده في مكانٍ جديدٍ، ووقفتُ أمامها أنظر إليها باستغرابٍ كي تشرح لي ما يحدث بالضبط، فقالت:

- هل أتيتَ إلى باريس كي تنام في الفندق؟

وهنا تفوَّهتُ بأوَّل كلمةٍ لي:

- لستُ على ما يُرام، هذا كلّ ما في الأمر.
- ولِمَ أنت متعب؟ هل هو تغيير الجو؟ لطالما كنت مرناً في تغيرات الطقس!
- أنتِ تعلمين السبب، أليس كذلك؟
- لا يا آدم، لم أعد أعرف شيئاً، أنت تتغيَّر بسرعةٍ، لا أعلم متى تغضب، لا أعلم متى تحنُّ، لا أستطيع أن أدرس ردود أفعالك.
- معكِ حق.

وحين لم أسهب أكثر في الكلام، أمسكت حقيبتها وهي تقول:

- حسناً، سأترك حِسان معك الآن، وأذهب لحجز غرفة لي، عن إذنك.

أمسكت بيدها وسحبتها نحوي، فتبادلنا نظراتٍ طويلة لم نكن بعدها بحاجة لأيِّ كلمة، حتَّى الاعتذار لم يكن له أي مكان في تلك اللحظة، وحين أقبل حِسان نحوي كي أحمله، أعطته المجال ثمَّ قالت لي:

- سأجهِّز نفسي ودعنا نخرج لتناول الطعام، أنا جائعة.

وبالفعل خرجنا وأمضينا بقية اليوم ونحن نتجوَّل في شوارع باريس. كنتُ ممسكاً بيدها بكلِّ قوَّتي طيلة الوقت، وأنا أكرِّر في نفسي: لن أضيعك بعد اليوم إطلاقاً!

الفصل السادس

آدم
مايو 2023

إنَّه يومٌ مميَّزٌ، عدتُ من عملي باكراً، وحين دخلتُ إلى المنزل صرختْ سلام بأعلى صوتها:

- آدم! هل عدت باكراً؟ لم أجهِّز نفسي بعد.

أجبتها:

- جميلةٌ أنتِ بكلِّ حالاتك.

ضحكتْ وانطلقتْ كي تجهِّز نفسها، فناديتُ لِحسان وجوري، وقلت:

- أين قبلة بابا؟

جرى الاثنان نحوي فاحتضنتهما بقوَّةٍ، سألتني جوري بلكنتها العربيَّة الخاصَّة:

- بابا، لماذا نحتفل اليوم؟

فأجبتها:

- إنَّه عيد زواجنا أنا وماما.
- ماذا يعني عيد زواجكما؟

- في مثل هذا اليوم قبل عشر سنوات كانت ماما عروساً.

وفي تلك اللحظة دخلت سلام إلى غرفة المعيشة حيث كنت أنا والأطفال. أشعلت الشموع، وأغلقت الأنوار وطلبت منَّا أن نجلس أمام الشاشة الكبيرة. جلست جوري في حجري وحِسان بيني وبين سلام، فقالت سلام:

- لكن مهلاً حِسان مُعاقب، ولا يُسمح له بالجلوس أمام شاشة التلفاز.
- ولِمَ هو مُعاقب؟

سألتها وأنا أحتضنه:

- كأنَّك لا تعلم! ألا ترى تصرُّفاته في الآونة الأخيرة في المدرسة؟ ألا ترى تمرُّده وأخطاءه المتكرِّرة؟
- لا داعي لكلِّ ذلك القلق ما دام أنَّك تتابعيه بشكلٍ دائمٍ!

ثمَّ همستُ في أذنها:

- لن يكبر الأطفال حتَّى يرتكبوا كلَّ أنواع الخطايا.
- يا لهدوئك، ليت عندي رُبُعه. لكن قل لي، أيعني هذا أنَّك ارتكبت كلَّ الخطايا يا زوجي العزيز؟
- لا، فأنا لم أكبر بعد!

- عمرك سبعٌ وثلاثون ولم تكبر بعد؟

ضحكتُ ومن ثمَّ بدأتْ سلام بعرض الفيلم الذي صمَّمته خصِّيصاً لهذه المناسبة، لكن ليس قبل أن تأتي ليينز وتجلس في حضن سلام. كانت مقدمة الفيلم جميلةً ومؤثِّرةً، عرضت بها بعض صورنا أيام الخطوبة وكيف التقينا يوم زفاف عمر وجود، أضافت إلى القصَّة كثيراً من المؤثِّرات الصوتيَّة والبصريَّة، الأمر الذي جعل الفيلم أكثر إثارة، ثمَّ أضافت صوراً ومقاطع فيديو قصيرة ليوم الزفاف، وبعدها عرضت صوراً لمحطَّات مررنا بها خلال العشر سنوات الماضية، رحنا نعلِّق على الصور، ونشرح للأطفال، أين وماذا ومتى حدث هذا وذاك؟!

لم تستطع سلام أن تخفي دموعها حين ظهرت صورة والدها -رحمه الله- مع حِسان، لكن ما لبثت أن تحوَّلت إلى ابتسامةٍ عريضةٍ حين رأينا صورة حِسان في عيد ميلاده الأوَّل، حينها علَّق حسان:

- لِمَ كان وجهي مدوَّراً بهذا الشكل المضحك!

ضحكنا جميعا ثمَّ أردف:

- اشتقتُ إلى جدَّتي هناء، متى سنراها؟

أجبته مقتضباً كي لا نضيع أي جزء من الفيلم:

- في عطلة الربيع إن شاء الله، ستأتي إلى هنا مع جدِّكما.

وفي تلك اللحظة ظهرتْ صورةٌ لسلام تحمل حِسان، فبرقت عيناها وقالت لِحسان:

- هذا الاستيديو الذي كنت أعمل فيه، هل تذكره؟ لطالما اصطحبتك معي إلى هناك.

أجابها حِسان:

- نعم، أذكره، وبالذات في آخر يوم قبل إغلاقه، لقد بكيتِ بشدَّةٍ.

نعم أذكر ذلك اليوم أنا أيضاً، بعد ولادة سلام بجوري، كانت تظنُّ أنَّها ستتمكَّن من العودة إلى العمل بعد أشهرٍ قليلة، لكن لم تساعدها الظروف، فالاعتناء بطفلين ليس بالأمر الهيِّن، اتَّخذنا حينها قراراً بأن توقف عملها فيه، كي نستفيد على الأقل من عائد تأجيره، فذلك أفضل من تركه مغلقاً، لكن من يكن ليدري أنِّي بعد أشهر سأفقد عملي بسبب إفلاس الشركة المفاجئ.

قطعت سلسلة أفكاري تلك الصورة لي حين كنتُ في دبي، وذلك حين سافرت إلى هناك بعد أن فقدت الأمل في إيجاد فرصة للعمل في الوطن، سافرت وحدي كي أؤمِّن أمور العائلة وأجهِّز لقدومهم، إلا أنَّ الوضع لم يكن كما توقَّعت، ولم يعجبني عرض العمل، فألغيت عقدي وقرَّرت

العودة بعد ثلاثة أشهر، شجَّعني على ذلك وعد من مديري القديم، حين أكَّد لي أنَّه سيؤمِّن لي فرصة عمل في الشركة الجديدة التي يعمل بها، لكن للمرَّة الألف، لم أوفَّق وهنا وصلنا إلى آخر بطاقة، ولم يعد لدينا أي حلٍّ آخر إلا السفر إلى كندا، حيث باستطاعتنا تأمين أمورنا بشكلٍ أفضل، فالسفر سهلٌ، والإقامة يسيرة وسهلة نظراً لأنَّ سلام والأطفال يحملون الجنسية الكنديَّة، كما أنَّ وجود منزل سلام سيعيننا على البدء بطريقةٍ مقبولةٍ بالنسبة لعائلة مع طفلين.

نعم سافرت إلى بلدٍ غير عربيٍّ في نهاية المطاف، السفر الذي كنتُ أهرب منه، وكان ذلك هو الحلّ النهائي. في هذه الأثناء وأنا أسترجع ذكريات السفر، بدأت صورنا ونحن في كندا بالظهور على التوالي، علَّقتُ بصوتٍ عالٍ:

- انظري لابتسامتي كم هي مصطنعة.
- لقد بقيت ثلاثة أشهر على هذه الحال.
- لكن انظري إلى صورتي بعد أن انتهيتُ من الأوراق والإجراءات اللازمة للإقامة والعمل، أبدو أكثر إشراقاً.
- وهذه الصورة حين بدأتَ بالعمل، ابتسامتك نابعةٌ من صميم قلبك.

نعم، فلطالما كانت البدايات بائسة! ومن ثمَّ يغدو كلّ شيء أكثر ألفةً ووضوحاً مع الوقت، مرَّت بعض الصور ومن ثمَّ انتهى الفيلم بطريقةٍ فنيَّةٍ وجميلةٍ. احتضنتها وأنا أشكرها على جهدها الكبير لتصميم هذا الفيلم. قاطعتنا جوري الصغيرة وهي تسأل عن الطعام والكعكة، فانطلقنا إلى غرفة الطعام، وبعد انتهاء برنامج الاحتفال، رقد كلٌّ من حِسان وجوري في أسرَّتهما. وعادت سلام إلى غرفة الجلوس حيث كنت جالساً أتصفَّح بعض الأخبار، فأكملنا السهرة على أنوارٍ خافتةٍ، وقالت لي:

- لِمَ تزوَّجنا في الربيع؟ لو عاد بي الزمن لأقمت الحفل في الصيف.
- لماذا؟
- ألا ترى، لا نستطيع الخروج من المنزل في كلِّ عيد زواج لنا بسبب مدارس الأطفال، لو كان في الصيف لقمنا بفعاليَّاتٍ أكثر، لكن مع هذا وذاك هو اليوم الذهبي في قائمتي.
- قائمتك؟ لم أفهم.
- ألم أخبرك مسبقاً بقائمة أيامي الذهبيَّة؟
- لا، وما هي بالضبط؟

- حسناً، دعني أسألك هذا السؤال: لو أنَّ بإمكانك أن تعيش يوماً هارباً من الماضي مجدَّداً كما هو بحذافيره ودون أي تغيير، أي كما كنت فيه، وكما كان الجميع فيه، أيّ يوم تتمنَّاه أن يكون؟

أعجبتني الفكرة، وأعجبني السؤال، فكَّرت قليلاً: تُرى أيّ يوم سأختار؟! عدت بالماضي إلى أيام طفولتي، ومراهقتي، مدرستي وجامعتي، رأيت الجميع في مخيلتي، عائلتي، وأصدقائي، وزملائي، وأحبَّائي. وتساءلت: أيُّ يومٍ يستحقُّ أن أعيده بحذافيره؟! ما تلك التفاصيل التي أودُّ أن أعيشها مرَّةً أخرى؟ ما الوجوه التي أريد رؤيتها مجدَّداً؟ ما الكلمات التي أتمنَّى سماعها؟ وما المشاعر التي أحبُّ أن تشتعل بقلبي كما لو أنَّها ولدت للتوّ؟!

تنهَّدتُ قليلاً، وفكَّرت: أي يوم سأختار، أأختار لقاءنا الأول؟ أم يوم بحنا بمشاعرنا لبعضنا؟ أم يوم خطوبتنا؟! أأختار يوم افترقنا فتمزَّق قلبي بعدها؟ حتَّى مشاعر الألم، تستحقُّ أن تتكرَّر! من قال إنَّ مشاعر الفرح وحدها هي الأجمل؟! إن توجَّب عليَّ اختيار أحد الأيام، فلماذا لا أختار يوم التقينا مجدَّداً؟ كم وددت في ذاك اليوم لو أستطيع أن أبوح بكلِّ ما في قلبي، لكنَّني لم أفلح. لكن مهلاً، عرفت اليوم الذي سأختاره، سأختار اليوم الذي اكتشفت به مشاعرها الدفينة نحوي، أراه الأجمل من بينهم جميعاً.

أذكر كيف اختلج قلبي، وكيف رحت أنظر حولي يميناً ويساراً كما لو أنَّني غارقٌ في بحرٍ هائجٍ أمواجه عاتية خطفت كياني لوهلةٍ، فنسيت نفسي والمكان والزمان.

حقّاً، ما أجمله من يوم! حين أشرقت "شمس بلادي".

تمَّت

لتقييم الرواية وإضافة تعليق أو مراجعة، زوروا صفحة رواية بين كُسَيرات الهوى على موقعنا.

رواية بين كُسَيرات الهوى

يواجه آدم حياته الجديدة بعد أن تخلَّت عنه خطيبته السابقة تاركة وراءها كسيرات هوى تؤلم آدم وتربطه بالماضي. يتحول آدم من شابٍّ مبتهج ومتفائل إلى شابٍّ بائس متعلِّقٍ بالماضي وبذيل أحلامٍ لا يقدر على نيلها، لكنّه يحاول بدء حياة جديدة مع سلام، الفتاة التي أحبّته وقبلت التحدي. فهل ينجح آدم في نسيان ماضيه فعلًا؟ أم يدمّر سلام؟

هذه الرواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدِّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعة من شباب وشابّات لِكُلٍّ منهم قصّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

سحر وهبة

www.faibooks.com
@faibooks
@faibooks7
@faibooks7
info@faibooks.com

جميع الحقوق محفوظة لسحر خواتمي وهبة اعرابي – ٢٠٢٤